ربي،

كيف عصيتك؟!

الجزء الثالث: المعاصي: تبعاتها وآثارها

مراجعة: الشيخ/ خ.

عضو الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين

كتابة:

الأخ/ عبد السِتِّير

ربي، كيف عصيتك؟!

الجزء الثالث: المعاصي: تبعاتها وآثارها

كتابة: الأخ/ عبد السِتّير

التدقيق اللغوي: هشام عبده الروبي؛ عبد الرحمن غريب علي.

مراجعة: الشيخ/ خ.
عضو الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين

الكتاب يجوز مشاركته أو نسخه لمنفعة المسلمين بالعلم، ولكن ليس للتربح الشخصي. إذا أراد أحد تنقيته أو تلخيصه وإعادة نشره فلا مانع عندي ولكن ليتق الله.

فهرس الجزء الثالث

فهرس الجزء الثالث..2

3. المعاصي: تبعاتها وآثارها...4

النشاز عن نظام الكون...6

جلب بُغض الله، وتبعيًّا كل ما خلقه الله...7

عدم اكتراث الكون لهلاك العاصي، مع نسيانه، وكأنه لم يكن له وجود في الأصل، بل وربما يفرح الكون لهلاك ذاك الشخص...11

المعاصي أعمالٌ تُناقض قول العبد إنه يُحب الله...16

المعاصي تضع الحواجز بين العبد وربه، وتحيل بينه وبين الأعمال الصالحة..17

الندم والوحشة...24

فوات فرص تكريم وتشريف من الله للعبد...25

فوات الطمأنينة في مراحل الآخرة واستبدالها بالفزع والذل...30

استحقاق العذاب من الله في الدنيا والآخرة...30

التوتر المستمر لتوقع الإصابة بعقوبة الله على المعصية في أي لحظة أو موقف..32

رفع ستر الله وعونه عن العبد، أي يتخلى عنه فيُصبح العبد مُعرضًا لتيارات الدنيا...33

عدم التمكين في الأرض، بل مع تسليط الأمم العاصية والذليلة والكافرة على الأمم الإسلامية العاصية....................35

عدم استجابة الله لدعاء واستغاثات العاصي...41

ذلة في النفس، ويُصبح العبد هينًا على الله وعلى الناس والحيوانات والجمادات..46

أعراض يشعر بها العاصي مثل الشعور بضيق النفس والأرض عليه، حتى يصل للاكتئاب.....................................51

المعاصي تنتقص من العقل..59

المعاصي تُضعف عزيمة المرء، وقوة بدنه، وشعورة بمسؤولية قضاء ما عليه من التزامات..................................60

فقدان العلم النافع، بل ورفعه إذا تمادى العبد في المعاصي (ضياع الدين)..62

فقدان البصيرة...67

ذهاب الحياء وخمول الغيرة..69

انقلاب حال المرء من النعيم إلى الضيق، ومن اليُسر إلى العُسر، ومما يُحب إلى ما يكره.......................................71

ذهاب الرزق والبركة في الرزق..72

الشيطان يتَّخذ العاصي قرينًا ويُلازمه، مما يترتب عليه عواقب وخيمة..77

انقلاب موازين الحق والباطل عند العاصي..84

سيطرة المعاصي على القلب بعد أن تعلو عليه، فتكون هي الرأس لرغبة القلب، ومن ثمَّ تتحكم في قرارات وأفعال المرء...88

التعود على فعل تلك المعصية، حتى إن المرء ليفعلها من باب العادة وليس من باب الشهوة..................................90

تعريض النفس للهلاك برفع احتمالية الانحدار إلى مستويات أعمق في مستنقع المعاصي، ومن ثمَّ تقليص فُرص الخروج...92

تعريض النفس لمكر الله، بحيث أن يُختم على قلب المرء فلا يستطيع الرجوع ولو حاول......................................99

كثرة المعاصي تجعل المرء ضالًّا ومُضلًّا لغيره، إما متعمدًا وإما غفلةً 109
ظواهر شاذة في سلوك الناس والحيوانات والأرض، وتبعات المعاصى تظهر على غير العاصي حتى 112
ظهور فتن كقطع الليل المظلم 119
يكون الشيطان ولي من أسرف في المعاصي يوم القيامة 132
المعاصي قد تُبطل من الأعمال الصالحة التي أتمها العبد.. 134
الصدمات في شتى مراحل الآخرة 136
خيانة كل أنسابه وأقاربه وأصدقائه من الدنيا كي ينجو من عذاب الآخرة 139
افتراق الأصدقاء المُقرَّبين، بل ونيل معاداتهم واضطهادهم، إن كانوا مع المرء على السوء 140
احتمالية احتداد ثِقَلَ المعاصي على العاصي يوم القيامة إلى حد تخاصم الجسد مع نفسه.................................. 141
قسوة القلب، قسوة القلب، قسوة القلب... 147
المعاصي تجلب التراخي في الدين حتى يلتحق بالمرء صفات المنافقين 149
المعاصي تُقلل السيمات التي تُميز بين المؤمن والكافر 150
النفاق أو الشرك أو الكفر 154
تعجيل قيام الساعة 165

3. المعاصي: تبعاتها وآثارها

إن الله قد حرَّم علينا الأمور التي تكون ضررها علينا أكثر من نفعنا، وهذا يعني أن للمعصية أضرارًا في الدنيا بالإضافة إلى عقاب الله في الآخرة. ولنتناقش بالمنطق، مع التغاضي مؤقتًا أن للأمور التي نهى الله عنها عقوبة في الآخرة لمن يرتكبها، فلا يزال هناك ضرر وعواقب تلك الأفعال في الدنيا – ولا أقصد ما يُنزله الله على العاصي كعقاب حتى، بل أثر المعصية مثل أن السرقة تجلب بطش الناس بالسارق. فأحكام الله يجب ألا يُنظر إليها فقط من جهة الثواب والعقاب، بل من جهة أنها تجلب المنفعة وتُجنِّب المضرة، فهي خلاصة الحكمة والفائدة.

هي بمنزلة الاستنتاج الذي يصل إليه الإنسان ولو بعد قرون من الخبرة –مثل أن السارق لا يجوز تركه دون عقوبة، ولكن تتنوع الآراء حول العقوبة المُثلى لردع السرقة في المجتمع، كلٌّ بحسب عقائده–، ومثل هذه الاستنتاجات قد توصل إليها حتى المُلحدون وجزموا بضرورية العقوبات القانونية. أما بالنسبة إلينا المسلمون، فقد أعطانا الله تلك الأحكام بكل بساطة، وتوفر علينا مشقة البحث، وضرر التجربة، وإضاعة الوقت والحقوق بالتخبط للتوصل إلى الخلاصة والكفاءة.

ولكن المشكلة الرئيسية تكمن في أن الإنسان كثيرًا ما لا يلاحظ أضرار المعصية في الدنيا، وذلك بسبب ثلاث أمور تحُد من إدراك المرء لأضرار المعصية، أولهم أن المرء قد يكون قد تعود على تلك الأضرار من كثرة تكراره للمعصية، فلا يلاحظ أن ذلك ضر من المعصية (والعياذ بالله). ومثال على ذلك هو مصافحة الرجل للمرأة، فإن المرء قد لا يشعر أن ذلك لا يثير شهوته لأن حدث له تبلد بدرجة كبيرة، والحقيقة هي أنها تثير شهوته الباطنة وهو لا يُدرك ذلك، وتظهر تلك بطريقة لا إرادية ولو بعد حين. فهل يُنكر الرجل على نفسه أن جسده لا يتأثر باختلاطه مع النساء، لأنه آنذاك يكون قد أنكر بعضًا من ذكورته.

والأمر الثاني هو أن المرء قد لا يُدرك أن ضررًا أصابه هو من تبعات المعصية، فلا يربط بينهما، فإذا كان لا يرى الصلة فكيف يكون له دافع في ترك المعصية. مثال على هذا هو الذي يسرق شيئًا، وقد رآه رجل ثانٍ ولكن السارق لم يدرك هذا، حتى إذا ظفر السارق بالبضاعة ورأى أنه نجا وابتعد بفعلته، تسلط عليه الثاني فاعتدى عليه بالضرب وأخذ منه البضاعة بالقوة، معتمدًا على أن السارق سيكتم ما حدث له. فالسارق ضُرب وسُلب ما رآه أنه أصبح ملكه بجُهده، ويرى أنه مظلوم ولا يدري لماذا تجبر الثالث عليه هكذا، لأنه لا يعلم أن الرجل الثالث رآه يسرق.

والأمر الثالث ذكره ابن القيم (رحمه الله) في الجواب الكافي قائلًا إن الناس لا يرون تأثير الذنب في الحال، وقد يتأخر تأثيره فينسى، ويظن العبد أنه لا يغبر بعد ذلك الذنب. بمعنى آخر، أن العبد يقتنع أنه تجنب عواقب المعصية، ويرى أنها لم تقع، مع أنها وقعت لكن بتأجيل. ومثال على ذلك هو من يُعين الظالم على ظلمه أو الخائن على خيانته، ثم يجد أنه يظلم كثيرًا ممن حوله، أو أن حاله المعيشي يزداد سوءًا، مثل ذهاب الرزق أو كثرة الهموم أو زيادة إذلاله. قد سلَّط الله عليه ظالمًا غيره، أو هو بعينه، لأن الرجل قد سلَّط شخصًا ظالمًا على أناس غيره، ولا يدري أن هذه متعلقة بتلك. فهذا الشخص يدرك أنه مُصاب ببلية، ولكنه لا يعلم أنها بسبب المظلوم الذي دعا الله عليه مثلًا.

فالأول لا يشعر بالضرر، والثاني يعي بالضرر ولكن لا يعلم أنها عقوبة مباشرة على المعصية، والثالث يعي بالضرر ولكنه لا يعلم أنها عقوبة غير مباشرة على المعصية. فتلك الثلاث نقاط يفصلن الربط بين المعصية والضرر عند المرء، ويجب وضع هذا في الاعتبار.

مما لا شك فيه هو أن المعصية تسبب الخسائر للمرء في الدنيا والآخرة، إذ إن مبدأ تحصيل الماديات بالمعاصي هي خسارة فادحة. فبما أن كل شيء مِلكٌ لله، فإن الله سيرفع ما وهبه الله لعباده من مُلكه يوم القيامة، أي أن كل ما "تمَلَّكه" العبد ينزعه الله، وهذا يعني أن هذه الممتلكات كانت هبة ومنفعة مؤقتة للعبد في حياته الدنيا، ثم تذهب جميعها، بما فيها الصحة (بالموت). حتى بعد البعث، فإن العاصي قد يُسلَب من صحته، فقد ثبت أن البصر يُسلب عن من تَعَامَى عن آيات الله {قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيَ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا} [طه 125].

وهذا كله يشير إلى قلة أهمية الممتلكات، ويشير إلى أنه يجب ألا نبالغ في الإقبال على تحصيلها، وأن القضية تتمحور حول ما نفعله وليس ما نمتلكه، فما بال من سعى لتحصيل ممتلكاته بالمعاصي؟! قال الله تعالى {يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لاَ يَخْفَىَ عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [غافر 16]، فأين ما جمعته من ممتلكات في أثناء مسيرة حياتي يومئذ؟ إني أسعى طوال حياتي لأمتلك هذا وأزيد مما أملك وقد وعظني الله {أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ} [التكاثر 1]، حتى تأتي لحظة الموت... {حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ} [التكاثر 2].

إذًا ما فائدة السعي لكل هذا إن لم يكن سعيي لله؟ ما فائدة التعب لجمع المال والسلطة إن كنت سأخسره يوم أموت، ولن أتمتع بشيءٍ حقيقةً إلا ما يرزقني به الله بعد الموت. بل وربما تُحسب عليَّ سلبيًّا بعد أن أفقِدها ويرثها غيري، فينتفعون بها في حين أنا أُعَذَّب عليها إذ إني جمعتها بالحرام. فالخلاصة هي: كل ما اقتبسته أنا وغيري فهو من ملك الله، وأشياء ما كانت إلا لله! الاستنتاج الطبيعي من هذا أني إذا سعيت في الدنيا دون طاعة الله أكن سفيهًا، لأنه سيضيع مني يومًا ولن يرجع هو ولا أقل منه؛ أما إذا سعيت في الدنيا طالبًا رضا الرب، فما سأفقده عند موتي

سيعوضني الله أفضل منه، فأكون فُزت فعليًّا. فعجبًا لأمري إن سعيت لامتلاك شيء بالمعصية... خسارة في الدنيا -بفقدانه عند الموت-، وخسارة في الآخرة -عند الحساب عليها-.

ثم إن تحصيل متاع الدنيا بالمعاصي إنما هو أحمال يوم القيامة على العبد، ويكون حملًا مزدوجًا في أخف الأحوال، حمل ارتكاب المعصية وحمل النعمة التي لم يؤدِّ شُكرها بالطبع، لأنه حصّلها من معصية فليس منطقيًّا أن العبد قد يكون تذكر شكر الله عليها. بل إن استخدم ذلك العبد ما حصّله من الدنيا في معصية الله أيضًا يكون الحمل ثُلاثي الأضعاف، كالمال الذي يُسأل عنه المرء من أين اكتسبه، وفيما أنفقه (أي من كلا الاتجاهين)، إضافة إلى عدم شكر الله على ما حصّله. فيجب أن أدرك أن تحصيل أمر من أمور الدنيا بالمعصية، خاصة فيما يتعلق بالرزق، شيء أخطر مما نحسبه.

وهناك واقعة مُعبرة جميلة، ولكن بسندٍ مجهول، في آخرها نصيحة حكيمة غالية من صاحبها، حدثت مع سيدنا علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) عندما أراد أن يدخل المسجد. قال لرجل كان واقفًا على باب المسجد: أمسك عليّ بغلتي، فأخذ الرجل لجامها ومضى وترك البغلة (أي سرق اللجام). فخرج سيدنا علي (رضي الله عنه) وفي يده درهمان ليكافئ بها الرجل على إمساكه بغلته، فوجد البغلة واقفة بغير لجام، فركبها ومضى، ودفع لغلامه درهمين يشتري بهما لجامًا، فوجد الغلام اللجام في السوق قد باعه السارق بدرهمين، فقال سيدنا علي (رضي الله عنه): إن العبد ليَحرِم نفسه الرزق الحلال بترك الصبر، ولا يزداد على ما قُدِّر له[1]. فسبحان الله. وتوضيحًا سريعًا للواقعة، من الراجح أن المُشتري عندما علم أن هذا اللجام مسروق، ردها بالدرهمين ولم يطلب مكسبًا.

للعلم، إن الأبواب القادمة قد تتداخل في المواضيع مع بعض، وهذا لأن المعصية قد تتسبب في نزول أكثر من ضرر، أو أن ضررًا يحتاج إلى تحقق ضرر قبله حتى يقع إذ إنهما متعلقان، مثل أن مرحلة النفاق الأكبر تستلزم أن تسبقها مرحلة سيطرة المعاصي على القلب. لكن، وضعت كل ضرر في عنوانٍ وحده حتى يُعلَم ما هي بوضوح، في حين الأضرار مُتَّصلة مثل الشبكة.

النشاز عن نظام الكون

قال تعالى {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ} [النور 41]. كل شيء يعي، وكل شيء يسعى في ذكر الله، حتى الجماد منشغلٌ بتسبيح الله {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} [الإسراء 44]. وقد تباهى الله

[1] ربيع الأبرار للزمخشري 489، والمستطرف للأبشيهي 159/1. إسناد القصة مجهول.

بمخلوقاته العظيمة الذين خضعوا له في الآية {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاء} [الحج 18]، وفي الآية {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ} [فصلت 11]. قد تباهى تعالى بعظمته وسلطانه.

أما أنا، فلديَّ عقل يفوق عقول سائر مخلوقات الله، ومع ذلك فإني أعصي الله، فيا للتناقض. حينما يُسبح كل شيء وأنا على معصية، ألا أخجل؟ لماذا لا أعمل بحيث أني أستحق أن أكون أفضل مخلوقات الله كما أراد الله منا. ألا أليق بتكريمه لي بجعل الملائكة يسجدون لأبي آدم (عليه السلام).

وإذا تساءلنا لماذا كرّمنا الله، فذلك لأن عبادتنا لله اختيارية من منظور أن الله جعل فينا القدرة على الطاعة أو المعصية؛ فمن اختار عبادة الله بدلًا من المعصية أحب إلى الله ممن كتب عليهم الطاعة دون قدرة المعصية (كالملائكة). أما من عاين الحق ثم تخلى عنه وأقبل على هواه في معصية الله، فآنذاك يكون قد أهان نفسه وانحدر إلى درجة تبلغ منزلةً أرذل من الأنعام عند الله. فهأنا بالمعصية أكون في هذا الكون كالنشاز، مُنشقًّا عن طبيعة حال مخلوقات الله. بل وبفعلي ذلك أكون هدامًا لسريان نظام الكون، تمامًا مثل ما أن الصخرة الكبيرة في وسط نهرٍ مُتدفقٍ تؤثر في سريان الماء وليس فقط في منطقتها، بل وحولها، وهذا ما نجده في قول الله تعالى {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الروم 41].

جلب بُغض الله، وتبعيًا كل ما خلقه الله

بُغض الله للعبد إذا أسرف في المعاصي، ويظهر عليه ذلك في سيماته. إن المعصية لتظهر على وجه المرءِ استدلالًا بالحديث "إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلانًا فَأَحِبَّهُ. فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلانًا فَأَحِبُّوهُ؛ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الأَرْضِ. وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَيَقُولُ: إِنِّي أُبْغِضُ فُلانًا فَأَبْغِضْهُ. فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ فُلانًا فَأَبْغِضُوهُ؛ فَيُبْغِضُونَهُ، ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الأَرْضِ"[1]. ولكن لا يُلاحظ ذلك في الوجه أو السلوك فورًا إلا التقيّ أو من له فراسة، ذلك لأن التقيّ يلاحظ أثر المعصية على العباد.

---

[1] صحيح مسلم 4772.

والفراسة شبيهة بالبصيرة ولكنها أعمق، فيرى الأشياء على حقيقتها وليس فقط ما يظهر للعين. وإني لأظن أن الحيوانات أيضًا تستطيع أن ترى هذه الظلمة في الوجه من المعصية، لأن مع مراقبة الطيور والقطط وغيرهما في كيف ينظرون ويتفاعلون مع المرء بعد عصيانه لله، يلاحظ أن هناك فرقًا ولكن لا يستطيع تحديده، وكأن هناك اضطرابًا بينهما. والعكس صحيح، فإن تقوى الله تظهر على الوجه وتجلب حب الناس والحيوانات. وكما قال عبد الله ابن عباس (رضي الله عنهما): إن للحسنة ضياءً في الوجه، ونورًا في القلب، وسعةً في الرزق، وقوةً في البدن، ومحبةً في قلوب الخلق؛ وإن للسيئة سوادًا في الوجه، وظلمةً في القلب، ووهنًا في البدن، ونقصًا في الرزق، وبغضًا في قلوب الخلق[1].

فالحمد لله الذي يصبر على معاصينا له بالرغم من قدرته علينا، ويصبر علينا ما دمنا في هذه الدنيا، ولكن استمرار رزق الله للعبد لا يدل على أن الله لم يغضب على العبد، فكما جاء في الحديث عن النبي (صلى الله عليه وسلم) "لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ"[2]. فماذا أنا فاعلٌ؟ ءأعصي ربي لأنه أعطاني القدرة على ذلك، أم أتقي الله وأستحيي منه؟! وكفى بمن له قلب فيه بريق من الحياة أن يشعر بغضب كل شيء حوله عليه عندما يكون عاصيًا.

وقد قال أحد الصالحين: إني لأرى أثر معصيتي في خُلُق دابتي وزوجتي. وهذا لأن المعصية تُذهب البركة وتجلب عقاب الله، وربما –بالنسبة إلى الدابة– أنها لا تريد أن تطيعه وهو عاصٍ لربها. ولعل هذا عاملٌ آخرٌ لمن يشعر بضيق الدنيا عليه بما رحبت، وضيق نفسه أيضًا بعد معصية الله؛ أنه يشعر باطنًا ببغض ما حوله تجاهه مما خلقه الله، وهذا إضافة إلى إلحاح ضميره عليه وصراخه.

ومن علامات بُغض الله للعبد هي أن تظهر ظلمة على وجهه، وظلمة الوجه درجات، منها ما يراها فقط المؤمن، ومنها ما يراها كل الناس. وظلمة الوجه لها أسباب متعددة، منها هجر القرآن كما دل الحديث عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ الَّذِي لَيْسَ فِي جَوْفِهِ شَيْءٌ مِنْ الْقُرْآنِ كَالْبَيْتِ الْخَرِبِ"[3].

فيا أخي، اسأل نفسك، هل حدث أن قابلت شخصًا أحسست أنه مُظلم أو أنك لا ترتاح له بالرغم من عدم صدور منه فعل يستدعي ذلك، وعدم وجود سبب منطقي لمشاعرك؟ ألم تقابل شخصًا تنفر منه مع أنك لا تعرفه؟ ولا أقول إن كل من ينفر منه المرء حين يقابله أنه مُفسد، ولكن يندرج في تلك المجموعة المُفسدون الذين وضع الله لهم البغضاء في الأرض بين الناس، وربما هاجرون للقرآن

[1] الجواب الكافي لابن القيم 54.

[2] سنن الترمذي 2242.

[3] سنن الترمذي 2837.

لأنهم كالبيت الخرب. وتتضمن تلك المجموعة من لا تألفه نفسك مجرد لأن معدنه مُختلف، أي شخصية مختلفة عنك وقد لا يكون مُفسدًا، والرسول (صلى الله عليه وسلم) أكد لنا ذلك في قوله "الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ"[1] (يتضمن التعارف والتناكر على أساس الصلاح والفساد، ويشمل فرق الطباع أيضًا).

ومعلوم أن النفس تصيب وتخطئ في التقييم، ولكن الطريقة التي يُمَيَّز بها المُفسد الحقيقي من الذي يختلف عن معدنك فقط هو أن تترقب. إذا كان شخصًا ينفر منه كثير من الناس من المقابلة الأولى، فأغلب الظن أن ذلك حاله لأن الله ألقى بغض الناس له في قلوبهم.

فالذي يكون مفسدًا، والذي كالبيت الخرب، يدخلان في جملة من لا يرتاح عامة الناس لهم. وكذلك المسلم المُكثر من المعاصي، وتزداد احتمالية حدوث ذلك معه إن كان مهملًا في الاستغفار غير مبالٍ، لأنه يجمع السيئات بإهمال واجباته بالإضافة إلى أنه لا يُقبل على ما يُزيل من سيئاته، مثل الاستغفار والتوبة، فتتراكم. آنذاك يكون قد وَرَّط نفسه في مستنقع لا قعر له ولا يزال ينحدر فيه، ويكون كحامل إربة فوق رأسه يظل يملؤها وتوشك أن تنفجر عليه.

وهناك نوع من الأفراد من تكون لهم ظلمة في الوجه دون شك، يُلاحظها جميع الناس، وهو الذي يؤذي الناس حتى يفرض سيطرته وهيبته. مثل هذا قد بلغ من أذية الناس إلى حد أنهم يتفادونه ليجتنبوا أذاه، وهو عند الله من أشرّ الخلائق كما نبأنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ شَرِّهِ"[2]. بل وربما يُكرمونه حتى يبلغوا إرضاءه، ولا يفعلون هذا إلا لتجنب اضطهاده فيؤذيهم، كما قال (صلى الله عليه وسلم) "بَلَى وَلَكِنْ إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ (أَوْ شَرِّ النَّاسِ) الَّذِينَ إِنَّمَا يُكْرَمُونَ اتِّقَاءَ شَرِّهِمْ"[3]. فيتعجب المرء، كم بلغ أذية وظلم مثل هذا الشخص للناس حتى تتحقق عنه السمعة أنه يجب الاحتراس من بطشه، فتسبقه تلك السمعة بين الناس من قبل أن يتعرفوا عليه، بل ربما –والعياذ بالله- يبلغ أنه يسعد بأن يُعرف عنه أنه جبار كي يخشاه الناس.

وتكون للشخص الذي يُبغضه الله "ظلمة" في وجهه، تكون سببًا في عدم راحة الناس له، ولظلمة الوجه أسباب عديدة كما أن لنور الوجه أسبابًا عديدة. أما عامة أسباب الوجه المظلم مرتبطة بالمعاصي والنفاق، كما في الحديث الشريف المروي عن حُذَيفَةَ بن اليمان (رضي الله عنه) قال: كُنَّا عِنْدَ عُمَرَ فَقَالَ: أَيُّكُمْ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَذْكُرُ الْفِتَنَ؟ فَقَالَ قَوْمٌ: نَحْنُ سَمِعْنَاهُ، فَقَالَ: لَعَلَّكُمْ تَعْنُونَ فِتْنَةَ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَجَارِهِ، قَالُوا: أَجَلْ، قَالَ: تِلْكَ تُكَفِّرُهَا الصَّلاةُ وَالصِّيَامُ وَالصَّدَقَةُ، وَلَكِنْ

[1] صحيح البخاري، باب الأرواح جنود مجندة.
[2] صحيح البخاري 5572، جزء من الحديث.
[3] مسند أحمد 23654، جزء من الحديث.

أَيُّكُمْ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَذْكُرُ الْفِتَنَ الَّتِي تَمُوجُ مَوْجَ الْبَحْرِ؟ قَالَ حُذَيْفَةُ: فَأَسْكَتَ الْقَوْمُ فَقُلْتُ: أَنَا، قَالَ: أَنْتَ لِلَّهِ أَبُوكَ، قَالَ حُذَيْفَةُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ "تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ: عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا – فَلا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ، وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا، لا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ"؛ قَالَ أَبُو خَالِدٍ: فَقُلْتُ لِسَعْدٍ: يَا أَبَا مَالِكٍ مَا أَسْوَدُ مُرْبَادًّا؟ قَالَ: شِدَّةُ الْبَيَاضِ فِي سَوَادٍ، قَالَ قُلْتُ: فَمَا الْكُوزُ مُجَخِّيًا، قَالَ مَنْكُوسًا[1] (مَنْكُوسًا أي الكوز المقلوب، فيقع كل ما في داخله من ماء ولا يدخل فيه الماء بعد ذلك، كناية على أن الماء هو الخير). فالحديث يُبيّن أن الفتن تجعل القلب يَسوّد، ولا شك أن في هذه الحالة يظهر سواد القلب كظلمة في الوجه. فيا مقبل على المعاصي لا تجلب لنفسك ظلمة الوجه وبغض الناس.

إذا تفشى الفساد في قوم، عمَّهم الله بعذاب من عنده. تروي لنا أم المؤمنين السيدة زينب بنت جحش (رضي الله عنها) أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليها فَزِعًا يقول "لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدْ اقْتَرَبَ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ"، وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا، فقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟! قَالَ "نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ"[2]. وهذا دليل على شدة غضب الله على مثل تلك الأقوام، لدرجة أن الله يُهلكهم جميعًا، ثم يُحاسبهم الله بحسب أعمالهم لأنه ليس بظالم، فالصالح يدخل الجنة والمفسد يدخل النار.

ومحاسبتهم في الآخرة على نياتهم، بالرغم من إهلاكهم جميعًا في الدنيا بعذابٍ واحدٍ، يدل عليه حديث عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "الْعَجَبُ إِنَّ نَاسًا مِنْ أُمَّتِي يَؤُمُّونَ بِالْبَيْتِ بِرَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَدْ لَجَأَ بِالْبَيْتِ، حَتَّى إِذَا كَانُوا بِالْبَيْدَاءِ خُسِفَ بِهِمْ"، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ الطَّرِيقَ قَدْ يَجْمَعُ النَّاسَ، قَالَ "نَعَمْ، فِيهِمْ الْمُسْتَبْصِرُ وَالْمَجْبُورُ وَابْنُ السَّبِيلِ، يَهْلِكُونَ مَهْلَكًا وَاحِدًا وَيَصْدُرُونَ مَصَادِرَ شَتَّى، يَبْعَثُهُمْ اللَّهُ عَلَى نِيَّاتِهِمْ"[3] (يَؤُمُّونَ أي يقصدون ويتوجهون، وقد يكون المعنى أنه جيشٌ يريد انتهاك الكعبة؛ الخسف هو الذهاب والغياب والغوص في باطن الأرض).

ولكن يجب التوضيح، أن هذا فيما يخص العقاب المُهلك للقوم من الله، فيكون إذا لم ينهَ الناهون عن المنكر. أما في حالة أن الفساد تفشى في المجتمع ولكن لا يزال الصالحون ينهون عن المنكر، فإن أحد الأمرين يحدث، إما أن يعم البلاء غير المُهلك على الجميع –مثل الغلاء، وتسلط

---

[1] صحيح مسلم 207.

[2] صحيح البخاري 3097.

[3] صحيح مسلم 5134.

الحاكم الظالم على الناس، وتفشي الأمراض، وانتشار الطفيليات-، وإما أن يشاء الله أن يبعث عليهم عقابًا مُهلكًا يُنجّي الله فيه الناهين عن المنكر، ثم يُهلك الباقين، وهذا ما حدث في أصحاب السبت. والخلاصة هي أن العقاب يقع لا محالة، ولكنّ هناك تفاوتًا في النوع والدرجة.

عدم اكتراث الكون لهلاك العاصي، مع نسيانه، وكأنه لم يكن له وجود في الأصل، بل وربما يفرح الكون لهلاك ذاك الشخص

قال تعالى {فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاء وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ} [الدخان 29]. إن أسوأ مصير هو أن يفنى المرء تمامًا، بأن تذهب حياته هباءً مثل من قال الله عنهم {الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ الْخَاسِرِينَ} [الأعراف 92]. فقد بلغوا قمة المجد، ثم عندما أُهلكوا كان وضعهم كأنهم ما كانوا، بل ولهم الخلود في النار. وبالطبع لا يرغب في هذا أحدٌ، سواء كان مؤمنًا أم كافرًا، فالكافر لا يريد أن تكون حياته هباءً بأن لا يُحدث تغيرًا في الأرض أو بأن ينساه الناس، والمؤمن لا يريد أن تذهب حياته هباءً دون نصرة الإسلام أو بأن ينساه الله. ومن نسيه الله -أي تخلى عنه- فقد هلك، لأن ذلك يلزم نسيان كل شيء له، حتى الناس الذين كانوا يعشقونه في الدنيا سيكرهونه في الآخرة، مهما بلغت تلك المحبة أو التقدير لذلك الشخص العاصي.

وأبرز مثالٍ لعدم حزن المرء على من كُتب عليه دخول النار يوم القيامة، سواء كان من أصدقائه أو حتى أقاربه، ومهما بلغت الروابط بينهما والمودة، هو ما جاء في الحديث عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَى وَجْهِ آزَرَ قَتَرَةٌ وَغَبَرَةٌ، فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لا تَعْصِنِي؟ فَيَقُولُ أَبُوهُ: فَالْيَوْمَ لا أَعْصِيكَ، فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: يَا رَبِّ إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لا تُخْزِيَنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي الأَبْعَدِ؟ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنِّي حَرَّمْتُ الْجَنَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ. ثُمَّ يُقَالُ: يَا إِبْرَاهِيمُ مَا تَحْتَ رِجْلَيْكَ؟ فَيَنْظُرُ فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُلْتَطِخٍ، فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ" (قَتَرَةٌ أي ذِلّة؛ وَغَبَرَةٌ قيل أنه سواد غُبار التراب والدُخان؛ الأَبْعَدِ أي البعيد، ولعله يقصد أباه الذي هو أبعد ما يكون من الله ورحمته بكفره؛ بِذِيخٍ هو الضبع الذكر؛ مُلْتَطِخٍ أي فِي رَجِيع أَوْ دَم أَوْ طِين، أي يكون مُنَفِّرًا)[1].

وقد جاء في فتح الباري بشرح صحيح البخاري: فِي رِوَايَة إِبْرَاهِيم بْن طَهْمَانَ "فَيُؤْخَذ مِنْهُ فَيَقُول: يَا إِبْرَاهِيم أَيْنَ أَبُوك؟ قَالَ: أَنْتَ أَخَذْته مِنِّي، قَالَ: اُنْظُرْ أَسْفَلَ، فَيَنْظُر فَإِذَا ذِيخ يَتَمَرَّغُ فِي نَتْنِهِ". وَفِي رِوَايَة أَيُّوب "فَيَمْسَخ اللَّه أَبَاهُ ضَبُعًا فَيَأْخُذ بِأَنْفِهِ فَيَقُول: يَا عَبْدِي أَبُوك هُوَ؟ فَيَقُول: لا وَعِزَّتِك"، وَفِي حَدِيث أَبِي سَعِيد "فَيُحَوَّل فِي صُورَة قَبِيحَة وَرِيح مُنْتِنَة فِي صُورَة ضِبْعَان" زَادَ اِبْن الْمُنْذِر مِنْ هَذَا الْوَجْه "فَإِذَا رَآهُ كَذَا تَبَرَّأَ مِنْهُ، قَالَ: لَسْت أَبِي" (انتهى). وفي كل الروايات تشير إلى أن سيدنا إبراهيم

---

[1] صحيح البخاري 3101.

(عليه السلام) لا يحزن على أبيه في نهاية المطاف، مع أنه {لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ} [هود 75، جزء من الآية].

وفي آية سورة الدخان المذكورة أحد الأمثلة، إذ مع هلاك قوم فرعون بالغرق لم تكترث الأرض ولا السماء لهم، فلم تبكيا عليهم عندما أُهلكوا، هذا وبالرغم من عددهم الهائل، فقد مات أفواج من الناس ولكن لم تشفق السماء ولا الأرض عليهم من شدة هوانهم! فيتساءل المرء، لأي درجة كانوا هينين عند الله؟ ومما يبين لنا جزئيًا هو أنهم هانوا على الله إلى حد أن مخلوقاته لم تكترث لهلاكهم بالرغم من أنهم كانوا عدة أُمَمٍ، وذلك لأن الله لم ينظر إليهم.

بل وقد حثَّ الله المؤمنين على أن يحمدوه على إهلاكهم لما في ذلك من تمكين كلمة الله في الأرض، ودفع الضرر عن المؤمنين، وتخليص مخلوقات الله من أذاهم {فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الأنعام 45]، فهم بمنزلة الداهية البغيضة التي أُزيحت! بل وأكثر من ذلك، إذ قد تفرح الأرض والسماء على هلاكهم، لأنهم بالنسبة إلى الأرض: خبَثٌ أُزيل من على ظهرها، وللسماء: خبثٌ مُحي من تحت غطائها. وهذا يُستدل عليه من جزء لحديث لسيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) "وَإِذَا دُفِنَ الْعَبْدُ الْفَاجِرُ أَوْ الْكَافِرُ قَالَ لَهُ الْقَبْرُ: لا مَرْحَبًا وَلا أَهْلا، أَمَا إِنْ كُنْتَ لأَبْغَضَ مَنْ يَمْشِي عَلَى ظَهْرِي إِلَيَّ، فَإِذْ وُلِّيتُكَ الْيَوْمَ وَصِرْتَ إِلَيَّ فَسَتَرَى صَنِيعِيَ بِكَ؛ فَيَلْتَئِمُ عَلَيْهِ حَتَّى يَلْتَقِيَ عَلَيْهِ وَتَخْتَلِفَ أَضْلاعُهُ"[1]، فيتبين كم كانت الأرض كارهة له وتريد الانتقام منه لله عندما تمكنت منه.

وأما بالمقارنة، هناك أفراد من عباد الله لهم قيمة عظيمة عند الله، وإذا أُصيب أحدهم لا تبكي فقط السماوات والأرض، بل وربما أكثر من هذا، كما جاء عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) بعد موت سيدنا سعد بن معاذ (رضي الله عنه) "اهْتَزَّ عَرْشُ الرَّحْمَنِ لِمَوْتِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ"[2]. هذا فردٌ مات، فاهتز لموته عرش الرحمن، في حين أُممٍ متعاقبة ممن عصوا الله هلكوا ولم يُلقَ لهم بال، ولا حتى من الأرض التي كانوا يمشون عليها. فسبحان الله، ما هذا الفرق في القدر؟! إنما هو دليل على فرق الأعمال، ومن ثمَّ فرق قيمة الإنسان عند الله وأهميتهم في هذا الكون، جعلنا الله ممن يكونون لهم قيمة عنده يوم القيامة.

وفي انقلاب عجيب للأوضاع، قد بلغ من بعض الصحابة قدرٌ إلى أن الجنة هي التي تشتاق إليهم، في حين مثلي هو الذي يشتاق إلى الجنة ولا يدري أترضى به أم تلفظه، فقد قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ الْجَنَّةَ لَتَشْتَاقُ إِلَى ثَلاثَةٍ: عَلِيٍّ وَعَمَّارٍ وَسَلْمَانَ"[3]! فأنت يا أخي الذي تُحدد -إلى حدٍ كبير- مكانتك عند الله بعملك. أنت الذي تُحدد منزلتك وقيمتك عند الله، ويكون ذلك على

---

[1] سنن الترمذي 2384.

[2] صحيح البخاري 3519.

[3] سنن الترمذي 3732.

أساس نياتك وأعمالك؛ أعمالك الصالحة ترفعك وأعمالك السيئة تنحدر بك، فلا تلومن إلا نفسك إن رأيت أن الله ليس بقريبٍ منك. وقوله تعالى "وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ" أي لم يكن ليؤجل عذابهم، وهذا فيه زيادة في التعبير عن هوانهم عند الله، ويكأنه تعالى عاملهم دون أدنى مبالاة لهم وما يتعلق بإهلاكهم من توابع، مثل خراب الأرض التي كانوا عليها، وروع الأمم المجاورة لهم من أن يصيبهم مثل ما أصابهم.

وعلى هذا النمط، نرى قوة التعبير في عدم مبالاة الله للذين جحدوا بآياته بالرغم من عددهم الهائل، فلم تأخذه بهم رحمة ولا رأفة عندما آن وقت الهلاك. وذلك متمثل في البساطة التي سَرَدَهُمُ الله جُملةً مع أنهم أصابهم أمرٌ عظيم، وهو عذابه، وأن عددهم كان كبيرًا إذ كانوا عدة أُممٍ. فقد ذُكر في سورةِ القمر بتتابع كل قوم وكيف أهلِكوا، فأحصى الله كثير منهم في سورة واحدة قصيرة. بل وفي سورةِ العنكبوت أحصى الله عددًا من الأقوام المُهلَكة في آية واحدة {فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [العنكبوت 40]، فقد تكلم الله عن إهلاك أفواج من الأُمم بطريقة تدل على أنهم لا يَزِنون عنده شيئًا، وذلك بسبب قبح أعمالهم.

وقد جاءت عدة أحاديث تجعل المرء يرتعد فؤاده ويقشعِرُّ جلده مما يسمعه عما ينتظرهم من وعيد وعما يستقبلونه من مصيرهم. ويتبين لنا فيهن كيف أن كلَّ كيانٍ يضطر إلى التعامل مع هذا الشخص الشارد يكون كارهًا لذلك، حتى ويكأنهم يلقفونه لبعضهم يريدون نبذه والتخلص منه سريعًا، فمنها قوله (صلى الله عليه وسلم) "أَسْرِعُوا بِالْجِنَازَةِ، فَإِنْ تَكُ صَالِحَةً فَخَيْرٌ تُقَدِّمُونَهَا، وَإِنْ يَكُ سِوَى ذَلِكَ فَشَرٌّ تَضَعُونَهُ عَنْ رِقَابِكُمْ"[1]. وفيما يرويه لنا سيدنا أنس بن مالك (رضي الله عنه) قال: مَرُّوا بِجَنَازَةٍ فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا خَيْرًا، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "وَجَبَتْ"، ثُمَّ مَرُّوا بِأُخْرَى فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا شَرًّا، فَقَالَ "وَجَبَتْ"، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا وَجَبَتْ؟ قَالَ "هَذَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا فَوَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، وَهَذَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا فَوَجَبَتْ لَهُ النَّارُ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الأَرْضِ"[2].

وقال سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) "إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا قَالَ: يَا جِبْرِيلُ إِنِّي أُحِبُّ فُلانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي السَّمَاوَاتِ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحِبُّ فُلانًا فَأَحِبُّوهُ؛ فَيُلْقَى حُبُّهُ عَلَى أَهْلِ الأَرْضِ فَيُحَبُّ. وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا قَالَ: يَا جِبْرِيلُ إِنِّي أُبْغِضُ فُلانًا فَأَبْغِضُوهُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي السَّمَاوَاتِ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُبْغِضُ فُلانًا فَأَبْغِضُوهُ؛ فَيُوضَعُ لَهُ الْبُغْضُ لأَهْلِ الأَرْضِ فَيُبْغَضُ"[3]. وجاء أيضًا أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) مر عليه جنازة فقال "مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاحٌ مِنْهُ"، قالت الصحابة (رضي الله

[1] صحيح البخاري 1231.

[2] صحيح البخاري 1278.

[3] مسند أحمد 10206.

عنهم): يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْمُسْتَرِيحُ وَالْمُسْتَرَاحُ مِنْهُ؟ قَالَ "الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا وَأَذَاهَا إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ، وَالْعَبْدُ الْفَاجِرُ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ وَالْبِلَادُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ"[1].

وعنه (صلى الله عليه وسلم) أيضًا "الْمَيِّتُ تَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ، فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ صَالِحًا قَالُوا: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، اخْرُجِي حَمِيدَةً وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ؛ فَلا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ، ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ فَيُفْتَحُ لَهَا فَيُقَالُ: مَنْ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: فُلانٌ، فَيُقَالُ: مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الطَّيِّبَةِ، كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، ادْخُلِي حَمِيدَةً وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ؛ فَلا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى يُنْتَهَى بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي فِيهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ. وَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ السُّوءُ قَالَ: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ، كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ، اخْرُجِي ذَمِيمَةً وَأَبْشِرِي بِحَمِيمٍ وَغَسَّاقٍ وَآخَرَ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ؛ فَلا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ، ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ فَلا يُفْتَحُ لَهَا فَيُقَالُ: مَنْ هَذَا؟ فَيُقَالُ: فُلانٌ، فَيُقَالُ: لا مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الْخَبِيثَةِ، كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ، ارْجِعِي ذَمِيمَةً فَإِنَّهَا لا تُفْتَحُ لَكِ أَبْوَابُ السَّمَاءِ؛ فَيُرْسَلُ بِهَا مِنْ السَّمَاءِ ثُمَّ تَصِيرُ إِلَى الْقَبْرِ"[2].

ويروي لنا سيدنا البراء بن عازب (رضي الله عنه): خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي جِنَازَةِ رَجُلٍ مِنْ الْأَنْصَارِ فَانْتَهَيْنَا إِلَى الْقَبْرِ وَلَمَّا يُلْحَدْ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ وَكَأَنَّ عَلَى رُءُوسِنَا الطَّيْرَ، وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُتُ فِي الأَرْضِ. فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ "اسْتَعِيذُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ" مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ "إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنْ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنْ الآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنْ السَّمَاءِ بِيضُ الْوُجُوهِ كَأَنَّ وُجُوهَهُمْ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ عَلَيْهِ السَّلام حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ اللهِ وَرِضْوَانٍ، فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا فَلا يَمُرُّونَ (يَعْنِي بِهَا) عَلَى مَلإٍ مِنْ الْمَلائِكَةِ إِلا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلانُ بْنُ فُلانٍ –بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا–، حَتَّى يَنْتَهُوا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ فَيُفْتَحُ لَهُمْ، فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ وَأَعِيدُوهُ إِلَى الأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى. فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ، فَيَقُولانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِيَ الإِسْلامُ، فَيَقُولانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَقُولانِ لَهُ: وَمَا عِلْمُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ

[1] صحيح البخاري 6031.

[2] سنن ابن ماجه 4252.

اللهِ فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ؛ فَيُنَادِي مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ أَنْ صَدَقَ عَبْدِي فَأَفْرِشُوهُ مِنْ الْجَنَّةِ وَأَلْبِسُوهُ مِنْ الْجَنَّةِ وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ حَسَنُ الثِّيَابِ طَيِّبُ الرِّيحِ فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ، فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالْخَيْرِ؟ فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، فَيَقُولُ: رَبِّ أَقِمْ السَّاعَةَ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي. وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنْ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنْ الآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مِنْ السَّمَاءِ مَلائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ مَعَهُمْ الْمُسُوحُ فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ، اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنْ اللهِ وَغَضَبٍ؛ فَتُفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ مِنْ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلإٍ مِنْ الْمَلائِكَةِ إِلا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلانُ بْنُ فُلانٍ –بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا–، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ فَلا يُفْتَحُ لَهُ." ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ {لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ}، ثم قال "فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ فِي الأَرْضِ السُّفْلَى؛ فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا"، ثُمَّ قَرَأَ {وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنْ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ}، ثم قال "فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لا أَدْرِي، فَيَقُولانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لا أَدْرِي، فَيَقُولانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لا أَدْرِي؛ فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنْ السَّمَاءِ أَنْ كَذَبَ فَافْرِشُوا لَهُ مِنْ النَّارِ وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلاعُهُ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ قَبِيحُ الثِّيَابِ مُنْتِنُ الرِّيحِ فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوءُكَ هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ، فَيَقُولُ: رَبِّ لا تُقِمْ السَّاعَةَ"[1] (وَحَنُوطٌ هو عطر حسن الرائحة؛ الْمُسُوحِ هو الكَفَن الذي معهم؛ السَّفُّودُ هي حديدة ذات شُعب تخرج منها).

فهذه كلها من عواقب من أسرف في عمله وعصى ربه وآذى الناس وأفسد في الأرض، فيفضحه الله ويُعذِّبه، ويلفظه مَن حوله كما قرأنا. فيا أخي، لا تكن ممن يفارق الحياة هباءً دون أن تبكي عليك السماء والأرض، بل وتفرح برحيلك، ولا تكن ممن تمر جنازتك بالناس فيثنون عليك شرًّا ويفألون برحيلك، ولا تكن شرًّا يضعه الناس عن رقابهم ليتخلصوا منك، ولا تكن ممن شهد الناس عليه بالظُلم. ولا تكن ممن أبغضهم الله والملائكة ومَن في الأرض، ولا تكن ممن يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب بموته، ولا تكن ممن يستقبلونه الملائكة بتَجَهُّمٍ والشؤم، وتُسَدّ عليك أبواب السماء عند قبض روحك، واشمئزاز الملائكة من استقبالك.

---

[1] مسند أحمد 17803.

يا أخي لا تكن ممن استحقوا أن يُقابَلوا بملائكة سود الوجوه، ولا من الذين يتعامل معهم الملائكة بالغلظة والقسوة لاستخراج روحهم من أجسادهم، ولا من الذين تُسأل فلا تجيب إلا جهلًا، وتوصف بأقبح الأسماء وبالكذاب. ويا أخي لا تجعل قرينك في القبر الرجل القبيح الوجه المنتن الريح وتمكث معه. يا أخي، لا تكن مبسطة لدى الناس يوم القيامة، فيأخذوا منك حسناتك التي تعبت فيها أنت ثم هم يستمتعون بثوابها، ويطرحوا عليك سيئاتهم التي استمتعوا هم بها في الدنيا ولكن أنت تحمل عاقبتها، فلا تكونن ممن يُظَل يُؤخذ من أجره ليُقضى منه أذيته للناس! يا أخي، ولا ولا ولا...

المعاصي أعمالٌ تُناقض قول العبد إنه يُحب الله

قال تعالى {وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ} [النمل 73]. إني أريد أن أكون من هذه القلة، القلة التي تشكر الله على نِعمه، ولكن هذا يستلزم ترك معصية الله كي يتحقق. إن عصيان الله، بلسان الحال، يعني أن العبد ليس شاكرًا لربه مُمتَنًا له ساعيًا في إرضائه، وبالإضافة فإنه يُنسي العبد شكر الله باللسان أيضًا. فمن وجد نفسه شاكرًا لله فليحمد الله على هذا، لأنها نعمة في حد ذاتها، ولولا توفيق الله ما كنا لنحمد الله.

فوق هذا فإن الإسلام نفسه نعمة، بل هو أعظم نعمة مَنَّ الله بها علينا، وأعظم من نعمة الصحة حتى. فكم من مريض البدن، سليم القلب بالإسلام، يخلد في الجنة مُعافًى ومُنَعَّمًا؟ وكم من قوي البدن، مريض في الإيمان، لا يذوق سلام النفس ومصيره النار؟ ومن أنواع الشكر لله هو طاعته وترك معصيته... فالعاصي يناقض بأفعاله شكره لله، فكيف أكون شاكرًا لربي وعاصيًا له معًا؟! أين محبة الله إن كنت أعصيه ولا أرضيه بطاعتي له، إن كنت أزعم أني مُقدِّر لنِعَمِه عليَّ؟ كيف للمحب السعي في إغضاب المحبوب؟ هذا خاصة وأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) نبأنا قائلًا "إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ الْغَنِيَّ الْخَفِيَّ"[1] (الْغَنِيَّ أي غنيّ النفس؛ الْخَفِيَّ أي الخامل المنقطع إلى العبادة المنشغل بفلاح نفسه، وربما معناه أيضًا الذي لا يُحب أن يُلاحظه الناس والله أعلم).

قال الشافعي رحمه الله:

تعصي الإله وأنت تُظهِر حُبّه — هذا وربّي في القياس بديع

لو كان حُبّك صادقًا لأطعته — إنّ المُحِبّ لمن يُحبّ مُطيع[2]

---

[1] صحيح مسلم 5266.

[2] الآداب الشرعية لابن مفلح 153/1.

وهناك مقياس صريح قد وضعه الله لمن يريد أن يعلم إن كان يُحب الله حقًّا أم مُجرد يزعم، أي إن كان حبه لله صادقًا أم توهُّمًا، وهذا في قول الله {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [آل عمران 31]. فكم منا يتَّبع ويُطيع الرسول (صلى الله عليه وسلم)، ويُحب سُنَّته؟ بل والسؤال الأحرج لمن يعصي الله ثم يقول إنه يتَّبع الرسول (صلى الله عيه وسلم) حق الاتّباع ويُطبّق سُنَّته كما ينبغي، فهل كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) عاصيًا لله؟

المعاصي تضع الحواجز بين العبد وربه، وتحيل بينه وبين الأعمال الصالحة

المعاصي تُضعف الصلة التي بين العبد وربه. لا شك أن معصية الله منطقيًّا تجلب بُغض الله للعبد، لأن الله يغار على انتهاك حرماته، ويؤدي ذلك بالطبع إلى أن الله يُعاقب عبده، وأدنى درجات العقاب أن تتأثر علاقة الله بالعبد. والعكس أيضًا صحيح، فالعاصي يشعر بالخجل أن يُظهر وجهه لله لما يقترفه من معصية الله، ويبتعد عن الأعمال التي تُقَرِّبه إليه، فيصعب عليه التودد إلى ربه بالأعمال، فيشعر أن الله غريب عليه وأنه غريب على الله، والدليل على هذا هو أن كلما كان العبد عاصيًا ازداد خوفه من الموت، يريد تفادي لقاء الله إلى أن يُصلِح حاله.

هذا كله يؤثر على علاقة العبد بربه، فإذا استغاث العبد بربه قد يؤخر الله عنه الاستجابة، أو حتى لا يستجيب مثل ما يحدث مع من يكتسب ويأكل من الحرام، أو الذين لا ينهون عن المنكر. هذا بالطبع مع التنبيه أن الله قد يستجيب لأي أحد على أي حال، لأنه العليم بالأحوال، الحكيم في القضاء، مثلما يستجيب للمظلوم وإن كان كافرًا، فهو يفعل ما يشاء.

ومن ظواهر ذلك التأثر في العلاقة، مما قد لا يعلمه كثير من الناس، هو الالتباس على العبد بعد الاستخارة. الاستخارة هي أخذ مشورة الله في أمر ما، فإن كان العبد صالحًا وقريبًا من الله، دائم التودد والإنابة إليه فإن الله يُحبه، ومن علامات حُب الله أن الله يُكَرِّمه بكرامات رفيعة مثل الرؤيا الواضحة بعد الاستخارة، وهذه الكرامة ليست للجميع. ومعصية الله يُسبب تشويشًا في الاتصال بين العبد وربه، فلا يستقبل رسالة من ربه بوضوح.

والدليل على ما أقوله هو أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان يرى الرؤيا بوضوح ساطعة وتقع بعد ذلك، وذلك قبل أن ينزل عليه الوحي حتى، ولكنه كان معتزلًا للشرك ومتعبدًا للخالق الأحد، مع أنه لم يكن يعلمه بعد. وذلك مذكور في جزء مما روته لنا أم المؤمنين السيدة عائشة (رضي الله عنها) عن بداية الوحي قائلة: أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لا يَرَى رُؤْيَا إلا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، فَكَانَ يَأْتِي حِرَاءَ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ (وَهُوَ

التَّعَبُّدُ) اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَتُزَوِّدُهُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى فَجِئَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ[1].

أما من يُكثر من المعاصي، فإن الصلة التي بينه وبين ربه تكون هامشية، فلا يُريه الله إشارات وظواهر استخارته بوضوح، فقد تتأخر تارة، أو في كثير من الأحيان يلتبس عليه تارة، أي أن يُقرَن بين الأحداث المُيسِّرة والأحداث المُعسِّرة، فيلتبس على العبد أي الطريقين يُشار إليهما، فيحتار العبد، وقد يُعاني بعض الشيء حتى تتضح له المُحصِّلة النهائية. وهذا الوضع شبيهٌ برجلين رأيا رجلًا ثالثًا على مسافة بعيدة، أما الرجل الأول فيُميز الرجل الثالث أنه صاحبهما، ولكن الرجل الثاني يحول بينه وبين الرجل الثالث ضبابًا فلا يدري أهو صاحبهما أم لا، فيتردد في التصرف ولا يدري أيُنادي الرجل الثالث أم لا، فيظل يتمعن في النظر. فالمعاصي مثل الضباب الذي يحول بين الرجل الثاني والثالث.

ومع أن الله يُبين للعبد العاصي الطريق الأصلح، أو يقوده إليه في النهاية لأن الله لا يخذل من استخاره، إلا أن العبد قد يكون قد بنى على مُضِيّه في الأمر، وهيأ بعض الترتيبات على المُضي في الأمر، ثم يتبين له أنه شرٌ له، فيضطر إلى هدم أو سحب أو الرجوع فيما بناه أو رتَّبه. وتلك الرجعة فيما أسَّسه قد تُحمِّله المشقة والحُزن، وربما حتى الخسارة المادية أو المعنوية، كان من الممكن أن يتفاداهما إذا كان قريبًا من الله وتبينت له نتيجة الاستخارة مُبكرًا، ولكن بسبب ذنوبه فإن الله يبتلي العبد جزاءً له، ولعله ينيب.

وذلك مَثَلٌ واحدٌ فيما يتأثر بتأثر العلاقة بين العبد وربه، وقس على ذلك باقي الأمور التي تعتمد على قوة علاقة العبد بربه، مثل استجابة الدعاء –فهناك عباد لله لا تُرد دعوتهم–، والتوكل على الله والرزق من الله. والسؤال المُحرج هو، ألا يستحيي العبد أن يطلب النصيحة من الله، في الاستخارة مثلًا، وهو لا يفعل ما يُوجِّهه الله عليه (بأن يعصيه)؟! بأي وجه يطلب العبد من الله في حين العبد لا يُوَفِّي ما أرشده الله إليه، فلنترك المعاصي ولا نترك الاستخارة أبدًا.

المعاصي تُبعد العبد عن قراءة القرآن وتدبره والعمل به. قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) "اقْرَءُوا الْقُرْآنَ، فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لأَصْحَابِهِ، اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ: الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ، فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ

---

[1] صحيح البخاري 6467.

أَصْحَابِهِمَا. اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ". قَالَ مُعَاوِيَةُ بَلَغَنِي أَنَّ الْبَطَلَةَ هم السَّحَرَةُ[1] (تُحَاجَّانِ أي يُدافعان عن قارئهما بالمنطق والبرهان).

هذه نقطة متعلقة بموضوع هذا الكتاب، وهي أن العاصي يجد نفسه يتهرب من القرآن ويستثقل قراءته بسبب تمكن الشيطان منه، وربما أيضًا لحرمان الله ذاك العاصي من الخير في صيغة إعراض العاصي عن القرآن. أما العبد الطائع، فإنه يجد السكينة والشفاء والسعادة في القرآن، فيحبه ويتعلق به. وذلك لأن عِلمِ الله نور، ونور الله لا يسكن القلب المظلم –قلب العاصي–، وهذا كلام الإمام الشافعي (رحمه الله) حين ارتكب معصيةً فلاحظ أن حفظه للعلم قد تأثر، فسأل مُعلِّمه عن ذلك، فقال الإمام:

شَكَوْتُ إِلَى وَكِيعٍ سُوءَ حِفْظِي

فَأَرْشَدَنِي إِلَى تَرْكِ المعَاصي

وقال: اعلم بأَنَّ العِلْمَ نُورٌ

ونورُ الله لا يؤتى لعاصي[2].

وكيع كان اسم مُعلم الإمام الشافعي، رحمهما الله. فمن أراد أن يقيس مدى صلاحه فلينظر كم يقرأ وكم يعمل من القرآن. ومن أراد أن يُطّهر نفسه من المعاصي ويُخّلص نفسه من الشيطان فليُكثر من الدواء، وهو القرآن، ولو بإرغام النفس، فإن العبد يُدرك حلاوته بعد مخالطته. وكما جاء في الحديث عن النبي (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ"[3]، لأن من قرأه وعمل به يرفعه الله في الدنيا والآخرة، ومن هجره ولم يعمل به ضاع في الدنيا والآخرة.

وقد قال تعالى {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ} [يونس 57]، والمقصود بالذي جاءنا هو القرآن، وحقًا، فإن القرآن شفاء، لأن الضلال وارتكاب المعاصي داء. والمُلاحظ أن الذي يُكثر من الذنوب لا يقرأ القرآن بتدبر لأنه يجد إقباله على قراءة كتاب الله ثقيلًا عليه، وإن قرأه فلا يمكث معه إلا يسيرًا، يتطلع للانتهاء. فإني أسأل نفسي، كيف أقرأ القرآن وأظن أني أُطبقه في حين المعاصي تنفي تنفيذ بعض وصايا القرآن، فأي قراءة هذه؟! هذا أقرب للسرد وليس القراءة. وماذا أكتسب بقراءة كلام الله دون تطبيق؟ وإني لأجد في نفسي إعراضًا عن القرآن بعد ارتكاب المعصية، فأيهما أولى عندي حقيقة؟!

---

[1] صحيح مسلم 1337.

[2] ديوان الشافعي للدكتور مجاهد مصطفى بهجت ص72.

[3] صحيح مسلم 1353.

والذي يبتعد عن القرآن لا يُفاجأ أنه يجد نفسه يبتعد عن الله أيضًا، لأنه يُقلل من إرضاء الله والتقرب إليه، فيجد أنه هناك فجوة بينه وبين الله. وهذه الفجوة تظهر في حياته في صورة الإحساس بوَحشة غير مُحددة ولا مألوفة، والإحساس بفقدان شيء ما، حتى إنه إذا أراد أن يدعو الله قد يشعر أن الله غريبٌ عليه. وأين العجيب في هذا وقد أعرض العبد عن ربه بهجر القرآن، وعصيان الله بما يُغضبه. وهذه هي الخسارة، أن العبد يشعر أنه غريب على الله، أو أنه إذا دعا الله لا يستطيع أن يدعوه باطمئنانٍ ويقينٍ أنه سيُستجاب له، وذلك الشعور قد يجعله ييأس فيفقد الأمل في السؤال من الله أو الاستغاثة به، وهذا خطأٌ أكبر قد يقع فيه العبد.

وهناك آية صريحة وواضحة وضوح الشمس أن العكس صحيحٌ أيضًا، وهو أن من ابتعد عن القرآن يُلازمه الشيطان، مما قد يؤدي إلى زيادة الوضع سوءًا وتتكرر الدورة مجددًا. قال تعالى {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ} [الأعراف 175]. ففي الآية دلالة على أن هجر القرآن يجذب الشيطان إلى المرء فيلازمه، ولا شك أن ملازمة الشيطان للمرء كلها أضرار على أضرار وهلاك في هلاك.

وقال سيدنا معاذ بن جبل (رضي الله عنه) شاملًا كل تلك النقاط: سَيَبْلَى الْقُرْآنُ فِي صُدُورِ أَقْوَامٍ كَمَا يَبْلَى الثَّوْبُ فَيَتَهَافَتُ، يَقْرَءُونَهُ لا يَجِدُونَ لَهُ شَهْوَةً وَلا لَذَّةً، يَلْبَسُونَ جُلُودَ الضَّأْنِ عَلَى قُلُوبِ الذِّئَابِ، أَعْمَالُهُمْ طَمَعٌ لا يُخَالِطُهُ خَوْفٌ، إِنْ قَصَّرُوا قَالُوا: سَنَبْلُغُ، وَإِنْ أَسَاءُوا قَالُوا: سَيُغْفَرُ لَنَا إِنَّا لا نُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا[1] (سَيَبْلَى أي يتلاشى ويذهب).

وقد تتدهور منزلة المرء عند الله إلى مرحلة أن الله يبغضه فيُضِله ويصرفه عن الهُدى، حتى وإن أقبل ذاك العاصي على القرآن أو سمع أحدًا يتلو آيةً فهمها على غير مقصدها. فبسبب تحكم هواه فيه وضلاله برؤية الموازين مقلوبة يُفسِّر له هواه الآيات، أو الأحاديث الشريفة، بحسب مفهومه المُنحرف للأمور، وربما يستحسن الكلام الباطل للمُضلّين في تفسيرهم للآيات. فإذا مر على آية مثل {لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا} [البقرة 186] فسَّرها تفسيرًا معاكسًا تمامًا لمقصدها، فيتزين له أن عليه فعل ما يستطيعه من الأحكام ويترك ما لا يستطيعه، فيترك أمرًا مثل صلاةٍ في وقتها لأنه شَغَلَه شاغلٌ، أو أنه كان نائمًا ولا يريد الاستيقاظ، ويُقبل على معصيةً ولا يُقاومها أبدًا لأنه يرى أنه لا يستطيع التخلي عنها. فيزعم خُبثًا أنه يفعل فقط ما يستطيعه ولا يُلام على الباقي، لأن تلك هي قدرته وليس عليه كُلفة ما لا يستطيع فعله من الأحكام.

وبلغ بعض منهم مرحلة أنه لا يُصلّي، ويحتج بقول الله تعالى في القرآن {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ} [النساء 43]، فقد بتر الجملة التي في الآية {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ

[1] سنن الدارمي 3212.

وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىَ تَغْتَسِلُواْ} [النساء 43، جزء من الآية]، وتجاهل آيات أُخر صريحة على فرضية الصلاة {إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا} [النساء 103]. فمنهجهم عامةً بين تحريف التفسير بحيث أنه يتعارض مع سياق باقي الآيات، وبين بتر جزء من العلم. فأوّلوا الآيات بما يواكب هواهم، وأصبح حالهم كالذين قال عنهم الله {وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} [الأعراف 28]، فما مدى الضلال الذي وصل إليه هؤلاء؟ كله بسبب العصيان.

ونفس المنهج يُطبّقونه مع أحاديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، فيتم تجاهل وإخفاء جزء من حديثٍ لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) مثل الحديث "مَا مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ إِلا حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ". ومن ثَمَّ ينطق الشهادة ثم يُقبل على ما يستهوي من المعاصي ويَفجر كيف يشاء، لأنه يرى أنه سيبلغ الجنة وينجو من النار مُتكلًا أنه سيُغفر له، يتمنى على الله. هذا وقد تجاهل بقية الحديث، فوقع تحديدًا فيما حذَّر منه (صلى الله عليه وسلم) إذا أدرك الناس مثل هذا الحديث دون أن يستوعبوا المقصد منه، فقد قال (صلى الله عليه وسلم) في بقية كلامه عندما استشاره راوي الحديث في أن يُبَشِّر الناس به "إِذًا يَتَّكِلُوا"[1].

واستحسن هؤلاء المُفسدون سوء عملهم هذا فعمدوا في جمع عدة أدلة بعد لوي معناهم، تبريرًا لمعاصيهم وليدعموا رأيهم، مثل ما جاء في الحديث القدسي أن الله تبارك وتعالى يقول للعبد بعد أن تكررت منه المعصية والاستغفار "اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ"[2]. وزُيّن لهم أنه يحق للعبد أن تكون له معصية يُكررها، بل وربما يستحلها، بناءً على قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "مَا مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ إِلا وَلَهُ ذَنْبٌ يَعْتَادُهُ الْفَيْنَةَ بَعْدَ الْفَيْنَةِ، أَوْ ذَنْبٌ هُوَ مُقِيمٌ عَلَيْهِ لا يُفَارِقُهُ حَتَّى يُفَارِقَ، إِنَّ الْمُؤْمِنَ خُلِقَ مُفْتَنًا تَوَّابًا نَسِيًّا، إِذَا ذُكِّرَ ذَكَرَ"[3]. فهؤلاء قد بلغوا مرحلة أن عصيانهم لله أصبح أمرًا هيّنًا عليهم، وما نملك إلا أن نسأل الله ألا يجعل معاصينا توصلنا إلى مرحلة أنه يسخط علينا فيُضلنا بصرفنا عن فهم الآيات والأحاديث بمثل هذه الطريقة.

المعاصي قد تجلب نقمة الله على العبد، فيحيل الله بينه وبين العمل الصالح ولو عَمَدَ العبد إليه.

يجب أن نُدرك قاعدة أساسية، وهي أن كل ما يفعله المرء من خير فهو بتوفيق من الله، كما تدل

---

[1] صحيح البخاري 125.

[2] صحيح مسلم 4953.

[3] أخرجه الطبراني في المعجم الكبير 304/11، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة 2276، ولكن تعقبه الشيخ محمد عمرو بن عبد اللطيف في جزئه: حديث (ما من عبد مؤمن إلا وله ذنب يعتاده الفينة بعد الفينة) في الميزان، وبيَّن أن الحديث ضعيف؛ رحمهم الله جميعًا.

أمور مثل دعاء رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "فَإِذَا اسْتَيْقَظَ فَلْيَقُلْ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافَانِي فِي جَسَدِي وَرَدَّ عَلَيَّ رُوحِي وَأَذِنَ لِي بِذِكْرِهِ"[1]. وعلى الوجه الآخر، أن كل ما ارتكبه العبد من معصية فهو بعد إذن الله، مع كُرهه أن يرتكبها ابن آدم، وتلك هي سُنَّة الله للاختبار: أن يقع المرء في المعصية فعليًّا حتى تكون الحجة عليه قاطعة. ولو أننا استوعبنا تلك القاعدة حق الاستيعاب، إضافةً إلى علمنا أن العاصي يكون تحت سقف سخط الله، نستنتج منطقيًّا أن الله قد لا يعين العبد على العمل الصالح. بل وإن تمادى العاصي، فقد يصل إلى مرتبة أن الله يمنعه من العمل الصالح. فأي خسارة بعد هذا؟

وللتوضيح، فهناك فرق بين عدم العون من الله وبين منعه للعبد من إتمام العمل الصالح، ومع أن في كلا الحالتين لا يستطيع المرء أن يُتم العمل الصالح إلى أن يرضى الله عنه ويأذن لذلك ويُعين العبد، إلا أن المنع يفيد أن المرء لن يُتم العمل الصالح نهائيًّا حتى يفوته، مثل أن يفوته مجلس علم كان ينوي حضوره. في تلك الحالة، يكون قد ذهب عنه ثواب ذاك العمل الصالح تحديدًا ولا يستطيع أن يُعوِّضه، وأقصى ما يستطيع فعله هو حضور المجلس القادم، ولكن ليس هو بمنزلة من حضر المجلسين.

أما الذي لا يُعينه الله، فإنه قد يُتم العمل الصالح، ولكن بعد مشقة عارمة في الإقبال على العمل الصالح، لدرجة أنها قد تُطهِّر المرء عن ذنبه فيأذن له الله بإتمام العمل الصالح، فُيعينه الله لما يراه من إصرار ورغبة العبد في ذلك العمل الصالح. وموقف هذا الشخص مثل الذي يصحى لصلاة الفجر ولكنه يكون مُثقلًا جدًّا، ويكون قيامه من الفراش عارمًا في المشقة عليه، ولكنه يكابد نفسه بشدة ويُجاهدها حتى يظل مستيقظًا ولا يعود إلى النوم، فيعينه الله لذلك حتى يقوم وينزل إلى الصلاة في جماعة.

وقد قال بعض أهل العلم إن جزاء العمل الصالح هو عمل صالح وراءه، أي توفيق الله العبد لعملٍ آخر كي يزداد العبد في الأجر، وأن العكس صحيح، وهو أن جزاء المعصية هو الوقوع في معصية أخرى، عقابًا من الله كي يزداد ذاك العبد حملًا يوم القيامة. فإذا كانت تلك هي القاعدة العامة، فمن البديهي أن الأصل هو أن يُمنع العاصي من الفوز بعمل الصالح، وأن المُصلح يُوقى من الوقوع في المعصية. فلا يجب أن تُسول لنا نفوسنا أننا نستطيع أن نرتكب المعصية ثم نتحول سريعًا إلى عملٍ صالحٍ أردنا إتمامه، فإن ذلك ليس مضمونًا، بل إن الاحتمال الأكبر أننا لن نستطيع. فإن وجدت نفسك تريد النزول لصلاة الفجر في المسجد ولكن تجد مشقة عارمة، لوم المعصية؛ وإن أردت المواظبة على الأذكار ولكن تجد أنك لا تستطيع، لوم المعصية.

[1] سنن الترمذي 3323، جزء من الحديث.

قال تعالى {وَلَوْ أَرَادُواْ الْخُرُوجَ لأَعَدُّواْ لَهُ عُدَّةً وَلَـكِن كَرِهَ اللّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُواْ مَعَ الْقَاعِدِينَ} [التوبة 46]، وهذا قول الله في المنافقين الذين لم يريدوا الخروج مع الرسول (صلى الله عليه وسلم) للجهاد وظلوا يتعذرون. ويكأن الله أحبط ما بقي من عزيمتهم على الخروج وجعل الخروج كثِقَلٍ عظيمٍ عليهم، فكان بمنزلة الحُكم من الله أنهم سيقعدون لا محالة.

ومع أن الله هو الذي منعهم بأمره ’كن‘ فيكون "وَقِيلَ اقْعُدُواْ مَعَ الْقَاعِدِينَ"، فإنهم توهموا أنهم هم الذين تنَصَّلوا عن الخروج بإرادتهم، بل وبمهارتهم ودهائهم. بل والمصيبة أنهم فرحوا بمكرهم بالحِيَل ليفرّوا من الجهاد، وظنوا أنهم هكذا سلموا وأن المسلمين لا يستطيعون لومهم. ففي الآية دليل على أن الله قد يمكر بالمرء الذي بالغ في الطغيان حتى يمنعه من نيل الحسنات من العمل الصالح، أو حتى إلى درجة أن الله يحول بينه وبين النجاة من النار!

وقد أجمل ابن القيم (رحمه الله) ما في هذا الباب قائلًا إن من أثر المعصية: أنها تُنسي العبد نفسه، فإذا نسي نفسه أهملها وأفسدها وأهلكها، فإن قيل: كيف ينسى العبد نفسه؟ وإذا نسي نفسه، فأي شيء يَذكر؟ وما معنى نسيانه نفسه؟ قيل: نعم ينسى نفسه أعظم نسيان، قال تعالى {وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [الحشر 19]، فلما نسوا ربهم سبحانه نسيهم وأنساهم أنفسهم، كما قال تعالى {نَسُواْ اللّهَ فَنَسِيَهُمْ} [التوبة 67].

فعاقب سبحانه من نسيه عقوبتين: إحداهما: أنه سبحانه نسيه، والثانية: أنه أنساه نفسه. ونسيانه سبحانه للعبد يعني إهماله وتركه وتخليه عنه وإضاعته، فالهلاك أدنى إليه من اليد إلى الفم. وأما إنساؤه نفسه فهو إنساؤه لحظوظها العالية، وأسباب سعادتها وفلاحها وإصلاحها وما يكملها [أي الأعمال الصالحة]، ينسيه ذلك جميعه، فلا يخطره بباله، ولا يجعله على ذكره، ولا يصرف إليه همته فيرغب فيه، فإنه لا يمر بباله حتى يقصده ويؤثره. وأيضًا ينسيه عيوب نفسه ونقصها وآفاتها، فلا يخطر بباله إزالتها وإصلاحها.

وأيضًا فينسيه أمراض نفسه وقلبه وآلامها، فلا يخطر بقلبه مداواتها، ولا السعي في إزالة عللها وأمراضها التي تؤول بها إلى الفساد والهلاك، فهو مريض مثخن بالمرض، ومرضه مترام به إلى التلف، ولا يشعر بمرضه، ولا يخطر بباله مداواته، وهذا من أعظم العقوبة العامة والخاصة. فأي عقوبة أعظم من عقوبة من أهمل نفسه وضيّعها، ونسي مصالحها وداءها ودواءها، وأسباب سعادتها وفلاحها وصلاحها وحياتها الأبدية في النعيم المقيم؟

ومن تأمل هذا الموضع تبين له أن أكثر هذا الخلق قد نسوا حقيقة أنفسهم وضيعوها وأضاعوا حظها من الله، وباعوها رخيصة بثمن بخس بيع الغبن. وإنما يظهر لهم هذا عند الموت،

ويظهر هذا كل الظهور يوم التغابن، يوم يظهر للعبد أنه غبن في العقد الذي عقده لنفسه في هذه الدار، والتجارة التي أتجر فيها لمعاده، فإن كل أحد يتجر في هذه الدنيا لآخرته.

فالخاسرون الذين يعتقدون أنهم أهل الربح والكسب، اشتروا الحياة الدنيا وحظهم فيها ولذاتهم بالآخرة وحظهم فيها، فأذهبوا طيباتهم في حياتهم الدنيا، واستمتعوا بها، ورضوا بها، واطمأنوا إليها، وكان سعيهم لتحصيلها، فباعوا واشتروا وأتجروا وباعوا آجلًا بعاجل، ونسيئة بنقد، وغائبًا بناجز، وقالوا: هذا هو الحزم. ويقول أحدهم: خذ ما تراه ودع شيئًا سمعت به. (انتهى من كتاب: الجواب الكافي 103-104).

فمعصية الله تحيل بين العبد والعمل الصالح، وقال الفضيل بن عياض في هذا: إذا لم تقدر على قيام الليل، وصيام النهار، فأعلم أنك محرومٌ مُكبّلٌ [أي مُقيَّد]، كبَّلتك خطيئتك[1]. ففي أخف الأحوال يكون قد أهدر المرء وقته في قضاء المعصية بدلًا من استثماره في عملٍ صالح، أما في أسوأ الأحوال فإن ذلك يؤول إلى أن الله يمنع العبد من العمل الصالح وإن عزم عليه. فحتى وإن غُفر له ذنبه، فقد فاتته منزلة المحسنين في كل الأحوال، كما قال الحكماء: هب أن المسيء قد عفي عنه، أليس قد فاته ثواب المحسنين؟[2].

الندم والوحشة

إن المرء بعدما ينتهي من المعصية وتخمد لذتها، يبدأ بسماع عتاب ضميره له على فعلته ومحاسبة عقله لنفسه، خاصة في أوقات سكونه: عند النوم، أو بعد بلاء أصابه، أو حين إجهاد جسده، أو عندما يكون في عُزلة وحده. ذلك لأن جسده ليس مُصممًا للمعصية، فإن الله لم يخلقه ذلك، فيشعر المرء أن هناك خطبًا ما. أما في المؤمن خاصة، فيكون ذلك أشد عليه إذ يؤنب نفسه أنه أقبل على عصيان الله، ويتحسر على تفويته لفرصة إثبات لله انصياعه له بالامتناع عن المعصية استجابةً لنهي الله. وفوق ذلك، فإن الؤمن يحمل هم أن بعدما انقضت المعصية بقي عليه الحساب عليها، ويتحسر أنه قد كان يستطيع أن يستغل الوقت الذي قضاه في عملٍ صالح بدلًا من المعصية.

ولكن لا يبلغ التحسر ذروته إلا في الآخرة، حين يُعاين ويُعايش ما ينتظر الظالمين من عذاب وما أُعَد للمُحسنين من مكافأة، فيبدأ بقول لنفسه أشياء مثل "لماذا لم أفعل هذا بدلًا من ذلك"، أو "لماذا لم أغتنم الفرصة، فقد كنت أستطيع أن أفعل ذلك العمل الصالح"، أو "ياحسرتي لقد كدت أن أفعل الفعل الصائب ولكني أقبلت على الخطأ، فلماذا؟!"، أو "يا سفاهتي على اختياري، فأي عاقل يفعل

[1] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للأصبهاني 96.

[2] موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين للشيخ محمد جمال الدين القاسمي 306.

ذلك؟!". ولعله يقول {وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلا (27) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (28) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا} [الفرقان 27-29]. يتعدد المُفَرِّط فيما يقوله لنفسه تحسرًا على ما ضيَّعه من مزايا في مستويات الجنة، ولعله في المقابل أبدلها بدركات في العذاب.

فإن العاصي ليندم ولو بعد أمد (في الآخرة حتمًا على الأقل) على معصيته لله. يندم على ما فوته من خير الجزاء، ويندم على إخفاقه مع ربه، ويندم على قبح ما وقع فيه، ويندم على أنه لم يستطع السيطرة على هواه، والندم لما يراه من تبعات للمعصية، والندم على أن أصبح عليه المحاسبة من الله عليها، ويندم على المساحة التي أحدثها بينه وبين الله إذ إنه أبعد نفسه عن الله بعصيانه. ويتولد من ذلك الندم الوحشة بينه وبين الله، والحزن على ما ارتكبه، والحزن قد يزيد حتى يرغب المرء في أن يكون منطويًا أو في عُزلة عن الناس، فيكون وضعه شبيهًا بالذي أصابته صدمة، أو كالذي رأى مصائب كثيرة بعينيه.

والحزن واقعٌ لا محالة، فأما التقيّ فإنه يحزن على مخالفته لأوامر الله، وأما للذي لا يؤمن بالله أو إيمانه ضعيف فإنه لا يزال يحزن لأنه يُشعر أن هناك خطبًا ما فيما فعله، وشعوره ذلك يُنَغِّص حياته عليه. وقد يحزن لأنه يعلم أن هذا أمر سوء بالمنطق، ومع ذلك أقبل عليه وفعله، فيشعر أنه شخصٌ سيئ. حتى إن كان ذاك الشخص فاجرًا، فلا يزال هناك الضمير الذي جُبل على الفطرة، فبارتكابه المعصية يصبح هناك شيءٌ يحيك في صدره إذ تصطدم رغبته مع فطرته وضميره، ويشعر أنه شرد عن المسار الطبيعي للإنسان، وينتج عن ذلك حزن داخلي يتراكم في نفسه مع الوقت حتى يظهر، هذا إن لم يكن قد ظهر بعد حفنةٍ من المعاصي.

وقد قال سيدنا حذيفة بن اليمان (رضي الله عنه) إن ترك المعصية خيرٌ من الوصول إلى مرحلة احتياج التوبة (ومن أسباب ذلك أنها يعقبها حُزن). قد قال: إِنَّ الْحَقَّ لَثَقِيلٌ، وَهُوَ مَعَ ثِقَلِهِ مَرِيءٌ، وَإِنَّ الْبَاطِلَ خَفِيفٌ، وَهُوَ مَعَ خِفَّتِهِ وَبِيءٌ، وَتَرْكُ الْخَطِيئَةِ أَيْسَرُ وَخَيْرٌ مِنْ طَلَبِ التَّوْبَةِ، وَرُبَّ شَهْوَةِ سَاعَةٍ أَوْرَثَتْ حُزْنًا طَوِيلًا[1] (وبيء أي يجلب الوباء، يُمرِض).

فوات فرص تكريم وتشريف من الله للعبد

إن الله يُتيح لعباده من الكرامات ما تكون كالفرص الذهبية، يفلح من يكتسبها، وأما من حَرَم نفسه تلك الكرامات والمِنح من الله بعصيانه، فذاك قد خاب وخسر خسرانًا مخزيًا فادحًا. مثالٌ من تلك الكرامات الثابتة بالدليل هو نيل كرامة كثرة المؤمنين المصلين علي المتوفي بعد مماته، لأن ثمرة هذا

---

[1] مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر 259/6.

كما قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) "مَا مِنْ مَيِّتٍ تُصَلِّي عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ يَبْلُغُونَ مِائَةً، كُلُّهُمْ يَشْفَعُونَ لَهُ، إلا شُفِّعُوا فِيهِ"[1]. والسؤال الذي يجب أن نطرحه على أنفسنا: هل هذه الكرامة ينالها من يظلم الناس أو يُسيء معاملتهم حتى يُبغضونه؟ وإني قد رأيت شخصًا بعد وفاته لم يواسِ أهله بالعزاء إلا القليل من الناس، إذ كان يكثر من التشاجر مع الناس، وربما لم يُصلِّ عليه إلا القليل أيضًا، نعوذ بالله أن يكون مثل ذلك مصيرنا، فلنعمل على تفادى ذلك. لنتقِ الله ولننتبه من أذية الناس وظلمهم.

إياك يا أخي وظلم الناس، فإن ظُلم الناس ظُلُمات يوم القيامة كما حذرنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) في جزء من حديث له "وَإِيَّاكُمْ وَالظُّلْمَ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"[2]. أما إذا ظلمت حقوق الله -بعيدًا عن الشرك-، وهذا ما يصدر منا إما بالتقصير في طاعته وشُكره، وإما بالإقبال على ما نهانا عنه فانتهكنا الحدود التي وضعها لنا، فذلك أقل خطورةً من ظُلم الناس، بالرغم من قبح ظلم حقوق الله. هذا لأن التوبة تجعل الله يتجاوز عن ظُلم العبد لربه، وأن رب العباد قد يعفو عن عبده يوم القيامة، ولكن يصعب أن تجد عبدًا يعفو عن عبدٍ يومئذٍ. فكيف يعفو عنك المظلوم في الآخرة إذا كان في الدنيا يتمنى القصاص منك، ويرغب في إشفاء الغيظ الذي في قلبه تجاهك؟ أبعد أن يُمكّنه الله منك يعفو عنك المظلوم، هذا احتمالٌ مستبعد. قال أحد الحكماء:

لا تظلمنَّ إذا ما كنتَ مقتدرًا

فالظلمُ آخرُه يأتيك بالندمِ

نامتْ عيونُك والمظلومُ منتبهٌ

يدعو عليك وعينُ اللهِ لم تنمِ[3]

والحديث المذكور (عن صلاة المسلمين على الميت) من الأحاديث الدالة على أن الله يقبل شهادة وشفاعة الناس على الميّت، والشفاعة تُقبل إن شاء الله من المسلمين إن كثروا وأخلصوا. أما الظالم، فإن الناس تُعرض عنه وعن الترحم عليه بإخلاص، بل وقد يمكر الله بالظالم حتى يموت في وقت لا يدرك جماعة من الناس أن تصلي عليه، كأن يموت ليلًا ويُدفن نهارًا مبكرًا قبل أن يعلم عامة الناس، أو في مكان لا يتوفر فيه أناس كثيرون كطريق سفر مثلًا.

---

[1] صحيح مسلم 1576.

[2] مسند أحمد 6502.

[3] المستطرف للأشبيهي 117.

وأما من يُحب الله ويتقيه، فإنه يُحسن إلى عباد الله فيحبونه، فيقبل المسلمون على الصلاة عليه. وقد يزيده الله تكريمًا بأن يتوفاه في وقت أو مكان يكثر فيه المسلمون التردد إليه. وقد رأيت بنفسي أناسًا أصابهم كرم الله بأن تكون الصلاة عليهم عقب صلاة مفروضة، تكون بين فترات سعي الناس لأرزاقهم (أي صلاة الظهر أو حتى صلاة الجمعة)، وفي مسجد كبير، فيصلي على الميّت المئات من المسلمين وربما الآلاف!

وكما جاء في الحديث عن النبي (صلى الله عليه وسلم) "مَن التمَس رضا اللهِ بسخَطِ النَّاسِ رضِي اللهُ عنه وأرضى النَّاسَ عنه، ومَن التمَس رضا النَّاسِ بسخَطِ اللهِ سخِط اللهُ عليه وأسخَط عليه النَّاسَ"[1]. فإن كنت أنا عاصيًا، إما لنفسي أو لمجاراة الناس والسعي لنيل قبولهم لي -خصوصًا في زمنٍ تُقلب فيها الموازين فيُسخر ويُعتزل الرجل الصالح في حين يُعظَّم ويُوقَّر المُفسد-، ربما أصابني سخط الله فيمنع الناس من الصلاة عليَّ، أو يُبَغِّضهم فيّ فلا يأتون للصلاة عليَّ. وفي تلك الحالة يكون وضعي أني لا أصبت عملًا ينفعني في الآخرة، ولا أصبت شفاعة الناس لبُغضهم لي، فتكون الخسارة الفادحة، ولا مفر آنذاك من الورطة. فبمعصيتي قد أُبعد عني سببًا من أسباب إدراك رحمة الله بي، ولا أستطيع أن ألوم إلا نفسي.

ومن تلك الكرامات هي استفادة العبد مما جمعه من القرآن يوم القيامة، كما نبأنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) "يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ وَارْتَقِ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَأُ بِهَا"[2]. ومعنى "اقرأ" في الحديث المذكور أي أن يتلو ما حفظه المرء، وليس المعنى القراءة من المصحف، والمقصود بالمنزلة هي المنزلة عند الله، ومن ثمَّ في الجنة. هذا مع العلم بأن العاصي دائم النسيان للقرآن، إذ إن الله يُنسيه إياه، ودائم الهجر له لفترات طويلة، فكيف يرتقي العبد العاصي وقلبه مُظلم لا يحتوي من نور الله (القرآن)؟

وهذه من أكبر الخسائر من عواقب المعاصي، أن يفوته باب من أبواب رحمة الله، مثل الارتقاء بالترتيل، كان من الممكن أن يكون طوق نجاة للعبد من النار، أو للخروج منها إن حُق عليه دخولها. وحتى إن غُفر له يوم القيامة لقلة معاصيه وسيدخل الجنة، فلا يزال قد فاته العلو في منازل الجنة. هذا بالطبع بالإضافة لخسارة أن العاصي يُمنع من الإقبال على القرآن جملةً، أي يُحال بينه وبين ثواب قراءة القرآن لاسيما حفظه، وإن قرأه فيعجز عن الاستفادة منه على أكمل وجه عن طريق تدبره.

وبما أن العاصي لا يستطيع أن يحمل القرآن جيدًا، فإنه يفوته تاج الكرامة الذي يُتوج الله به حملة القرآن وقُرّاءه. قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "يَجِيءُ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ

[1] صحيح ابن حبان 276.

[2] سنن الترمذي 2838.

حَلِّهِ؛ فَيُلْبَسُ تَاجَ الْكَرَامَةِ. ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ زِدْهُ؛ فَيُلْبَسُ حُلَّةَ الْكَرَامَةِ. ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ ارْضَ عَنْهُ؛ فَيَرْضَى عَنْهُ. فَيُقَالُ لَهُ: اقْرَأْ وَارْقَ وَتُزَادُ بِكُلِّ آيَةٍ حَسَنَةً"[1] (حَلِّهِ أي زده جمالًا بالحُليّ، أي الزينة).

وفي رواية أخرى جاء "تَعَلَّمُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلا يَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ. تَعَلَّمُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ وَآلِ عِمْرَانَ، فَإِنَّهُمَا الزَّهْرَاوَانِ، وَإِنَّهُمَا تُظِلَّانِ صَاحِبَهُمَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ غَيَايَتَانِ أَوْ فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ. وَإِنَّ الْقُرْآنَ يَلْقَى صَاحِبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ كَالرَّجُلِ الشَّاحِبِ، فَيَقُولُ لَهُ: هَلْ تَعْرِفُنِي؟ فَيَقُولُ: مَا أَعْرِفُكَ؛ فَيَقُولُ: أَنَا صَاحِبُكَ الْقُرْآنُ الَّذِي أَظْمَأْتُكَ فِي الْهَوَاجِرِ وَأَسْهَرْتُ لَيْلَكَ، وَإِنَّ كُلَّ تَاجِرٍ مِنْ وَرَاءِ تِجَارَتِهِ وَإِنَّكَ الْيَوْمَ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ تِجَارَةٍ؛ فَيُعْطَى الْمُلْكَ بِيَمِينِهِ وَالْخُلْدَ بِشِمَالِهِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ، وَيُكْسَى وَالِدَاهُ حُلَّتَيْنِ لا يُقَوَّمُ لَهُمَا الدُّنْيَا، فَيَقُولانِ: بِمَ كُسِينَا هَذَا؟ وَيُقَالُ لَهُمَا: بِأَخْذِ وَلَدِكُمَا الْقُرْآنَ. ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: اقْرَأْ وَاصْعَدْ فِي دَرَجِ الْجَنَّةِ وَغُرَفِهَا؛ فَهُوَ فِي صُعُودٍ مَا دَامَ يَقْرَأُ، هَذًّا كَانَ أَوْ تَرْتِيلًا"[2] (الْبَطَلَةُ هم السَحَرَة؛ الزَّهْرَاوَانِ أي المنيرتان؛ فِرْقَانِ أي مجموعتان؛ صَوَافَّ أي يفردون أجنحتهم؛ الشَّاحِبِ أي تغير لونه من خوف أو ضعف؛ الْهَوَاجِرِ هو وقت شدة حر منتصف النهار؛ هَذًّا أي سريعًا مفرطًا في العجلة؛ تَرْتِيلًا أي متمهلًا متأنيًا).

هذا دون النظر إلى الخسارة في الدنيا من فوات فوائد القرآن، لأن القرآن نور وشفاء، فيساعد المرء على الإقلاع عن المعاصي، وإرشادٌ للمرء إلى مصالحه، فيكون العاصي قد سد على نفسه مخرجًا من منزلق المعاصي. هذا بالإضافة إلى فوات لذة قراءة القرآن، لأن التأثر بالقرآن يحتاج إلى تدبر له وقلب رقيق بالإيمان، ولا يكون هذا عند العاصي. حينئذ يكون ممن عجزوا عن الأخذ بنصيحة ابن مسعود (رضي الله عنه) في قراءة القرآن: لَا تَنْثُرُوهُ نَثْرَ الرَّمْلِ، وَلَا تَهُذُّوهُ هَذَّ الشِّعْرِ، قِفُوا عِنْدَ عَجَائِبِهِ، وَحَرِّكُوا بِهِ الْقُلُوبَ، وَلَا يَكُنْ هَمُّ أَحَدِكُمْ آخِرَ السُّورَةِ[3]. فالعاصي يفتقد فوائد ولذة القرآن في الدنيا، والمجازاة به في الآخرة.

هذا فيما يختص بتاج الكرامة والوقار من باب حمل القرآن، ولكن هناك تاجٌ آخر للشهيد، تاجٌ فيه ياقوت. وذلك قد يفوت العاصي أيضًا إذ إن الله قد يمنعه من الجهاد -لأنه من الأعمال الصالحة التي تحتاج العون من الله-، أو أن يفر المرء عند ملاقاة العدو ورؤية جَمعِهِم، هيبةً منهم وتصغيرًا لنفسه بسبب المعاصي التي ارتكبها، وتأثير الشيطان عليه {إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا اللّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ} [آل عمران 155].

---

[1] سنن الترمذي 2839.

[2] سنن الدارمي 3257.

[3] تفسير البغوي 251/8.

قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللَّهِ سِتُّ خِصَالٍ: يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْعَةٍ؛ وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنْ الْجَنَّةِ؛ وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ؛ وَيَأْمَنُ مِنْ الْفَزَعِ الأَكْبَرِ؛ وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ، الْيَاقُوتَةُ مِنْهَا خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا؛ وَيُزَوَّجُ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنْ الْحُورِ الْعِينِ؛ وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَقَارِبِهِ"[1] (فِي أَوَّلِ دَفْعَةٍ أي أول دفعة من دمه تخرج حين استشهاده؛ الْفَزَعِ الأَكْبَرِ هو فزع يوم القيامة؛ الْيَاقُوتَةُ مِنْهَا أي أن جوهرة ياقوتية واحدة من التاج أثمن من الدنيا وما فيها).

ثم لننظر إلى الشرف والتكريم الذي ناله الصحابي الجليل سعد بن معاذ (رضي الله عنه)، فقد ذكرنا سابقًا أنه اهتز عرش الرحمن لموته كما جاء في الحديث، ولكن تلك لم تكن الكرامة الوحيدة التي نالها، مع أنها فريدة. فقد نال من الكرامات ما نبأنا ببعضها الرسول (صلى الله عليه وسلم) مثل عندما حُمِلَت جنازته وقال المُنافقون: مَا أَخَفَّ جَنَازَتَهُ! وَذَلِكَ لِحُكْمِهِ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ "إِنَّ الْمَلائِكَةَ كَانَتْ تَحْمِلُهُ"[2].

ولسرد خلفيات الواقعة، فإن سيدنا سعد (رضي الله عنه) كانت له روابط وود مع بني قريظة اليهودية قبل إسلامه، وفي غزوة الأحزاب حين حفر المسلمون الخندق، خان بنو قريظة عهدهم مع المسلمين وتحالفوا مع مشركي قريش للقضاء على المسلمين، وكانوا يساكنون المسلمين داخل المدينة. فكانت غدرة داخلية مُنَسَّقَة، إضافةً لما يواجهه المسلمون من حصار وتربص خارجي لهم من قريش.

وكانت تلك ضربة معنوية شديدة للمسلمين لما وقع الغدر الداخلي لهم أيضًا، والتي قال عنها تعالى من شدة بلائها عليهم {إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (10) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا} [الأحزاب 10-11]. فلما نزل أمر الله، منها ريحٌ شديدٌ على أعداء المسلمين فتفرقت الأحزاب، فحاصر الرسول (صلى الله عليه وسلم) بنو قريظة حتى يأسوا من التفلت، فتحايلوا وقالوا إنهم يرضون بقضاء سعد فيهم لعَشَمِهم فيه، فقضى سعد أن يُقتل رجالهم وتُسبى نساؤهم وأولادهم وتُقسَّم أموالهم لغدرتهم، فاغتاظ المنافقون الذين في المدينة لحُكمِه لأنهم يتربصون بالمسلمين الهلاك.

فلصدق سيدنا سعد (رضي الله عنه)، وأنه لم تأخذه عشرته ووِدَّه مع اليهود قبل إسلامه من أن يقضي فيهم بالحق الذي يُرضي الله، فارتقى في منزلته عند الله بمثل تلك المواقف، حتى نال من الكرامات ما نسمع عنها. ومثل تلك الكرامات للمرءِ وغيرها في متناول أيدينا بالتقوى، وسيأتي ذكر عدد منها في باب "ما المقابل لترك المعاصي" إن شاء الله، ولكنهن من العاصي ببعيد...

---

[1] سنن الدارمي 1586.

[2] سنن الترمذي 3784.

فوات الطمأنينة في مراحل الآخرة واستبدالها بالفزع والذل

قد علمنا ما حال العبد الصالح من شهادة وشفاعة الناس له، أما الشخص الفاحش، فخوفه وعذابه لا يبدأ عند القبر، بل قبل ذلك، حين يُقبض بملائكة غلاظ يضربونه، شبيهًا بما يحدث مع الكفار {وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُواْ الْمَلآئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ} [الأنفال 50]، في حين يُشيِّعونه فيما ينتظره من عذاب. وينزعون روحه من جسده نزعًا أليمًا، حتى وهو يُحمل على أكتاف الناس فهو في عذاب الرعب مما سيُفعل به يقول "يَا وَيْلَهَا أَيْنَ يَذْهَبُونَ بِهَا"[1].

والسؤال هو، لماذا أسوق نفسي إلى العذاب والخوف؟ لماذا لا أكون من النفوس المطمئنة بعد الموت بأن أتقي الله؟ ومن الذي يرضى لنفسه أن يصفه الرسول (صلى الله عليه وسلم)، الذي هو شهيد على الناس والأمم كافة، بأنه شر يوضع عن رقاب المسلمين فليُسرع به إلى الدفن، وكأن هذه النفس ليست منهم ويسعون للتخلص منها! فلماذا أجمع كل هذا عليَّ –الفزع والذل والمهانة والقلق– في أكثر يومٍ أحتاج فيه إلى السلامة والطمأنينة؟ وسيأتي إن شاء الله ذكر نماذج من الطمأنينة، تفصيليًّا، التي تكون للمرء التقيّ في مختلف مراحل الآخرة، في باب "ما المقابل لترك المعاصي". ولكن كل هذا يفوت العاصي.

استحقاق العذاب من الله في الدنيا والآخرة

قال تعالى {مَّا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللهُ شَاكِرًا عَلِيمًا} [النساء 147]. هذا معناه أن الله لا يُرسل البلاء كعذاب إذا كان الناس يشكرون الله ويُطيعونه، –مع إدراك أن هناك فرقًا بين بلاء العقاب وبين بلاء التمحيص الذي قد ينزل على العبد الصالح رفعًا لدرجاته–. أما إذا فسقوا بعصيان الله، فقد زال العهد الذي بينهم وبين الله ألا يُعذِّبهم، ويدخلون تحت طائلة أنهم قد أُقيمت عليهم الحجة في استحقاق العذاب، بحسب عموم قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "لَنْ يَهْلِكَ النَّاسُ حَتَّى يُعْذِرُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ"[2] (يُعْذِرُوا أي ليس لهم عذر لتركهم العمل بعد إظهار الحق لهم).

وقد أوصى الرسول (صلى الله عليه وسلم) سيدنا معاذ (رضي الله عنه) بعشر كلمات، فيها عدم عصيان الله، لأن به يُفتح باب استحقاق سخط الله وعقابه. هذا في قوله "لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ شَيْئًا وَإِنْ قُتِلْتَ وَحُرِّقْتَ؛ وَلَا تَعُقَّنَّ وَالِدَيْكَ وَإِنْ أَمَرَاكَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ؛ وَلَا تَتْرُكَنَّ صَلَاةً مَكْتُوبَةً مُتَعَمِّدًا، فَإِنَّ مَنْ تَرَكَ صَلَاةً مَكْتُوبَةً مُتَعَمِّدًا فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُ ذِمَّةُ اللَّهِ؛ وَلَا تَشْرَبَنَّ خَمْرًا فَإِنَّهُ رَأْسُ كُلِّ فَاحِشَةٍ؛ وَإِيَّاكَ وَالْمَعْصِيَةَ، فَإِنَّ بِالْمَعْصِيَةِ حَلَّ سَخَطُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ وَإِيَّاكَ وَالْفِرَارَ مِنْ الزَّحْفِ وَإِنْ هَلَكَ النَّاسُ؛ وَإِذَا أَصَابَ النَّاسَ مُوتَانٌ وَأَنْتَ فِيهِمْ فَاثْبُتْ؛ وَأَنْفِقْ عَلَى عِيَالِكَ مِنْ طَوْلِكَ، وَلَا تَرْفَعْ عَنْهُمْ عَصَاكَ أَدَبًا،

---

[1] صحيح البخاري 1291، جزء من الحديث.

[2] صحيح الجامع للألباني 5231.

وَأَخِفْهُمْ فِي اللَّهِ"[1]. وَإِنْ أَمَرَاكَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ هو تعبير للمبالغة في الحث على طاعة الوالدين، وليست هذه الجملة مُطلقة التنفيذ كما قد يُساء فهمها؛ مُوتَانٌ أي موت كثير بسبب وباءٍ؛ وَلَا تَرْفَعْ عَنْهُمْ عَصَاكَ أَدَبًا أي لا تتوقف عن تأديبهم، ولو بالضرب غير المبرح عند الضرورة.

فكل عذاب يحل علينا لا يكون إلا لمعصية ارتكبها المرء أو الأُمَّة. فالمعصية محور الشرور والأضرار، وقد يبلغ ضررها إلى أنها تجلب العذاب المُهلك للحياة من الله (أي المُميت).

يقول ابن القيم (رحمه الله): فما ينبغي أن يُعلم، أن الذنوب والمعاصي تضر، ولا بد أن ضررها في القلب كضرر السموم في الأبدان على اختلاف درجاتها في الضرر، وهل في الدنيا والآخرة شر وداء إلا سببه الذنوب والمعاصي؟ فما الذي أخرج الأبوين من الجنة، دار اللذة والنعيم والبهجة والسرور إلى دار الآلام والأحزان والمصائب؟

وما الذي أخرج إبليس من ملكوت السماء وطرده ولعنه، ومسخ ظاهره وباطنه فجعل صورته أقبح صورةٍ وأشنعها، وباطنه أقبح من صورته وأشنع، وبُدِّل بالقرب بُعدًا، وبالرحمة لعنةً، وبالجمال قبحًا، وبالجنة نارًا تلظى، وبالإيمان كفرًا، وبموالاة الولي الحميد أعظم عداوة ومُشاقّة، وبزجل التسبيح والتقديس والتهليل زجل الكفر والشرك والكذب والزور والفحش، وبلباس الإيمان لباس الكفر والفسوق والعصيان، فهان على الله غاية الهوان، وسقط من عينه غاية السقوط، وحل عليه غضب الرب تعالى فأهواه، ومقته أكبر المقت فأرْداه، فصار قوادًا لكل فاسق ومجرم؟ رضي لنفسه بالقيادة بعد تلك العبادة والسيادة، فعياذًا بك اللهم من مخالفة أمرك وارتكاب نهيك.

وما الذي أغرق أهل الأرض كلهم حتى علا الماء فوق رأس الجبال [مع قوم نوح عليه السلام]؟ وما الذي سلط الريح العقيم على قوم عاد حتى ألقتهم موتى على وجه الأرض كأنهم أعجاز نخل خاوية، ودمرت ما مر عليه من ديارهم وحروثهم وزروعهم ودوابهم، حتى صاروا عبرة للأمم إلى يوم القيامة؟ وما الذي أرسل على قوم ثمود الصيحة حتى قطعت قلوبهم في أجوافهم وماتوا عن آخرهم؟ وما الذي رفع قرى اللوطية حتى سمعت الملائكة نبيح كلابهم، ثم قلبها عليهم، فجعل عاليها سافلها، فأهلكهم جميعًا، ثم أتبعهم حجارة من السماء أمطرها عليهم، فجمع عليهم من العقوبة ما لم يجمعه على أمة غيرهم، ولإخوانهم أمثالها؟ وما هي من الظالمين ببعيد.

وما الذي أرسل على قوم شعيب سحاب العذاب كالظلل، فلما صار فوق رءوسهم أمطر عليهم نارا تلظى؟ وما الذي أغرق فرعون وقومه في البحر، ثم نقلت أرواحهم إلى جهنم، فالأجساد للغرق، والأرواح للحرق؟ وما الذي خسف بقارون وداره وماله وأهله؟ وما الذي أهلك القرون من بعد نوح بأنواع العقوبات، ودمرها تدميرًا؟ وما الذي أهلك قوم صاحب يس بالصيحة حتى خمدوا عن آخرهم؟

---

[1] مسند أحمد 21060. في الحديث انقطاع. ضعفه الأرناؤوط.

وما الذي بعث على بني إسرائيل قومًا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار، وقتلوا الرجال، وسبوا الذرية والنساء، وأحرقوا الديار، ونهبوا الأموال، ثم بعثهم عليهم مرة ثانية فأهلكوا ما قدروا عليه وتبَّروا ما علوا تتبيرًا؟ وما الذي سلط عليهم أنواع العقوبات، مرة بالقتل والسبي وخراب البلاد، ومرة بجور الملوك، ومرة بمسخهم قردة وخنازير، وآخر ذلك أقسم الرب تبارك وتعالى {لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ} [الأعراف 167]؟[1]

التوتر المستمر لتوقع الإصابة بعقوبة الله على المعصية في أي لحظة أو موقف

إن العبد الصالح إذا عصى ربه يشعر كالسارق الذي أخذ ما ليس له، فينتابه قلق مستمر لتوقع نزول عقوبة من الله عليه في أي لحظة، تمامًا مثل أن السارق يظل في همٍّ مستمر من أن يُفضَح أو تُلاحقه الناس؛ وأيضًا يظل المؤمن مهمومًا: أعفا الله عني أم لا. وهذا الشعور يصدر عند المؤمن لأنه يندم ويُلح عليه ضميره، ولعل هذا مما يشير إليه سيدنا ابن مسعود (رضي الله عنه) بقوله: إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ فَقَالَ بِهِ 'هَكَذَا'[2] (فقَالَ بِهِ 'هَكَذَا' قالها وهو يُحرّك يده فوق أنفه، أي مثل الذي يُبعد ذبابة من على أنفه).

جانب من أنه يشعر بذلك هو لأنه يعلم يقينًا بأنها ستقع عليه في الآخرة بالمحاسبة عليها، وربما أيضًا يقع عليه في الدنيا بتعريض نفسه لبلاء من الله استحقاقًا لعصيانه، إلا إذا عفا الله عنه ولا يؤاخذه بتلك المعصية. فلماذا إذا أضع نفسي في حالة غمٍّ مزرية من القلق المستمر؟ لماذا لا أُنَزِّه نفسي عن تلك المعاناة، إلى مرحلة سكينة النفس وراحة البال؟ وحول هذه النقطة هناك حديث لرسول الله (صلى الله عليه سلم) يشير إلى هذا الحال، وذلك في قوله "دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ، فَإِنَّ الصِّدْقَ طُمَأْنِينَةٌ، وَإِنَّ الْكَذِبَ رِيبَةٌ"[3].

والمفارقة أن هناك من الناس، بالرغم من تماديهم في معصية الله، يستبشرون بالخير والرحمة من الله عندما يرون الرياح والسحاب على أنه مطر، وهذا بدلًا من الخوف من مكر الله لأعمالهم أنه قد يكون عذابًا. هذا ليس رأيي الشخصي، ولا حدث غير وارد، وإنما هو محاكاة لحال الرسول (صلى الله عليه وسلم) عندما كان يرى تلك الظواهر، فقد كان يهتم برؤيتهما بالرغم من أنه لم يعصِ الله قط، وأيضًا كان حوله خير الأتباع الأتقياء: الصحابة (رضي الله عنهم). هذا لأن تلك

---

[1] الجواب الكافي لابن القيم 43-45.

[2] صحيح البخاري 5833.

[3] سنن الترمذي 2442.

الظواهر قد تكون عذابًا، فقد قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "الرِّيحُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ تَأْتِي بِالرَّحْمَةِ وَتَأْتِي بِالْعَذَابِ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهَا فَلا تَسُبُّوهَا، وَسَلُوا اللَّهَ خَيْرَهَا وَاسْتَعِيذُوا بِهِ مِنْ شَرِّهَا"[1].

وقد روت لنا السيدة عائشة (رضي الله عنها): وَكَانَ إِذَا رَأَى غَيْمًا أَوْ رِيحًا عُرِفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ [أي أنه يصبح مهمومًا]، فقلت: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَى النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْغَيْمَ فَرِحُوا رَجَاءَ أَنْ يَكُونَ فِيهِ الْمَطَرُ وَأَرَاكَ إِذَا رَأَيْتَهُ عَرَفْتُ فِي وَجْهِكَ الْكَرَاهِيَةَ، فَقَالَ "يَا عَائِشَةُ، مَا يُؤَمِّنُنِي أَنْ يَكُونَ فِيهِ عَذَابٌ، قَدْ عُذِّبَ قَوْمٌ بِالرِّيحِ، وَقَدْ رَأَى قَوْمٌ الْعَذَابَ فَقَالُوا {هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا}"[2] (هَذَا عَارِضٌ أي سحاب يعرض في أفق السماء جاء بالمطر فاستبشَر به قوم عاد، فأخذهم العذاب على بغتة وغرّة). والآية كاملةً هي {فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ} [الأحقاف 24].

وفي رواية أخرى جاء عنها (رضي الله عنها): إِذَا عَصَفَتْ الرِّيحُ قَالَ (صلى الله عليه وسلم) "اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَهَا وَخَيْرَ مَا فِيهَا وَخَيْرَ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ مَا فِيهَا وَشَرِّ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ"، وَإِذَا تَخَيَّلَتْ السَّمَاءُ تَغَيَّرَ لَوْنُهُ وَخَرَجَ وَدَخَلَ وَأَقْبَلَ وَأَدْبَرَ، فَإِذَا مَطَرَتْ سُرِّيَ عَنْهُ فَعَرَفْتُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، فَسَأَلْتُهُ فَقَالَ "لَعَلَّهُ يَا عَائِشَةُ كَمَا قَالَ قَوْمُ عَادٍ {فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا}"[3] (تَخَيَّلَتْ السَّمَاءُ أي تغيرت، سُرِّيَ عَنْهُ أي ارتاح وخُفِّف عنه). فكان صلى الله عليه وسلم ينتابه الهم بتغير السماء وظهور الريح والسحاب حتى تُمطر، فيطمئن بذلك أنه رحمةً من الله.

مُلخَّص ما أردت توصيله هو أن عندما يُخطئ الإنسان يئن عليه ضميره، فيشعر بالتأنيب والانكسار، ويعلم أن الله قد يُرسل عليه عقابًا على معصيته، وأنه لن يكون مظلومًا، فيقبل العقاب وهو مُتفهم الأسباب. فالسؤال هو: لماذا أقبل على نفسي هذا الوضع المُزري؟

رفع ستر الله وعونه عن العبد، أي يتخلى عنه فيُصبح العبد مُعرضًا لتيارات الدنيا

إذا أقلع العبد عن تطبيق كتاب الله بالإكثار من المعاصي، فإن الله يُجازيه من جنس العمل بأن يرفع ستره وعونه للعبد، وذلك يترك العبد مكشوفًا أمام أمواج الدنيا –مثل لمكر إنسانٍ آخر به ليؤذيه أو يفضحه–، وذلك لأن العبد خرج عن الإطار الذي وضعه الله له فقد لا يستحق غطاء الله عليه. وهذا يؤيده ما قاله الله عز وجل {إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ} [الحج 38]، ففي الآية دلالة أن الله يُدافع عن الذين آمنوا وليس ذلك للخائن الكافر. فما ظننا في

---

[1] مسند أحمد 7311.

[2] صحيح مسلم 1497.

[3] صحيح مسلم 1496.

حال عبدٍ تركه الله لتفعل الدنيا فيه ما تشاء؟ ومن تلك التيارات العاصفة هو تيار الشيطان، إذ يسعى إلى حمل الإنسان إلى الهلاك، فما الذي يمنع حدوث ذلك بعد أن رفع الله وقايته عن العبد؟

قال تعالى {لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ} [الحج 53]. في تفاسير القرآن تُذكر قصة الغرانيق، وهي أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) عندما تلا سورة النجم وسمعها مُشركو مكة ظنوا أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) يذكر الأصنام بالثناء، مع أن المقصد بيان بُطلانهن بالحُجة. حدث هذا لأن الشيطان ألقى في قلوب المشركين ما أملوا وأرادوا سمعه ورؤيته، فجاءت هذه الآية في هذا السياق. وأذكر هذه القصة لأُشير إلى دلالة أن الشيطان قد يُملي على شخصٍ شيئًا استشفَّه الشيطان مما يريد المرء أن يُصدِّقه، أي يتلاعب على خواطر المرء.

ومن المعلوم أن كل الإنسان له بعض الأفكار أو الرغبات التي تقرب إلى الباطل عن الصواب، مع اختلاف درجاتها وكمياتها بين التقي والفاجر وتعامل كل فرد معها. ولكن لأنها تَرِد على خاطر المرء قد يُعجب بها، فإنه مع أبسط إشارة في اتجاهها قد يُصَدِّقها على أن هذه دلالة صحتها، حتى ولو كانت تلك الإشارة جاءت من قراءته الخاطئة للموقف وليس من حقيقة الموقف. فالإنسان مُعرض لتصديق أمر يخطر على باله أو يبغاه هواه بأبسط دليل أو تلميحٍ حتى، وذلك مثل ما ألقى الشيطان على هؤلاء أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) يمدح أصنامهم.

ويجب لفت الانتباه إلى أمرٍ مهمٍ، وهو أن الشيطان يمتزج مع أفكار وخواطر ومشاعر الإنسان، فهو يلتقط الأفكار التي ترد على بال المرء. وذلك كما نبأنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) عندما تورع من أن رجلين يظنان فيه ظن سوء "إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ الإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يُلْقِيَ فِي أَنْفُسِكُمَا شَيْئًا"[1]. وهذا الامتزاج مع بني آدم يجعل الشيطان في موضعٍ متميزٍ للتلاعب بمشاعر المرء وأفكاره، إذ إنه يعلم ما المرء مُهيؤٌ لتصديقه، فيتلاعب في الأرض الخصبة.

والذي يمنع من أن يُحقق الشيطان تلاعبه هو وقاية الله وعونه للعبد، وذلك يتناسب مع مدى تمسك العبد بكتاب الله وتطبيقه للشريعة. والعكس صحيح، كما في حال هؤلاء المشركين إذ سجدوا لأنهم صدَّقوا أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) مدح أصنامهم لأنهم كانوا يرغبون بشدة في قبوله بهن منذ أمدٍ، فلم يقِ الله المشركين تلاعب الشيطان بهم إذ إنهم لا يتمسكون بكتابه، فكان إضلالًا لهم أكثر ولم يحِل الله من وقوع ذلك.

فمن المعلوم أنه لا يحدث شيء في ملك الله إلا بعلم وبإذن من الله مهما صَغُر، ووقوع الأذى أو المكروه لا يأتي من الله -إلا في صيغة العقاب على الأعمال-، بل يأتي من المخلوقات على

---

[1] صحيح البخاري 1897.

بعضهم. ولكن لا يمنع الله ذلك ليكون حُجةً بيّنة على الظالم يوم الحساب، وتكفيرًا لذنوب المظلوم، ولكن قد يمنعها في حالة أنه يُدافع عن عبدٍ مؤمنٍ من داهية أو مظلمة مُهلكة مثلًا. فكون أن الله لم يمنع الشيطان من النيل بهؤلاء يعني أنه لا يبالي إذا ازدادوا ضلالًا!

فالحرص كل الحرص من أن يكون أحدنا من تلك الفرقة التي لا يبالي بهم الله، وقد يكون أحدنا منها في حال الإكثار من المعاصي، لأن المعاصي تؤدي إلى النفاق وقسوة القلب وترك شرع الله. فيجب أن نتقي الله، لأن الانتقال إلى تلك الفرقة شيء يدعو للذعر من الإهواء في الضلال، ويذر الله العبد أن يتهاوى ولا يُبالي، وكل ذلك والمرء قد لا يُدرك أنه في ضلال في المقام الأول، فأنى يخرج منه؟! فذلك ضلالٌ على ضلال والعياذ بالله.

ويتبين لنا تخلي الله عمَّن أعرض عنه في قوله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللّهِ لاَ يَهْدِيهِمُ اللّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [النحل 104]. ومع أن الآية تتكلم عن الذين كفروا إلا أنها قد يكون لها محمل على المسرفين في المعاصي أيضًا، إذ إن أفعالهم –كثرة عصيان الله– قد تُناقض فكرة إيمانهم بآيات الله، لأنهم إن ءامنوا بها لعملوا بها. آنذاك يقعون في المعصية تلو المعصية وفي الضلال فوق الضلال.

عدم التمكين في الأرض، بل مع تسليط الأمم العاصية والذليلة والكافرة على الأمم الإسلامية العاصية

قال تعالى {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (39) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (40) الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ} [الحج 39–41]، وما أجمل تلك الآيات. إن الله يذكر فيهن فئة من الناس أُخرجوا من ديارهم لأنهم شهدوا أنه لا إله إلا الله، فارتقى قدرهم عند الله، فمكّنهم في الأرض لأنهم آمنوا، وبدى إيمانهم في أنهم ضحّوا من أجله وأصلحوا في أنفسهم.

ثم يأتي السياق التالي عن نصر الله لهم، بأن الله سيقيم العدل بهم في الدنيا، بمحاربة الذين يسعون في إفساد الأرض. السؤال هو، كيف كان حال هؤلاء مع الله؟ بالطبع لم يألفوا المعصية لأن هذا عكس وضعهم، فقد أرادوا أن يتبرأوا من الشرك والذنوب التي ثقلت على نفوسهم لدرجة أن إخراجهم من بيوتهم كان أهون عليهم من تحمل الشرك والمعاصي.

هؤلاء كانت قلوبهم صافية وأرادت التحرر من الباطل، وإلى طريق الحق الذي يؤدي إلى سلام واستقرار وطمأنينة النفس. ولما رأى الله فيهم ذلك وعدهم بالنصر، لأن الله يعلم أنه إذا مكَّنهم في الأرض لأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر. إذًا أين أنا من هؤلاء؟ الأمة الإسلامية في هذا الزمان حالها يُفطر القلب لأنها ليست مُمُكَّنة في الأرض، ويتم الاعتداء على دول إسلامية من الكافرين، وباقي الدول الإسلامية ما بين متجاهلة أو متفرجة أو عاجزة أو حتى مُعينة لغير المسلمين. وبالرغم من هذا فإن المسلمين يعصون الله أكثر وأكثر، وضعفت الأمة بسبب عصيان الله وما زالت لم تتعظ ولم يفِق الأفراد كما ينبغي، ولا أستثني نفسي منهم. هكذا حالنا ولسنا مُمكَّنين في الأرض، فكيف حالنا إن مُكَّنا في الأرض، عندما تُفتح علينا فتن نعيم الدنيا أكثر؟

هل أستحق أن يُمكنني الله في الأرض وأنا أعصيه ولا أُصلح حالي؟ ولماذا يُعينني الله بالتمكين إذا كنت لا أطيعه، ولن أُصلح في الأرض بعد التمكن، ولن يكون هناك فرق في الأرض إذا نُصِرتُ على المعتدين العصاة؟ هل القضية مجرد تبديلٍ للكافرين بمسلمين عُصاة؟ لهذا، فإن من أسباب نصر الله إصلاح النفس والمجتمع، كما قال الله تعالى {إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ} [الرعد 11، جزء من الآية]، وهذا يشمل تغيير حالهم من الأفضل إلى الأسوأ أو من الأسوأ إلى الأفضل، بحسب تغيرهم في أنفسهم.

ولا ينبغي أن يكون المرء سلبيًّا بقوله لنفسه "أنا لن أُحدث فارقًا"، لأن ذلك المبدأ ثغرة في الحصن التي يتسرب خلاله العدو، كما حدث في غزوة أحد عندما تخلى الرماة عن موقعهم بعد أن ظنوا أنهم انتصروا، فانقلبت المعركة لصالح المشركين وطالت أيديهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بالأذى. الحقيقة هي: إذا تخاذل وخان عددٌ كافٍ من الأفراد تتدهور الأمة، فهل الأمة الإسلامية إلا مجموعة أفراد: أنا وأنت وهو؟

فيجب علينا تنفيذ أوامر الله، وهجر المعاصي، والاستعداد ليوم يُمَكِّن الله لنا في الأرض مرة أخرى -كما وعدنا- فنكون جاهزين لإصلاح الأرض. لا يليق أن نحيا كما تحيا المواشي بأن تأكل وتشرب وتتكاثر وتفرّ من المُفترسين وتنتظر الموت، وأكبر ما قد تصله من فائدة في حياتها أنها تُذبح حتى تكون طعامًا لإنسانٍ يُصلح في الأرض. فكل معصية تُحدث ضررًا في الفرد والمجتمع، والكبيرة أضرُّ من الصغيرة، والتكرار أضر من الانقطاع، والمجاهرة أضر بكثير من التستر، فإن الجهر بالمعصية عدوى للناس في حين التستر إرساخ للنفس أن هذا عمل قبيح.

ووجب بيان أن الله يكفي ويحفظ المؤمنين من أعداء الإسلام، وهذا مدلول عليه في عدة آيات مثل {وَلَوْ شَاء اللّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ} [النساء 90]، {وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا} [الأحزاب 25]، {وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً

تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا} [الفتح 20]، وهذا كله يدل على أن الله قد يرفع سبل وقايته علينا. وذلك لأن الأصل هو أن الله يستر على عباده المؤمنين ويدفع الأذى عنهم {أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} [الزمر 36]، فما بالنا عن مصير فيمن يرفع الله عنهم كَنَفه وحمايته؟

وقد جاء في تفسير القرطبي (رحمه الله) لآية سورة النساء: تسليط الله تعالى المشركين على المؤمنين هو بأن يقدرهم على ذلك ويقويهم، إما عقوبة ونقمة عند إذاعة المنكر وظهور المعاصي، وإما ابتلاءً واختبارًا كما قال تعالى {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ} [محمد 31]، وإما تمحيصًا للذنوب كما قال تعالى {وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ} [آل عمران 141] (انتهى). وقال الزمخشري (رحمه الله): أخبر تعالى عن قدرته على ما يشاء أن يفعل، وتسليط الله المشركين على المؤمنين ليس بأمر منه، وإنما هو بإزالة خوف المسلمين من قلوبهم، وتقوية أسباب الجرأة عليهم. والغرض بتسليطهم عليهم أمور ثلاثة، أحدها: تأديبًا لهم وعقوبة لما اجترحوا من الذنوب؛ الثاني: ابتلاءً لصبرهم، واختبارًا لقوة إيمانهم وإخلاصهم، كما قال: (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ) الآية؛ الثالث: لرفع درجاتهم ، وتكثير حسناتهم؛ أو المجموع، وهو أقرب للصواب[1].

وقد جاء ذلك صراحةً في حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا"، فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ "بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ الْوَهْنَ" فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ "حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ"[2] (تَدَاعَى أي تجتمع؛ قَصْعَتِهَا هو إناء فيه طعام؛ كَغُثَاءِ السَّيْلِ أي ما يحمله السيل من زبد ووسخ). فحين ينزع الله الخوف وهيبتنا من قلوب أعدائنا تسلطوا واعتدوا علينا وطمعوا فينا وفيما نمتلكه، بعد أن كانوا يترصدوننا ويتربصون بنا.

وهذا يقع عندما يهين علينا دين الله فنُسرف في المعاصي، فنهين على الله ويتركنا لأعدائنا يفعلون بنا ما شاءوا. وتفاصيل حدوث ذلك هي أنه عندما نُسرف في المعاصي ننشغل بتحصيلها ونركن إلى ترف الدنيا ونعتاد الرفاهية والترف، ويرى أعداؤنا تثبتنا بالشهوات كالأنعام وتهاوننا عن مبادئنا وقِيَمِنا، فتذهب هيبتنا من قلوبهم، إذ يُلاحظون أننا نتخلف عنهم في الفكر والعلم والتطور التكنولوجي، بل وننظر إليهم بنظرة تعظيم وتعزيز، فما المانع من السيطرة علينا وغزونا؟

ويتساءل كثيرٌ من المسلمين كيف نرى ما نراه الآن، أن حالنا في ضعف في حين المشركون أقوياء وفي نعيم. الإجابة تتلخص في أمرين، أولهما أن ما فيه المشركون من قوة ونعيم إنما ذلك

[1] تفسير البحر المحيط لابن حيان الأندلسي 3/317-318.

[2] سنن أبي داود 3745.

استدراج الله من ليُكثروا من المعاصي حتى يتراكم عليهم الحمل يوم القيامة، إضافة إلى تعجيل لهم أجر حسناتهم في الدنيا، كما في قول الله {وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (33) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِؤُونَ (34) وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ} [الزخرف 33-35].

والأمر الثاني أن كثيرًا من المسلمين في هذا الزمن تسول له نفسه أنه قد سَلِم ونجى لأنه نطق الشهادة، وأن له الحسنى عند الله في الآخرة، فتقاعس عن العمل بدينه. بل ومنهم من استكبر لأنه يعلم أنه أفضل ممن لم يؤمن، فتَقَاعس عن العمل لدنياه، فمع تواكله على كلا المبدأين ترك العمل، بل وأقبل على الشهوات ولو بمعصية الله. وهذا المنهج التفكيري يستحق تعجيل العقاب وليس تأجيله، لأنه علم الحق ولم يعمل به، فكان أحق بالذُل ممن لم يعلم. وذلك بأنه أسلم وعصى ربه، فاستحق الذل كما أذل نفسه بترك عزّة تفعيل العلم وعزة الالتزام بأحكام الإسلام.

ووضع مثل هذا الشخص يكاد يتطابق مع من قال الله فيهم {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [فصلت 17]، فقد حقق الأولى -استحباب العمى على الهدى من العبد-، فما الذي يمنع من تحقيق الثانية: نزول العذاب الهون من الله؟ ومن ثمَّ، ذلك يعني أن المسلم إذا خذل دينه وسعى في الدنيا فإن الله لن يعطيه العلو فيها، لأن الله لا يُبارك له عقابًا منه، بل وربما يُهلكه. أما الكافر فإنه إذا سعى لدنياه فإن الله يعطيه إياها بوفرة، لأنه لم يقبل العلم والإيمان في الأصل فليس له في الآخرة نصيبٌ.

ثُم اعلم أخي أنك خيط من خيوط شبكة الإسلام، حلقة من سلسلة متشابكة، فإنك عندما تكثر من المعاصي تُصبح حلقة ضعيفة أو خيط مقطوع، فيُتسلل لهذا الدين من أعدائه من قبلك وغيرك ممن أكثروا المعاصي. وقطع في خيط واحد للشبكة أو ضعف في حلقة من سلسلة مترابطة قد لا ينتج منه ضرر ملحوظ، ولكن عندما تكثر الحلقات الضعيفة والخيوط المقطوعة فحينئذ تنكسر السلسلة عند تعرضها لحملٍ، وتتلاشى الشبكة حين تصُد الأسماك أو تحملهم.

فكي تكون مانع صد تجاه أعداء الإسلام، وتكون درعًا من دروع الإسلام ضدهم، يحتاج هذا إلى استعداد، والاستعداد يكون بتعلم العقيدة وفِقه الإسلام مع تطبيق ما تعلمه المرء، بتنفيذ الأوامر وترك النواهي. فإن لم نفعل ذلك سرنا في نفس الدرب الذي سلكه بنو إسرائيل إلى أن نصبح مثلهم، ودربهم وضَّحه لنا سيدنا حذيفة بن اليمان (رضي الله عنه) عندما سُئل: فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ تَرَكَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ دِينَهُمْ؟ قَال: لا، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أُمِرُوا بِشَيْءٍ تَرَكُوهُ، وَإِذَا نُهُوا عَنْ شَيْءٍ رَكِبُوهُ، حَتَّى انْسَلَخُوا مِنْ دِينِهِمْ كَمَا يَنْسَلِخُ الرَّجُلُ مِنْ قَمِيصِهِ[1].

---

[1] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للأصبهاني 279/1.

وهذا ما نبَّهنا به سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) قائلًا "كُلُّ رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى ثَغْرَةٍ مِنْ ثُغَرِ الإِسْلامِ، اللَّهَ لا يُؤْتَى الإِسْلامُ مِنْ قِبَلِكَ"[1] (قِبَلِكَ أي جهتك أو ناحيتك). وقد أدرك هذا الصحابة (رضي الله عنهم)، فيُروى أنه كان زيد بن الخطاب (رضي الله عنه) يحمل راية المسلمين يوم اليمامة، وقد انكشف المسلمون حتى ظهرت حنيفة (أي أصبحت لهم اليد العلوى في الحرب، وهم القوم الذين نصروا مسيلمة الكذاب فقاتلهم المسلمون) على الرجال، فجعل زيد بن الخطاب يقول: أَمَّا الرِّجَالُ فَلا رِجَالَ، وَأَمَّا الرِّجَالُ فَلا رِجَالَ؛ ثُمَّ جَعَلَ يَصِيحُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِنْ فِرَارِ أَصْحَابِي، وَأَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ مُسَيْلِمَةُ وَمُحْكَمُ بْنُ الطُّفَيْلِ؛ وَجَعَلَ يَشُدُّ بِالرَّايَةِ يَتَقَدَّمُ بِهَا فِي نَحْرِ الْعَدُوِّ، ثُمَّ ضَارَبَ بِسَيْفِهِ حَتَّى قُتِلَ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ، وَوَقَعَتِ الرَّايَةُ، فَأَخَذَهَا سَالِمٌ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ، فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: يَا سَالِمُ، إِنَّا نَخَافُ أَنْ نُؤْتَى مِنْ قِبَلِكَ! (أي نخاف أن ننهزم بسببك أو أن يخترقنا العدو من خلالك) فَقَالَ: بِئْسَ حَامِلُ الْقُرْآنِ أَنَا إِنْ أُتِيتُمْ مِنْ قِبَلِي![2].

وفي ذلك دلالة على أن حامل القرآن يحمل على عاتقه أمانة كبيرة، وأنه لا تؤتى الأمة الإسلامية –أي لا تُخترق– من مواضع العلماء الصادقين والمُتقين، إنما تؤتى من قِبَل المُعاندين عن تطبيق الشرع، والمُقصِّرين في تطبيق الشرع، والمسرفين في المعاصي. وليس كل مدافعٍ عن ثغرته يُشترط أن يكون يحمل السلاح كما في القصة المذكورة، إنما كل من يُقاوم الغزو الإلحادي –سواء بالسلاح أم بالفكر– يكون مدافعًا عن ثغرته. وذلك بأن يستقيم على المنهج الإسلامي فيكون ثابتًا على ثغرته لا يتتعتع عنها، مثل الفقيه الذي لا يُفَصِّل فتواه لغرض من أغراض الدنيا، أو ليُرضي سلطانًا يتبدل كل حين، فيكون حصنًا حصينًا للإسلام، وجزاه الله وأمثاله عن الأمة الإسلامية كل الخير.

فليس كل أعداء الإسلام يهاجمون بالسلاح، فالمنافقون مثلًا لا يحملون سلاحًا، ولكن سلاحهم ألسنتهم بإفشاء الفِتن والريبة في الدين، وإفشاء الشائعات والكذب في المجتمع، وإيصال أسرار الأمة إلى أعدائها، وإحداث الثغرات في الأمة من قِبَلِ العصاة من المسلمين. غايتهم أن يتسلل لهذا الدين كل من يكرهه ويريد القضاء عليه، حتى يكون لهم مُطلق الحرية في التصرف دون ضوابط، ويستطيعوا الاستعلاء في الدنيا بمتاعها. فإن أوتي هذا الدين من قِبَلي فحينئذٍ أكون من ضمن الناس الذين تسببوا بضياع هذا الدين عبر الزمن بعد عمره الطويل، الدين الذي أقامه وحافظ عليه من هو أوفى وأكثر كفاءة مني. فأي عار هذا، وأي حمل هذا في الدنيا والآخرة؟

وجاء عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إِذَا ظَهَرَتْ الْمَعَاصِي فِي أُمَّتِي عَمَّهُمْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ". فقالت السيدة عائشة (رضي الله عنها): يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمَا فِيهِمْ يَوْمَئِذٍ أُنَاسٌ

[1] السنة للمروزي 13/1؛ من مراسيل يزيد بن مرثد وإسناده حسن.

[2] المستدرك على الصحيحين لأبي عبد الله النيسابوري 245/4.

صَالِحُونَ؟ قَالَ "بَلَى"، قَالَتْ: فَكَيْفَ يَصْنَعُ أُولَئِكَ؟ قَالَ "يُصِيبُهُمْ مَا أَصَابَ النَّاسَ، ثُمَّ يَصِيرُونَ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ"[1]. والعذاب العام الذي ينزل على الأمة يكون في أحد ثلاثة أصناف: عذاب من خارج الأمة، عذاب من داخل الأمة، أو عذاب من الله مباشرة (مثل الزلازل أو الطفيليات)؛ وقد ينزل على الأمة فقط صنف واحد أو أكثر من صنف والعياذ بالله. أما العذاب من خارج الأمة يكون بتسليط الأمم غير المسلمة علينا، لما يرون فينا من هونٍ وضعفٍ.

وأما العذاب من داخل الأمة فيحدث بصعود أو استيلاء أناس ظالمين، يجهلون شرع الله أو لا يُوَقِّرون الله، إلى السلطة فيصبحوا حُكَّامًا يستخِفّون بسفك دماء رعيتهم، ويستضعفون طائفة منهم يهينونهم ويعذبونهم، ويستحيون النساء، ويخرجونهم من ديارهم، ويستبيحون أموالهم ومما بين أيديهم، ويحمون أو يصطفون مع القَويّ المُفسد في حين يتكالبون على الضعيف. هذا كله مؤسس على قناعة أحدهم الوهمية أنه أولى وأجدر بالحُكم من غيره، وعندما يصل إلى السلطة يرى أن الرَعِيَّة عالة وعبء عليه -أي أنه يتفضل على رعيته بأن يدير شؤونهم-. ومن ثمَّ، يستحقر رعيته بدلًا من أن يُدرك أن عليه الوفاء بحقوقهم وحُسن خدمتهم حتى ينجو في الآخرة من المُساءلة على مدى حفاظه للرعية.

محور القضية هو أن الله يُذيق المسلمين بأس بعض، وهذا من عقاب الله للأمة جزاءً من جنس العمل كما حذَّر {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ} [الأنعام 65]. وقد وصف الرسول (صلى الله عليه وسلم) حال الحاكم الفاسق تجاه رعيته بلفظٍ فائق الدقة، وغني بالمقاصد، ومُلِمّا للوقائع، قائلًا "فَيَسْتَبِيح بَيْضَتهمْ"[2]، أي يستحل أخذ لنفسه ما هو في الحقيقة مُحرمٌ عليه، من جماعتهم وأصلهم؛ والبيضة أيضًا العِزّ وَالْمُلْك.

وذلك من شدة هوان عامة المسلمين على الله إذ لا يقيمون دينه، وعقابًا لهم حتى جعلهم الله أذلة ليس عند فقط من هو كافر، بل ومن بني جلدتهم سواء كانوا مسلمين أم منافقين. فيتولى عليهم جبَّارهم فيظلمهم ويُهينهم، ومنافقوهم فيطعنون في الدين، وسفيههم فيقودهم إلى الضياع، ومُفسِدوهم فينشرون الفاحشة. ويشيع ذلك بين الدول إذ إن عامة المسلمين قد ابتعدوا عن دين الله، وهي علامة من علامات اقتراب الساعة كما نبأنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) في حديث له (ضعيف الإسناد) "لن تقومَ السَّاعةُ حتَّى يَسودَ كلَّ قبيلةٍ مُنافِقوها"[3].

---

[1] مسند أحمد 25382.

[2] صحيح مسلم 5144.

[3] ضعيف الجامع للألباني 4779، وقال عنه: ضعيف جدًّا.

ويبقى ذكر العذاب الذي هو من الله مباشرةً، ويكون في صيغة ظهور أمراض جديدة، أو اجتياح موجات من الطفيليات، أو تقلبات مَناخية أو زلازل، أو انحدار اخلاقيات المجتمع أو والعياذ بالله ينزل عذابًا مثل ما أصاب قوم نوح وهود وصالح وشعيب، فيمحو قريةً أو مدينة أو دولةً أو حتى دُول، وما ذلك منا ببعيد. ولن يكون ذلك على الله بعزيز إذ خالفنا أمره، فقد رأينا ما سُمِّيَ "تسونامي" في هذا القرن –وهو زلزالٌ في البحر لحقه إعصارٌ وأمواجٌ طائلة، اجتاحت الدول وأصابت تايلاند والهند وإندونيسيا وماليزيا وجزر المالديف وسيشل والصومال وسريلانكا، فأهلكت نحو 225000 شخصًا–، أصابت دُول منها إسلامية في دُفعة واحدة.

ويبقى السؤال: كيف يتوقع أقوام أن ينصرهم الله على أعدائهم وهم لم ينصروه بتفعيل دينه في الأرض، بل وعصوه؟ فأين المسلمون من قول الله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ} [محمد 7]؟ وللمعصية تصدعات أوغل مما يتخيله المرء، فكما ذكرنا يتأثر المجتمع بالمعاصي؛ فإن كثرت ضعفت الأمة، وإن قلّت قويت الأمة.

عدم استجابة الله لدعاء واستغاثات العاصي

إن العاصي قد يحيط نفسه بالحرام ويُعَشِّشَ فيه حتى إن الله يُعرض عنه، بل ويبغضه، ومتى ما حدث هذا فإن الله لن ينظر إلى ذاك العاصي ولا يكترث لأمره، فأي ضياع بعد هذا؟ ومن تبعات إعراض الله عنه أنه لا يُقبل دعاؤه ولو كان مستغيثًا، فهل يعقل أن الله يكون قريبًا ممن يصر على معصيته ودائمًا يُغضبه تعالى؟ وذلك كما نبأنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) به قائلًا "أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إلا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ}، وَقَالَ {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ}"، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ، يَا رَبِّ؛ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ[1] (أَشْعَثَ أي شعره غير مُمَشّط، وهي إشارة إلى طول السفر وما مر به من مشقّة).

هكذا حال العاصي الذي تمادى في العصيان، فقد أخرج نفسه من نطاق رضا الله وحفظه. وهذا حال الإنسان إذا ترك زمام نفسه، ينسى ربه عند الرخاء، فإذا أصابته مصيبة جزع ودعا الله مخلصًا له، راغبًا في قبول دعائه بنية أنه إذا خرج من المأزق سيكون من الصالحين.

وإن من الناس من لا ينسى الله فحسب، بل إنه ليأكل ويشرب ويلبس حرامًا، ويتقرب إلى الله بالدعاء والإنابة فقط عند الحاجة أو الكرب، وإن فُرِّج عنه رجع للمعاصي ولم يتّعظ. فمَثَلُ هذا كمثل

---

[1] صحيح مسلم 1686.

الذي جاء في كتاب الله عز وجل {وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [يونس 12]، {وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاء عَرِيضٍ} [فصّلت 51].

فأنى أن يستجاب لرجل نما جسده من الحرام وعثا قلبه في الحرام؟ أعدلٌ وحقٌ هذا؟ فلمَ المعصية؟ فلا يجب أن أبتعد عن الصراط المستقيم إن أردت الفوز برضا الله، فإنه لا يمكن بحال من الأحوال التقرب إلى الحق (الله) بالباطل (المعاصي). فيجب أن أجتهد للقاء الله في جسد ترعرع مما أحلَّه الله من نعمه، وذلك يأتي بالتحري عما سأفعله مع الالتزام بشرع الله، فأكون تحت غطاء رضا الله بالأعمال الصالحة.

العاصي يكون مستمتعًا في الدنيا مُرفَّها، ولكن إن اختار طريق الحرام والشهوات ومتاع الدنيا فليُحاول ألا يتعثر في دنيته ولا ينكسر ولا يسقط، لأنه إذا حدث ذلك فلن يجد ربه ليخرجه من المأزق، وسيكون قد خسر الدنيا أيضًا بعد أن خسر آخرته لشراء الدنيا، إلا أن يرأف الله به فيُنَجِّيه ليعطيه فرصة ثانية للرجوع إلى الحق والتقوى. ولكن احتمالية أن يكون ذلك استدراجًا واردٌ أيضًا. فإن لم يرجع بعد مثل تلك الفُرَص سيكون مثل من قال فيهم الله {وَلَقَدْ أَرْسَلنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (42) فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَـكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (43) فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ} [الأنعام 42-44].

وأبرز موضع يقع فيه الإنسان، بأن ينسى ربه ويبتعد عنه في الرخاء ولكن يتضرع إلى الله في أثناء الشدة، هو ما بين إسرافه في حياته والتضرع والإنابة عندما يحين الموت. هذا ما وقع فيه فرعون مثلًا {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِـهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90) آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} [يونس 90-91]. والأدلة على ذلك كثيرة، ففي أحد أوجه معنى {بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ} [القيامة 5]، جاء في تفسير ابن كثير: عن ابن عباس (رضي الله عنهما): يعني الأمل، يقول الإنسان: أعمل ثم أتوب قبل يوم القيامة؛ ورُوي عن عكرمة وسعيد بن جبير والضحاك والسدي وغير واحد من السلف: هو الذي يُعّجل الذنوب ويُسوِّف التوبة.

وفي تفسير القرطبي جاء عن الضحَّاك: هو الأمل يقول: سوف أعيش وأصيب من الدنيا؛ ولا يذكر الموت. وفي صحيح البخاري (رحمه الله): وقال ابن عبَّاس (لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ): سَوْفَ أَتُوبُ، سَوْفَ أَعْمَلُ[1]. ولكن أنى التوبة والعمل عندما يأتي الموت، إذ إن الإنسان يُلهى ويتمادى ويُأمِّل نفسه حتى

[1] صحيح البخاري، كتاب: تفسير القرآن، باب: وَقَوْلُهُ {لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ}.

ينساهما، ويتذكرهما عند الموت فيكون فيمن شملهم قول الله تعالى {وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} [النساء 18]. حينئذ يكون قد وقع في نفس الفخ الذي وقع فيه الذين كفروا في قول الله تعالى {ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} [الحجر 3]، وقال المفسرون في "وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ" إنه يشغلهم الأمل في طول العمر عن أن يأخذو بالإيمان.

والفرق بين فجور الكافر والمسلم هو أن الكافر يلهيه الأمل في التمتع بالدنيا عن الإيمان جُملة، أما المسلم فيلهيه الأمل في التمتع بالدنيا عن العمل الصالح والتوبة، فيؤجل العمل الصالح ويُسوِّف التوبة. أما من الأحاديث التي فيها أمثلة وعظات لنا، فهناك ما يرويه بُسْرِ بن جَحَّاشٍ الْقُرَشِيِّ قال: بَزَقَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي كَفِّهِ ثُمَّ وَضَعَ أُصْبُعَهُ السَّبَّابَةَ وَقَالَ "يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَّى تُعْجِزُنِي ابْنَ آدَمَ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ، فَإِذَا بَلَغَتْ نَفْسُكَ هَذِهِ (وَأَشَارَ إِلَى حَلْقِهِ) قُلْتَ: أَتَصَدَّقُ؛ وَأَنَّى أَوَانُ الصَّدَقَةِ"[1]. وجاء أيضًا عن النبي (صلى الله عليه وسلم) "اطَّلَعْتُ فِي الْجَنَّةِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الْفُقَرَاءَ، وَاطَّلَعْتُ فِي النَّارِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ"[2]، ففيه دلالة على أن الذي في الرخاء يتلهى عن العمل بما أن أكثر أهل الجنة الفقراء، وفيه إشارة إلى أن أغلب الأغنياء يبتعدون عن الله لأن المال يشغلهم عن ربهم.

إن الدنيا تستدرج المرء بأن تطيل الأمل في النيل منها، وهذا يلهو المرء عن التركيز في هدفه الأساسي وهو عبادة الله، وأوعانا سيدنا علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) قائلًا: ارْتَحَلَتْ الدُّنْيَا مُدْبِرَةً، وَارْتَحَلَتْ الآخِرَةُ مُقْبِلَةً، وَلِكُلٍّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا بَنُونَ، فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الآخِرَةِ وَلا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلا حِسَابَ، وَغَدًا حِسَابٌ وَلا عَمَلٌ[3]. وقد كان (رضي الله عنه) يشتد خوفه من صفتين فيقول واعظًا: إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ: اِتِّبَاع الْهَوَى وَطُول الأَمَل، فَأَمَّا اِتِّبَاع الْهَوَى فَيَصُدّ عَنْ الْحَقّ، وَأَمَّا طُول الأَمَل فَيُنْسِي الآخِرَة[4].

والواقع هو أنه إذا أيقن أحد أنه سيموت، ترك كل ما كان عليه من المعاصي وتاب، مهما كانت تطلبه الدنيا ومهما كثرت عليه التزاماته، بعدما كان يستخدم لوازم الحياة وارتباطات الدنيا كعذر للتأخر عن العمل الصالح، مثل لجمع المال، بل وربما لفعل الحرام. وفي نفس الوقت يشرع في إصلاح نفسه وفعل من الطاعات ما لم يكن يفعله، ويدعو الله ويطلب منه العفو، فما ظننا فيمن لا يستجيب الله له في هذا الموضع؟

---

[1] سنن ابن ماجه 2698.

[2] صحيح البخاري 3002.

[3] صحيح البخاري، باب: في الأمل وطوله.

[4] فتح الباري بشرح صحيح البخاري، أخذًا من كتاب المُصَنَّف لابن أبي شيبة.

وأريد أن أشير إلى نقطة أخرى، وهي التضرع إلى الله بعد أن يتوفى صديق أو قريب، فلله ما أخذ وما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى كما علّمنا النبي (صلى الله عليه وسلم)، ولكن يُصدم الناس خصوصًا لو كان صغيرًا أو صحيحًا، والسؤال هو لماذا يُصدمون؟ يُصدمون لأن الحقيقة تصدمهم، حقيقة أن الموت ليس له قاعدة ثابتة أو معتمدة، وأنه أقرب لهم مما يظنون، يأتي على من يشاء الله كيف يشاء ومتى يشاء بحكمته، وأن الموت هو الحق.

ومن طبيعة الإنسان أنه يُصدم عندما يواجَه بالحقيقة التي كان يغفل عنها، فالدنيا مظالم والموت حق. فمن كان في الدنيا وأصابته حادثة كادت أن تودي بحياته، أي تعرض هو للموت، أو تعرَّض له الموت بأن يسمع عن قريب له قد مات مثلًا، فهذه لحظة إفاقة من سراب الدنيا، والرد إلى الواقع، وهو أن كل حياتنا إنما هي مشوار ومرحلة انتقالية. وبما أن ليس هناك قاعدة للموت، فإنه يربك تخطيطات كثير من الناس لأنهم يعتمدون على أن الموت يأتيهم في آخر عمرهم، فليس للموت مكان في حسابهم إلا في آخرها، فوقوعها لأحدٍ فجأة يكون كسرًا لقواعدهم وترتيباتهم ويردّهم إلى أرض الواقع، فيتصادم الواقع الفعلي مع الواقع الذي يتخيلوه واعتادوه، وأسَّسوا عليه عيشتهم.

فمن يعبر الموت بجواره تراوده أسئلة لنفسه مثل "ماذا لو حدث ذلك لي؟" و"هل أنا مستعد؟" و"متى سأُحسن من أعمالي؟"، وهذه أسئلة صعبة على النفس لأن الإجابة عادة لا تكون مُرضية لمن يصدق مع نفسه. وكلما بَعُد الإنسان عن الحق كبرت صدمته بالموت، لأنه يدرك مدى خطورة موقفه، أن الحق ليس ببعيد من النيل منه، فيفزع. كلنا ندرك أننا سنموت، فلماذا الصدمة والموت ليس له قواعد يُتنبأ بها، فإنه قد يأتي للصغير قبل العجوز، وللعفيّ قبل المريض، ولغير المستعد قبل المستعد! ما مدى تصدي الأعذار عن إصلاح النفس أمام الموت؟ فلماذا التباطؤ في تحسين أعمالي من الآن؟

لماذا لا أتّعظ بمن مات أنه قد خُتمت له أعماله وقد فات أوانه في لحظات، وسأدرك ذلك أيضًا عندما أموت أن حياتي لم تكن إلا لحظات. وكما نبأنا الله في كتابه {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ} [الروم 55]، والعجيب أنهم يُقسمون على ذلك، أي أنهم يشعرون بذلك فعلًا. قد يكونون يكذبون كعذر أنهم لم يُمَهَّلوا، ولكن يحتمل أن ذلك شعورهم بحق لما رأوا من قصر عمرهم بالنسبة إلى طول بقائهم في عذاب القبر، وانتظار الحساب يوم القيامة، بما أنهم يقضون يوم القيامة كخمسين ألف سنة. فعلًا، ما حياة الإنسان –وإن عاش ألف عامٍ– بجانب عُمر الكون؟ وما يزيد من ذلك الشعور هو أنهم أسرفوا وانشغلوا في الدنيا، فخدعتهم ومر الوقت دون أن يشعروا بحياتهم إلا كلحظات، لأن لحظات المتعة تبدو سريعة للإنسان في حين لحظات المشقة تبدو طويلة.

وإذا أمعنَّا التفكير في هذا، نرى من الناحية الحسابية أن المقارنة بين زمن الدنيا بزمن الآخرة الأبدي يجعل نسبة الحياة الدنيا إلى الآخرة لا شيء يُذكر (تكون النسبة لا نهائية لأن الآخرة لا نهائية). ومع هذا، يترتب مصير المرء في الآخرة على عمله في الدنيا، فأي عاقل يعصي ربه في هذه اللحظات الحَرِجة؟! فالواجب الاستعداد كي لا أُفاجأ عندما يأتي أمر الله فيَّ، ولا أكون من الذين أتاهم الموت بغتة وهم لاهون، فأكون ممن قال الله عنهم {اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مَّعْرِضُونَ} [الأنبياء 1].

والمخجل أكثر إذا كنت أنصلح فقط عندما يموت لي قريب، ثم بعد مرور بعضٍ من الزمن أرجع لما كنت عليه سابقًا، فإنها لسفاهة للأسف. أولا أُدرك أنما لي رقم تسلسلي في الموت، ويُنادى على من قبلي ودوري قادمٌ قريبًا؟ فالذي جاء دوره كان يقول لنفسه تمامًا مثل ما أقوله لنفسي الآن، ما زال أمامي بعض الوقت قبل أن يأتي دوري، وقد جاء دوره! وما بال أُناس إذا ذُكّروا بالموت استعاذوا منه كأنه مصيبة يُمكن تفاديه أو تجاهله، وأنه منهم ببعيد، أو يقولوا لمَ التكلم عن هذا الموضوع، كأن الموت هو الخيال وأن الآمال هي الواقع.

ويقول البعض الآخر لماذا التشاؤم، ويكأن الموت يُمكن أن يؤجل حتى يكونوا هم مستعدين، أي بعدما يقضون شهواتهم كما ينبغي لكل مرحلة من العمر ثم يتوبون ويعملون صالحًا عند الهرم، ثم يأذنون له. ومن شدة ما أصابهم من غرور يرون أنه شبه المستحيل أن يأتيهم بغتةً فعليًا، اعتمادًا على الناحية الإحصائية مثلًا أنه يكون في المُسنين أكثر. لكن... الموت أمرٌ شخصي، إذا جاءني الآن لن تفيدني ولن تفرق معي الإحصائيات عمَّن يُصاب به أكثر.

فالحمد لله الذي هدانا لنعمة الإسلام وجعل لنا عقلًا نميز به، فإما طريق الحكمة وإما طريق السفاهة، فلماذا نرفض التصرف الحكيم ونُعرّض أنفسنا للحساب دون الاستعداد بالعمل، من منطلق أننا لم نتوقع الموت؟ فذلك مثل الذي يُسافر دون زاد ولا متاع ولا دابة، فما بالنا كم سيعاني، والآخرة أشد وأعظم. ونسيان الموت والغفلة عنه هو إخمادٌ للضمير، ويمكن للمرء أن يجازف بأي شيء وهناك احتمال أن يتعافى من ذلك إن أخفق، ولكن من الذي يخاطر بالجنة أو النار؟ فإن جازفت بمالي كله فربما أجمع غيره، وإن جازفت بصحتي فممكن أن أتعافى. ولكن من الذي يُجازف بمصيره في الآخرة، الذي هو أعظم قضية تمس الإنسان، وله محاولة وحيدة فيها، لا مجال لتعديلها أو تكرارها؟

فالمجازفة بأي شيء أهون من المجازفة بالمصير في الآخرة، وتجنب المجازفة به يكون ببدء العمل الصالح من الآن، فمصير الإنسان الأبدي لا يحتمل المجازفة، لأن السؤال الذي لا إجابة مُرضية له ويُعاود مواجهة المرء: ماذا لو أخفقت بعد المجازفة، ما خط الأمان بعد ذلك؟ والحل المثالي هو ما دلنا عليه رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، أن نكثر من ذكر هاذم اللذات: الموت، لأن كثرة

التذكر تُطفئ الشهوات وتُقوي الهمَّة على تقوى الله. إضافةً، فإن ذكر الموت يرُدّ الإنسان إلى الواقع باستمرار كي لا تسحره زينة الدنيا التي تجعل العاقل يتصّرف كالمجنون، وتجعل الإنسان حسن الخلق يتصرّف بغير طبعه، فيصدر منه من التصرفات التي لا تُتوقع منه وليست من شيماته. هذا كله لكي عندما تأتي لحظة موت أحدنا ويظل يدعو الله بالعون واليُسر والسلامة والعفو، يكون مُستعدًّا بعض الشيء وله بعض الرصيد عند الله، فيجد ربه قريبًا مُجيبًا {وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} [الأعراف 56].

ذلة في النفس، ويُصبح العبد هينًا على الله وعلى الناس والحيوانات والجمادات

قال تعالى {وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ} [البقرة 61، جزء من الآية]. هذه الآية دليل على أن القانون الإلهي هو أن من يعصيه تعالى تُصيبه الذلة والمسكنة والغضب من الله. وتلك الذلة تأتيهم من أي جهة، إما من الله وإما من رسوله (صلى الله عليه وسلم) وإما من الناس وإما حتى من أقرب الناس إليهم: آبائهم وأزواجهم وأبنائهم.

جاء في القرآن {إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ} [آل عمران 155]. مثل هذه المواقف تحدث مع العصاة، فإن الشيطان يستزلهم بسيئاتهم –أي يُذكرهم بها فيخافون أن يُقتلوا على حالهم– ويُذلهم بها، بأن يؤنبهم بها فتكون عليهم عبئًا، فيجعلهم يفعلون ما لا يبغون لأنهم منكسرو النفوس بأنين ضميرهم. فإنه يذكرهم بها ليكسر شوكتهم عندما يريد، وعادة ما تكون في أحرج المواقف للإنسان، التي يحتاج فيها القوة والعزيمة للإقبال على عملٍ صالحٍ شاقٍ، أو للابتعاد عن فتنة تهواها النفس بشدة.

إنها خطة ذكية وخبيثة من الشيطان، فهو يُسوّل للإنسان عمل المعاصي ويُزين له المعصية، ثم عندما يأتي وقت العمل الصالح يظل يقول له مثلًا: ما فائدة هذا أمام معاصيك التي ارتكبتها. وفي حال هذه الآية لعله يقول لهم: أتقاتل وقد تُقتل وأنت فعلت كذا وكذا من المعاصي فتلاقي ربك بهن، ارجع (عن القتال) ثم تب حتى تلقى ربك وأنت منصلح في المرة القادمة. وعلى هذا الأساس يجب أن نُقيّم أنفسنا، فيجب أن أسأل نفسي: هل أنا مستعد للموت حقيقةً إذا حان الوقت؟ فإذا كانت الإجابة "لا"، غالبًا ما يكون ذلك لأني أقول لنفسي لا أريد أن أموت وألقى ربي وأنا عاصٍ، بل أريد أن أتوب وأكون صالحًا وأموت على ذلك.

أيحسب المرء وهو يسبح في المعاصي أنه عندما يحين موعد الجهاد أن نفسه ستطيعه في الخروج؟ من أين لها طاعته وقد عصت رب العباد؟ أنى ستطيعه في الجهاد وهو لم يستطع ترويضها

في الرخاء؟ فكذلك يكون حال العاصي، وبحسب عصيانه يكون خوفه من الموت، والمعصية كثيرًا ما تجر وراءها معصية أُخرى، وفي هذه الحالة فإنها تجر التقاعس عن الدفاع عن الإسلام ومخالفة أمر عظيم من أوامر الله.

وعندما يذل الشيطان الإنسان عن مقاتلة العدو بهذه الخطة الذي وضعها، فقد وصل الشيطان إلى غايته، وبقي أن يستدرجه إلى اليأس من رحمة الله، ثم يشرع في استدراجه إلى الكفر. فالسؤال هو... لماذا أرضى بهذا الذل إذًا؟ هذا ولله العزة جميعًا سبحانه، فلماذا أتذلل للشيطان؟ لماذا لا أتخلص من العادات التي أعصي الله بها وأتوب إليه؟ من تثَّبت على منهج الله بطاعته، ونصر الناصر القوي الكبير القادر واستعان بالعزيز، رفعه الله ووقاه الذل من المخلوقات.

ومسألة الهوان على الله لا يُستخف بها، لأن لها أهمية أعظم مما نتخيلها، استدلالًا بما قاله الرسول (صلى الله عليه وسلم) في دعاءٍ له، قد اشتكى منها في لحظة شعر فيها أنه مغلوب على أمره وغير مُمَكن في الأرض. تفاصيل الواقعة هي عندما كان يدعو الناس في الطائف فلم يلبثوا إلا أن تهجموا عليه وسلطوا عليه سفهاءهم يَسُبونه ويقذفون عليه الحجارة حتى أخرجوه من الطائف، فلم يجد الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلا الدعاء الذي يظهر فيه مدى معاناته وانكساره وحزنه أن لم يؤمن بكلامه أحد.

حينئذ تضرع إلى الله عز وجل قائلًا (الحديث ضعَّفه الألباني): اللهم إليك أشكو ضَعْف قُوَّتِي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تَكِلُني؟ إلى بعيد يَتَجَهَّمُنِي؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي؛ أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل بي غضبك، أو يحل عليَّ سَخَطُك، لك العُتْبَى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك[1]. فهذا الدعاء دليل على أن هوان العبد على الناس من الأمور التي تُعيق المرء عن تحقيق أهدافه في الدنيا، ويؤدي إلى المشقة التي تؤثر في نفسية الفرد، فلنلزم منهج الله حتى لا نكون هينين عند الله، وتبعيًّا عند الناس أيضًا.

فرُب معصية تجعل الله يُسلِّط على المرء سفيهًا من السفهاء، فيعتدي على شرف وكرامة المرء ظلمًا (إما لفظيًّا وإما جسديًّا) فيُهينه. فإذا حدث هذا مع أحد منا فليلوم معصيته لله. قال ابن القيم (رحمه الله) عن المعصية: إنها تجرئ على العبد ما لم يكن يجترئ عليه من أصناف المخلوقات، فتجترئ عليه الشياطين [الإنس والجن] بالأذى والإغواء والوسوسة والتخويف والتحزين، وإنسائه ما به مصلحته في ذكره، ومضرته في نسيانه، فتجترئ عليه الشياطين حتى تؤزه في معصية الله أزًّا.

---

[1] الرحيق المختوم للمباراكفوري 112. ضعفه الشيخ الألباني في ضعيف الجامع رقم 1182.

وتجترئ عليه شياطين الإنس بما تقدر عليه من الأذى في غيبته وحضوره، ويجترئ عليه أهله وخدمه وأولاده وجيرانه، حتى الحيوان البهيم. وكذلك يجترئ عليه أولياء الأمر بالعقوبة التي إن عدلوا فيها أقاموا عليه حدود الله، وتجترئ عليه نفسه فتتأسد عليه وتصعب عليه، فلو أرادها لخير لم تطاوعه ولم تنقد له، وتسوقه إلى ما فيه هلاكه، شاء أم أبى[1].

فلماذا نُهين ونُذل أنفسنا بالمعاصي؟ ولماذا نفعل ذلك في أنفسنا بدلًا من أن نُنزّهها؟ هذا وقد أعطانا الله خلاصة القضية {قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا} [الشمس 9-10]. إن كثرة المعصية تدل على الاستهانة بحدود الله، وبما أن الجزاء من جنس العمل فهذا يقتضي أن العاصي يهون على الله، فمن أخسر من شخصٍ لا يُلقي ربه له بالًا، والذي هو رب كل شيء، فيُهينه في الدنيا والآخرة؟ فلماذا نجعل أنفسنا هينين عند الله {وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ} [الحج 18، جزء من الآية]؟ وقد أكَّد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على أن من خالف أمره –ومعصية الله نوع من أنواع مخالفة أمر الرسول صلى الله عليه وسلم–، فإن له الذلة والصغار حتمًا "جُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي، وَجُعِلَ الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي"[2].

وفي حديث للرسول الله (صلى الله عليه وسلم) ممتلئ بالعظات والفوائد جاء "يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ، خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ - وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ: لَمْ تَظْهَرْ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلا فَشَا فِيهِمْ الطَّاعُونُ وَالأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلافِهِمْ الَّذِينَ مَضَوْا، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمَئُونَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنْ السَّمَاءِ وَلَوْلا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا، وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ، وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلا جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ"[3]. وفي لفتة جانبية يجب أن نسأل أنفسنا، كم من هذه الظواهر رأيناها مُتحققة في مجتمعنا؟ أفلا يدل ذلك على شيء؟

ولكن ما أردت لفت الانتباه إليه تحديدًا بما يتعلق بهذا الباب من الكتاب هو قوله (صلى الله عليه وسلم) "وَلَوْلا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا"، ما يدل على أن مَن تدنى بالمعاصي لهذه الدرجة من الذلة تُصبح البهائم أعز منه عند الله، ولولا تلك المواشي أن يهلكوا بذنوب ابن آدم لمنع الله المطر. أي أن الشيء الوحيد الذي يجعل الله ألا يمنع المطر هو أنه لا يريد أن يظلم البهائم، إذ قد حرَّم على نفسه الظلم!

---

[1] الجواب الكافي 89.

[2] صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، بَاب مَا قِيلَ فِي الرِّمَاحِ.

[3] سنن ابن ماجه 4009.

وهذا يعني أن الإنسان قد يصل إلى مرحلة من الذل والهوان عند الله إلى درجة أنه يُرزق تبعًا للبهائم (أي من رزق الله للبهائم، فببركتهن يُرزَق!)، ويكأن البهائم هي التي تتوسط له عند الله في رزق الدنيا! فأي إهانة تلك؟! سبحان الله على المدى الذي قد يُذل ابن آدم نفسه، بعدما كرم الله أباه بأمره الملائكة أن تسجد له، بمعصيته الله ومخالفة أوامره، أفلا أتَّعظ وأخشى على نفسي؟! وقال تعالى {وَالَّذِينَ كَسَبُواْ السَّيِّئَاتِ جَزَاء سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [يونس 27]، فهذا دليل آخر قطعي على أن العاصي تصيبه الذلة والصغار، بل وتدل الآية أنه تصيبه ظلمة في الوجه.

فلا يزال المرء يعصي ربه حتى يصل إلى مرحلة الهوان عند الله، وحينئذ يأذن الله بهلاكه بالرغم من كونه مُسلمًا، لأنه عاصٍ لله فليس لله فيه حاجة وليس للعاصي عند الله عهدٌ أن يحميه، فيُهلكه الله ويأتي بقومٍ آخرين، وما ذلك على الله بعزيز. ويكون هلاك العاصي بفتنة خاصة مثلًا، أو إذا عمَّ الفساد فبتسليط أُمَمٍ مشركة أو بجعل المسلمين بأسهم بينهم.

فإنه يُروى عندما فتح المسلمون قُبرُص، قتلوا أعداءً كثيرة وسبوا سبايا كثيرة وغنموا مالًا كثيرًا جدًّا، ولما جيء بالأُسارى جعل أبو الدرداء يبكي، فقال له جبير بن نفير: أَتَبْكِي وَهَذَا يَوْمٌ أَعَزَّ اللَّهُ فِيهِ الإِسْلامَ وَأَهْلَهُ؟ فَقَالَ: وَيْحَكَ! إِنَّ هَذِهِ كَانَتْ أُمَّةً قَاهِرَةً لَهُمْ مُلْكٌ، فَلَمَّا ضَيَّعُوا أَمْرَ اللَّهِ صَيَّرَهُمْ إِلَى مَا تَرَى، سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ السِّبَاءَ، وَإِذَا سُلِّطَ عَلَى قَوْمٍ السِّبَاءُ فَلَيْسَ لِلَّهِ فِيهِمْ حَاجَةٌ، مَا أَهْوَنَ الْعِبَادَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى إِذَا تَرَكُوا أَمْرَهُ![1] (السِّبَاءُ هو السيل الذي يحمل العود من بلد إلى بلد، ولعلها كناية على تسليط الله الفاتحين ليمروا على تلك الدولة، والله أعلم). وفي رواية أخرى جاء أنه قال: يَا جُبَيْرُ، بَيْنَا هَذِهِ الأُمَّةُ قَاهِرَةٌ ظَاهِرَةٌ إِذْ عَصَوُا اللَّهَ، فَلَقُوا مَا تَرَى، مَا أَهْوَنَ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا هُمْ عَصَوْهُ[2].

وهذا فيما يختص بعامة عباد الله، الذين نحن منهم، ولكن ماذا عن من هُم أشرف وأرقى فئة من الناس، أي الأنبياء؟ فهذا سيدنا يونس (عليه السلام) ابتلعه الحوت بسبب أنه ترك القرية غضبًا من أهلها ولم يكن الله أذن له بتركها، فلما تركها دون أن يستأذن من الله كانت عاقبته المشقة وشيئًا من المهانة إذ وقع عليه السهم (القرعة) أن يقفز من المركب، ثم ابتلعه الحوت. وما انكشفت المحنة بخروجه من بطن الحوت إلا بعدما أقر ورجى الله {فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} [الأنبياء 87]؛ {فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (143) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} [الصافات 143-144].

[1] البداية والنهاية لإسماعيل بن كثير 229/10.

[2] سير أعلام النبلاء لمحمد الذهبي 351/2.

فذلك هو القانون الإلهي الذي يسري على الأنبياء، فهم يُعاتَبون من الله على أدق الأشياء إذ إنهم حملة الرسائل وقدوة الناس، فيُضاعف عليهم العبء والبلاء والتمحيص، ويُنشَّأوا على العُلى في التقوى. ويؤكد هذا أكثر أنه بالرغم من أنه عُوقب هذا العقاب الفريد، فإنه ما من أحد -ممن دون مرتبة نبي- أفضل من سيدنا يونس (عليه السلام) عند الله، ولا حتى من الصحابة (رضي الله عنهم)، وهذا مما أكَّد عليه الرسول (صلى الله عليه وسلم) "لَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى"[1].

بل وكذلك هو القانون حتى مع من هو أكرم عند الله من سيدنا يونس (عليه السلام)، وهو سيد الخلق محمد (صلى الله عليه وسلم) وخاتم المرسلين، فقد حذَّر تعالى أنه إذا عدَّل الرسول (صلى الله عليه وسلم) في الرسالة التي أمره الله أن يُبلغها لفُعل به كما جاء {وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (44) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (45) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (46) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ} [الحاقة 44-47]. ولتوضيح المعاني، فإن قوله تعالى "لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ" يعني أنه لعاقبه انتقامًا ولأخذه بالقوة، وقوله تعالى "ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ" بمعنى أنه لقطع عنه العرق الغليظ الذي هو مجرى للدم بين الرئة والقلب، وإذا قُطع يموت المرء لا محالة. فالله حذَّر الرسول (صلى الله عليه وسلم) أنه إذا حاد عن المنهج الموضوع له وتأول على الله فسيُفعل به ذلك.

وربما المغزى من قطع الوتين تحديدًا هو أن المرء يموت سريعًا، حتى إن المرء ليعجز عن الكلام بسبب توقف الرئتين أيضًا فلا يستطيع أن يفتري ولو كلمةً واحدة إضافية على الله، فيكون الجزاء من جنس العمل وعقابًا رادعًا قاطعًا، والله أعلم. فهذا كان وضع الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وما من أحد منا من ليس له وتين، قد يقطعه الله في الفور إن شاء لمن عصى أمره، فإذا كان الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وهو من هو، لم يكن مستثنًى من فِعل ذلك معه، أفليس نحن أكثر عُرضة؟ فهذه لفتة لنا عن مدى غنى الله عنا، فما من عزيز على الله إلى مرحلة أنه مُستثنًى من عذاب الله إذا خالف أمره، ولا حتى الأنبياء، فأنَّى نعصيه إذا؟

وقد أجمل الإمام ابن القيم (رحمه الله) سبب هوان العبد على الله والمخلوقات، فقال عن المعاصي: إنها تضعف في القلب تعظيم الرب جل جلاله، وتضعف وَقَاره في قلب العبد ولا بد، شاء أم أبى، ولو تمكن وقار الله وعظمته في قلب العبد لما تجرأ على معاصيه. وربما اغتر المغتر وقال: إنما يحملني على المعاصي حسن الرجاء وطمعي في عفوه، لا ضعف عظمته في قلبي؛ وهذا من مغالطة النفس، فإن عظمة الله تعالى وجلاله في قلب العبد تقتضي تعظيم حرماته، وتعظيم حرماته يحول بينه وبين الذنوب، والمتجرئون على معاصيه ما قدروا الله حق قدره. وكيف يقدره حق قدره، أو يعظمه

---

[1] صحيح البخاري 3163.

ويكبره، ويرجو وقاره ويجله، من يهون عليه أمره ونهيه؟ هذا من أمحل المحال، وأبين الباطل، وكفى بالعاصي عقوبة أن يضمحل من قلبه تعظيم الله جل جلاله، وتعظيم حرماته، ويهون عليه حقه.

ومن بعض عقوبة هذا: أن يرفع الله عز وجل مهابته من قلوب الخلق، ويهون عليهم، ويستخفون به، كما هان عليه أمره واستخف به. فعلى قدر محبة العبد لله يحبه الناس، وعلى قدر خوفه من الله يخافه الخلق، وعلى قدر تعظيمه لله وحرماته يعظمه الناس. وكيف ينتهك عبد حرمات الله ويطمع أن لا ينتهك الناس حرماته؟ أم كيف يهون عليه حق الله ولا يُهوّنه الله على الناس؟ أم كيف يستخف بمعاصي الله ولا يستخف به الخلق؟

وقد أشار سبحانه إلى هذا في كتابه عند ذكر عقوبات الذنوب، وأنه أركس أربابها بما كسبوا، وغطى على قلوبهم، وطبع عليها بذنوبهم، وأنه نسيهم كما نسوه، وأهانهم كما أهانوا دينه، وضيعهم كما ضيعوا أمره. ولهذا قال تعالى في آية سجود المخلوقات له {وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ} [الحج 18]، فإنهم لما هان عليهم السجود له واستخفوا به ولم يفعلوه، أهانهم الله فلم يكن لهم من مكرم بعد أن أهانهم الله، ومن ذا يكرم من أهانه الله؟ أو يهن من أكرمه الله؟[1] (انتهى)

فكيف يتعجب المرء أن الناس لا يُوقِّرونه وهو لا يُوقِّر نفسه بأن يُنَزِّهها عن المعاصي؟ كيف يتوقع أن الناس تُكرمه في حين هو يُهين نفسه بدسها في مستنقع المعاصي؟ إذا كانت نفسه عنده هو شخصيًّا أهون من أن يأنفها عن المعاصي، يُلقيها في الرذائل ولا يَصُونها، فأنى يكون لها عند الناس عز؟

أعراض يشعر بها العاصي مثل الشعور بضيق النفس والأرض عليه، حتى يصل للاكتئاب

مع نشاز الإنسان العاصي عن نظام مخلوقات الله في الكون من الجمادات والأحياء، من البديهي أن ذلك سيؤثر على الإنسان سلبًا، لأن الله فقط لم يُبين لنا الهدى، ولكن أعطانا الفطرة لمعرفة الطريق الصواب من الطريق الخطأ، وذلك من كرم الله. هذا لأن معرفة الهدى وحده قد لا يجعل بعض الناس يطمئنون لاتِّباعه، ولكن إذا شعروا بأن أرواحهم ترتاح له وتستقر به كانوا أكثر قابلية لاتباع الحق، وتزيد الفرصة في النجاة باتباعه إذ يُدركون أنه الحق.

فالله جلبنا على تمييز الحق بطريقتين: العقل (بالمنطق) والفطرة (وهو الشعور بالصواب ومعرفة الحق إذا رأيناه، والانقباض من الباطل). الفطرة هبة من الله للتعرف على بعض الأشياء تلقائيًّا دون سابق خبرة، تمامًا مثل أن المولود الجديد يتشوق للرضاعة ويسعى لها. وهناك أدلة على أن فطرة الإنسان تتعرف على الحق عندما تُلاقيه، مثل أن الصحابة (رضي الله عنهم) قبل أن يُسلموا

---

[1] الجواب الكافي 69-70.

وسمعوا القرآن عرفوا أن هذا ليس كلام بشر وأنه الحق فأسلموا، فمنهم من قال: فَعَرَضَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الإِسْلامَ وَتَلا عَلَيَّ الْقُرْآنَ، فَلا وَاللَّهِ مَا سَمِعْتُ قَوْلا قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهُ، وَلا أَمْرًا أَعْدَلَ مِنْهُ، فَأَسْلَمْتُ وَشَهِدْتُ شَهَادَةَ الْحَقِّ[1]؛ وكان الذي قال ذلك هو الطفيل بن عمرو (رضي الله عنه)، وكان حكيمًا وشاعرًا يستطيع تمييز الحسن عن السيئ من الكلام والشعر.

ومنهم من ظهر على وجهه اعتناق الإسلام عندما تُلي عليه القرآن، فهذا أُسَيْدُ بن حُضَيْرٍ (وكان مشركًا) عندما تلا عليه مُصْعَبُ بن عُمَيْرٍ القرآن (رضي الله عنهما) بدا عليه تمييزه أن هذا الكلام حقٌ. قال مصعب: وَاللَّهِ لَعَرَفْنَا فِي وَجْهِهِ الإِسْلامَ قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّمَ فِي إِشْرَاقِهِ وَتَسَهُّلِهِ؛ فقال أُسيد: مَا أَحْسَنَ هَذَا الْكَلامَ وَأَجْمَلَهُ، كَيْفَ تَصْنَعُونَ إِذَا أَرَدْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا فِي هَذَا الدِّينِ؟[2].

ولِما لا يُدرك المرء بفطرته أن القرآن لحقٌ إذ إن أساس الرسالة حق (شهادة التوحيد)، فيُروى أن ضِمَادًا (وهو صحابي، رضي الله عنه، ولكن هذه الواقعة قبل إسلامه) قَدِمَ مَكَّةَ وَكَانَ مِنْ أَزْدِ شَنُوءَةَ، وَكَانَ يَرْقِي (أي يُداوي) مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ (أي الجنون والمس من الجنّ)، فَسَمِعَ سُفَهَاءَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ يَقُولُونَ إِنَّ مُحَمَّدًا مَجْنُونٌ، فَقَالَ: لَوْ أَنِّي رَأَيْتُ هَذَا الرَّجُلَ لَعَلَّ اللَّهَ يَشْفِيهِ عَلَى يَدَيَّ، فَلَقِيَهُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي أَرْقِي مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ، وَإِنَّ اللَّهَ يَشْفِي عَلَى يَدِي مَنْ شَاءَ، فَهَلْ لَكَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَمَّا بَعْدُ...." [فاستوقفه ضمادا] وقَالَ: أَعِدْ عَلَيَّ كَلِمَاتِكَ هَؤُلاءِ! فَأَعَادَهُنَّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، فَقَالَ: لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْكَهَنَةِ، وَقَوْلَ السَّحَرَةِ، وَقَوْلَ الشُّعَرَاءِ، فَمَا سَمِعْتُ مِثْلَ كَلِمَاتِكَ هَؤُلاءِ، وَلَقَدْ بَلَغْنَ نَاعُوسَ الْبَحْرِ [وهو أوسط البحر، وقيل هو قعر البحر، والمراد أن هذا الكلام عميق متزن]، هَاتِ يَدَكَ أُبَايِعْكَ عَلَى الإِسْلامِ[3].

وحتى إن كفارًا كانوا يشهدون أنه الحق مع أنهم يُقاومونه باستكبارهم، وذلك مصداقًا لقول الله تعالى {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ} [النمل 14]. فعن ابن عَبَّاسٍ أن الوليد بن الْمُغِيرَةِ جاء إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقرأ عليه القرآن، فَكَأَنَّهُ رَقَّ لَهُ، فَبَلَغَ ذَلِكَ أَبَا جَهْلٍ، فَأَتَاهُ فَقَالَ (أبو جهل): يَا عَمِّ، إِنَّ قَوْمَكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَجْمَعُوا لَكَ مَالًا؛ قَالَ: لِمَ؟ قَالَ: لِيُعْطُوكَهُ، فَإِنَّكَ أَتَيْتَ مُحَمَّدًا لِتَعْرِضَ لِمَا قِبَلَهُ؛ قَالَ: قَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ أَنِّي أَكْثَرُهَا مَالًا؛ قَالَ: فَقُلْ فِيهِ قَوْلا يَبْلُغُ قَوْمَكَ أَنَّكَ مُنْكِرٌ لَهُ؛ قَالَ: وَمَاذَا أَقُولُ، فَوَاللَّهِ مَا مِنْكُمْ رَجُلٌ أَعْلَمُ بِالأَشْعَارِ مِنِّي، وَلا أَعْلَمُ بِرَجَزِهِ [وهو بحر من بحور الشعر]، وَلا بِقَصِيدِهِ مِنِّي [أي العظيم الشأن]، وَلا بِأَشْعَارِ الْجِنِّ،

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام 383/1.

[2] السيرة النبوية لابن هشام 436/1.

[3] صحيح مسلم 1436.

وَاللَّهِ مَا يُشْبِهُ الَّذِي يَقُولُ شَيْئًا مِنْ هَذَا، وَوَاللَّهِ إِنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي يَقُولُهُ حَلاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلاوَةً [أي عذوبية وفصاحة]، وَإِنَّهُ لَمُثْمِرٌ أَعْلاهُ، مُغْدِقٌ أَسْفَلُهُ [أي مريحا فائضا]، وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَلا يُعْلَى، وَإِنَّهُ لَيَحْطِمُ مَا تَحْتَهُ؛ قَالَ: لا يَرْضَى عَنْكَ قَوْمُكَ حَتَّى تَقُولَ فِيهِ، قَالَ: فَدَعْنِي حَتَّى أُفَكِّرَ فِيهِ؛ فَلَمَّا فَكَّرَ قَالَ: هَذَا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (يَأْثُرُهُ عَنْ غَيْرِهِ من المزاعم) فَنَزَلَتْ {ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا} الآيَاتِ. ويُروى أَنَّهُ (صلى الله عليه وسلم) قد قَرَأَ عَلَيْهِ {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [النَّحْلِ 90][1]؛ وفي رواية أخرى أن الوليد قال أيضًا: وَمَا هُوَ بِقَوْلِ بَشَرٍ[2].

وعندما تلا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من بداية سورة فُصِّلت {حم (1) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (2) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (3) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ} إلى موضع السجدة في السورة على عُتبة بن ربيعة، تغيَّر وجهه عندما عاد لقرنائه، فلما جلس إليهم قالوا: مَا وَرَاءَكَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ؟ قَالَ: وَرَائِي أَنِّي قَدْ سَمِعْتُ قَوْلًا وَاللَّهِ مَا سَمِعْتُ مِثْلَهُ قَطُّ، وَاللَّهِ مَا هُوَ بِالسِّحْرِ وَلا بِالشِّعْرِ وَلا بِالْكِهَانَةِ[3].

وهكذا يكون قد أعذرنا الله من عدم اتباع الحق، لأننا عقلًا وفطرةً نُمييزه، فقد جبلنا الله على طاعته. فمن لبّى يعِش في سكينة النفس وسعادتها، ومن شرد فإنه يشعر بضيق الأرض عليه واضطراب النفس وشقائها، ويجد أثرًا يحيك في صدره، فقد قال الله تعالى {وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [التوبة 118]. هذه الآية نزلت في ثلاثة من الصحابة تخلفوا عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في غزوة تبوك دون عُذر حقيقي، فأخَّر الرسول (صلى الله عليه وسلم) القول فيهم حتى يحكم الله فيهم بعدما صدقوا معه أنه لا عُذر لهم (في حين تحجج المنافقون وحلفوا له بالأعذار)، وقاطعهم المسلمون.

حينئذ شعر هؤلاء الثلاثة بالعزلة عن المسلمين، حتى أثَّر في نفوسهم أثرًا بالغًا. ولم تُخفف عنهم الدنيا -بزخاريفها- عما كانوا فيه من الغم والحزن، حتى نزلت هذه الآية بعد أكثر من شهر من عزلتهم وفيها حكم الله أنه تاب عليهم.

الجانب الذي يخص موضوع هذا الكتاب هو نتيجة من يعصي الله ورسوله (صلى الله عليه وسلم)، وهو ضيق الأرض وأنفسهم عليهم. أتدرون لماذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت؟ تفكّروا. بل

---

[1] البداية والنهاية لإسماعيل بن كثير 152/4-153؛ قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط البخاري ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

[2] تفسير القرطبي 150/10.

[3] تفسير ابن كثير 163/7.

ولماذا ضاقت عليهم أنفسهم؟ ليس الأساس لأن المسلمون قاطعوهم فلم يكلموهم امتثالًا لأمر الرسول (صلى الله عليه وسلم)، بل لأنهم شعروا أن الله غضب عليهم. وقد شعروا بذلك في أنفسهم وما حولهم حتى الجماد في الأرض، وقد قال أحدهم في سرد روايته لهذا الموقف (وهو كعب بن مالك، رضي الله عنه): "فَاجْتَنَبَنَا النَّاسُ وَتَغَيَّرُوا لَنَا، حَتَّى تَنَكَّرَتْ فِي نَفْسِي الأَرْضُ، فَمَا هِيَ الَّتِي أَعْرِفُ"[1]. الإجابة هي أن من عصى الله كرهَهُ كل شيء خلقه الله، ومن الراجح أن الإنسان يشعر باطنًا بتلك الكراهية تجاهه في نفسه (ولو في لحظات محدودة).

والدليل على هذا المبدأ هو أن نسبة الانتحار عالية في الدول المتقدمة التي لا تعتنق الإسلام، فبالرغم من أنهم قد بلغوا من الرخاء والتمكين في الدنيا أكثر من أغلبية دول العالم، فإنهم يصلون إلى مرحلة التشبع من الدنيا دون تشبع النفس. هؤلاء قد وصلوا إلى أهدافهم في الدنيا، ومع ذلك لم ترتح نفوسهم، فترتاب النفس وتتردد وتحتار، ولا يجدون إجابة للسؤال: لماذا أنا لست راضيًا مع أني أملك كل شيء أردته، وأستطيع أن أفعل أي شيء أريده؟ فلا تسد جوع النفس الأشياء المادية من الدنيا ولو كانت بالغة الصعوبة في التحصيل، فلا تزال نفسه تصرخ عليه ولا تهمد إلا لفترات قصيرة جدًّا، حتى يكاد أن يُجَن لأنه لا يعلم ما خطبه ولا يعلم ما يداويه. ولو ذهب لكل راقٍ ما أعطوه ما تحتاجه نفسه، إنما نصائح وأدوية كي تُخمد أعراضه دون معالجة المرض، لأن دواء مرضه هو تقوى الله والتقرب إليه.

وعدم طاعته لله تؤدي إلى اضطراب وخلل نفسي من الاختناق لعدم إجادة حل لهذه النفس المئنَّة، فتكون الخطوة التالية الانتحار، لأنهم انتهوا من بلوغ غايتهم من الدنيا من المال والحرية والقدرة، ويسهل عليهم اقتناء ما يريدونه، ولم ترضَ النفس. قد أدركوا تفاهة الدنيا ولا يجدون حلًّا لإلحاح نفوسهم عليهم، فيجدون أنفسهم في أزمة ولا يستطيعون الوصول إلى حقيقة سبب عدم رضا النفس. فيشعرون بالعجز بالرغم من ما يملكون من متاع الدنيا، ولا يدركون حقيقة الحياة كما فسره لنا الإسلام، مما يؤدي أخيرًا إلى الاكتئاب والشعور بضيق الدنيا والنفس، فينتحرون ليهربوا ويتخلصوا من عذاب النفس.

وقد ينتحرون أيضًا بسبب مصيبةٍ أصابتهم. وهي نفس القضية، أن ما يصيبهم هو كل ما يرونه بأعينهم، ولا يرون ما بين أيديهم من تملُّكهم للدنيا. يُضاف إلى هذا أنهم لا يفقهون حكمة الله في ابتلاء الناس، وكل هذا يُفضي بهم إلى أخذ الانتحار في الاعتبار كخيار.

لذلك أنا على يقين أنه لا توجد نعمة أغلى من نعمة الإسلام، وإنها لأغلى من نعمة الصحة، لأن الصحة تذهب وتأتي، ولكن الإسلام سلام في الدنيا ونجاة في الآخرة. ومهما شَق على المرء جهد

---

[1] صحيح البخاري 4066.

المرض الجسدي، فإنه لا يُقارن بجهد الصبر على نار جهنم. فلا متعة ولا عيش حقيقيةً إلا بالإسلام، وهذا نلاحظه فيمن حولنا (أن من اتقى الله ورضي يكون في سكينة أكثر ممن يمتلك الدنيا ولكن يدور فيها الدوائر)، وأنا شخصيًّا مررت بهذه التجربة في فترة المراهقة، فإني لم أكن أفقه في ديني وكنت غير ملتزمٍ بالشريعة.

كنت أُمتّع نفسي بطرق عديدة، ولا أسعى للبحث عن نفسي –أي سبب كياني، وما المقصد الحقيقي لحياتي، وما أهدافي فيها وغايتي منها–. كان كل شيء أفعله يسعدني قليلًا، وما إن ينقضي وقت اللهو إلا وتنقضي معه المتعة سريعًا، إلى مرحلة أن تكرار لهوٍ بعينه يفقد لذته مع الوقت، فأنتقل إلى لهوٍ آخر. وكنت ميسور الحال، أي وسَّع الله عليَّ الرزق، فكنت أستطيع أن أفعل ما أريد وأشتري ما أرغب فيه، فقد كان الله وهب لي الحرية مع المقدرة على تحصيل ما أريده.

كانت تتراكم عليَّ هذه الاختيارات في اللهو وتذوب النكهة الممتعة في هذه الأشياء مع الوقت حتى يصبح الجديد قديمًا، وأصبحت المتع الجديدة لا تمتعني إطلاقًا أو تمتعني قليلًا جدًّا. حينئذ أحسست حقًّا أن الدنيا كلها بما فيها كلها ضيقة عليَّ، لا تسعني، وأنها غير كافية لي، وقد انتابني ذلك الشعور بين الحين والآخر، وكان يزداد معدل تكراره ومُدته ودرجته مع الزمن، حتى إنه كان أمرًا يُجِنّ.

ظل معي هذا الشعور وأنا مضطرب النفس بعد أن أدركت أن متاع الدنيا بما فيها مجرد سراب، ونُقنع أنفسنا أن له أهمية وقيمة، فكم من شاب يتلهف على أحدث طراز لسيارة مثلًا، أو لقاء لاعب كرة مشهور شخصيًّا. ثم أحسست بعدها أن ليست فقط الدنيا هي التي ضاقت عليَّ، بل أن المعاصي جعلت نفسي تلوم نفسها، وأصبح ضميري ثقيلًا لدرجة أن نفسي ضاقت عليَّ، فكنت في صراع مع نفسي، صراع داخلي، يدور النقاش أني أحتاج إلى المعصية لأتمتع، ولكن على الجهة الأخرى أني لست وفيًّا لربي لأني أفعل ما لا يرضاه لي. وهذا مؤشر مهم لنا، أن من وجد صراعًا مع نفسه فليراجع أفعاله، لعله وقع في معصية وهو لا يدري، ثم لِيَتُب ويُطع الله.

فكان هذا حالي حتى أخذ الله بيدي ودلني على الإسلام الحق، الإسلام الذي مؤسس على العلم المُوَّثق والعمل به، وليس على اتباع رأي الناس والأماني، أو تبني عادة المجتمع، أو ما يتناقلونه بألسنتهم عبر الأجيال فيؤثر فيه النسيان والخطأ وسوء الفهم حتى يتغير معناه، حتى بدأت أتفقه في ديني بالقراءة والدروس. وبدأت أتغير تدريجيًّا والحمد لله، وحتى الآن لا أعلم لماذا اختارني الله ليهديني، فإني لا أرى أني قدمت شيئًا مميزًا يجلب هدايتي، إلا ربما إقراري بالحق ولو كان على نفسي، والله أعلم، ولكن تفضُّلِه تعالى عليَّ لا يمكن أن تُخطئه عيني إذ إن مؤشرات تفضله منتشرة في المسألة.

إني أظن أن أغلب الناس لن يفهموا كلامي هذا، لأنه يصعب استيعاب معنى أن تتصارع النفس مع نفسها، وما هو شعور "ضيق الأرض بما رحبت" و"ضيق النفس". وهناك فرق بين ذلك الشعور وبين من وقع في فترة عسر من أمور حياته، مثل أزمة في المال أو الصحة أو غير ذلك، بالرغم من تشابههما. لن يفهمني إلا الذين مروا بما مررت به، فإنه إحساس لا يُوصف إلا كما وصفه الله، ويأكل النفس من الداخل إذ إن المرء يُدرك أن به خطبًا ما ولكن يعجز عن معالجته، بل وعن تشخيصه، ويعجز الرفقاء عن المساعدة أيضًا.

وحين كنت أتوغل في قراءة القرآن، تطوعًا وليس من الواجب الدراسي، دُهشت عندما قرأت هذه الآية، واستوقفتني ذهولًا، إذ إن هذا التعبير وضع يده على الجرح، وضرب رأس المسمار. فقد وصف الله عني ما لم أستطع التعبير عنه بنفسي، وكان كلام الله يصف ما أشعر به وما أردت قوله بلساني ولكن عجزت عن وضعه في كلمات، فدلّني عليه الله، وشرح عني ما أشعر به أنا، ومجرد أن أجد تعبيرًا لهذا الشعور أراحني كثيرًا!

وقد لا تفهمونني، ولكن والله، هذا التعبير بالنسبة إليَّ دليلُ من الأدلة على أن من أنزل القرآن لا شك أنه هو الذي خلقني، فهذا الوصف للشعور لا يمكن أن يكون قد جاء من أحد إلا من الذي ركَّب الإنسان، فإن دقة الوصف تدل على أن مُنزِل القرآن هو الذي خلقني بلا جدال. وتبعيًّا استنتجت أن بما أن الله هو الذي خلقني، فهو الذي يعلم ما يفيدني وما يضرني، وقد أنزل شريعته لنا حفاظًا علينا، فما أحله الله فهو خير لي، وما حرمه الله فهو مُضر لي. ومن ثمَّ يجب أن أتبع الهدى ولا أعصي الله، لأن المعصية ضرر لي في الدنيا، وعقاب لي في الآخرة، أفلا أتعقل؟ فالإسلام مرضاة لله، راحة في البال، سلام وسكينة للنفس، ثقة في النفس، عز للمرء، حفظ لكيان الإنسان، سلامة من الأذى، تذكَرةٌ للجنة... فماذا نريد أكثر من هذا؟! ألا ينبغي أن نحافظ على ديننا الآن؟

الفرق بيننا وبين الدول المتقدمة أننا بصفتنا مسلمين نعلم أننا نستطيع أن نرجع إلى الله بعد المعصية. في هذه الآية، كلمة "ظن" جاءت بمعنى أيقن وعلم، أي أن هؤلاء الثلاثة علموا أن لا ملجأ من الله إلا إليه. فالمسلم عندما تضيق عليه الدنيا ونفسه، وتنسد كل المخارج، ويضل عنه كل الناس –أو يتخلون عنه، أو حتى يجتمعون لنفعه في داهية أصابته–... يدرك حقيقة أنه لا ملجأ من الله إلا إليه كي يستطيع أن يصل إلى راحة البال والنفس وفرج كربته. وسبحان الله، عندما يرجع الإنسان إلى الله، يجد راحة لا مثيل لها. كيف؟ ذلك من علم الله وإرادته، وزرع ذلك فينا عندما خلقنا كي نميل إلى الحق.

فباللجوء إلى الله يكون رضا الله، وبرضا الله يرضى عنا كل شيء خلقه الله، وبذلك نشعر بأن الدنيا واسعة تسعنا، ونحن نسع أنفسنا لأن الروح والجسد في سلام وتناغم. والإنسان –بطاعة الله– ينسجم مع الطبيعة التي حوله من الكائنات والجمادات التي تسبح الله بما لا نفقه. أما في الدول

المتقدمة غير الإسلامية، بحكم شرائعهم المُضِلة، لا يستطيعون الرجوع إلى الله لأن العقيدة (أساس بنيان الدين) فاسدة، والفطرة التي يُولد عليها الإنسان دُفنت لديهم، كما أشار حديث النبي (صلى الله عليه وسلم) "مَا مِنْ مَوْلُودٍ إلا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ"، ثم قال أَبو هريرة رضي اللَّهُ عنه {فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ}[1] (يُمَجِّسَانِهِ أي يعبدون النار؛ جَمْعَاءَ أي السليمة؛ جَدْعَاءَ أي عندها قطع في الأنف أو الأذن أو غير ذلك).

ولكن ما زالت الفطرة موجودة خامدة، وبسببها يتشككون وينتابهم الريبة إن كان دينهم صحيحًا أم لا كما قال الله (في جزء من الآية) {وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ} [الشورى 14]. فهم يشكُّون في دينهم كما أصبح واضحًا الآن من طعن مفكريهم في دينهم، وشرد عامة الناس عن اتباع شرائعه، أو باعتناق الإلحاد؛ فتجد فيهم انتشار الزنى وشرب الخمر والكذب وغير ذلك، وأصبحوا يفسدون في الأرض.

لذلك عندما تضيق عليهم أنفسهم والأرض، وتُغلق المخارج ويضل (أو يتخلى) عنهم من ينفعهم، لا يستطيعون الرجوع إلى الله لأنهم يتشككون وفي ريب من دينهم، فلا يجدون مخرجًا، ولا يدركون أنه لا ملجأ من الله إلا إليه. بالإضافة إلى أن فطرتهم تدُلهم على أنه لا إله إلا الله، ولكن يكبتون فطرتهم أو يتجاهلونها بسبب أن شرائعهم تقول غير ذلك، فأنى يكون هناك استقرار في داخلهم وهم في حرب مستمرة مع فطرتهم؟ فالمشكلات الداخلية تنشأ بمعارضة فطرتهم، ويؤدي هذا التوتر الداخلي إلى اضطراب النفس والجسد، وأخيرًا إلى الانتحار، فنجد عندهم أعلى نسب الانتحار بالرغم من تقدمهم وامتلاكهم من الدنيا ما لا نملك.

وهنا يكون التعجب، أنه من المفترض أن من عجز عن امتلاك الدنيا يكون أكثر عرضة للانتحار، ولكن الواقع يظهر عكس ذلك إذ إن الأغنياء غير الملتزمين ينتحرون أكثر بالرغم من تقدمهم ورفاهيتهم. وهذه الظاهرة تدعو لوقفة كي يتفكر المرء، فهي آية للمتفكرين على مدى صدق كلام الله في كيفية تحقيقه، لأن ظاهر المسألة قد تبدو خلاف ما نبأ الله به، فالمؤشرات المنطقية تقول إن الفقراء أكثر قابلية للانتحار، ولكن واقع الحال أن الأغنياء غير المؤمنين أكثر قابلية. وهذا إلى حد ما يتحقق أيضًا مع من يكون مُسلمًا ولكنه ضعيف الإيمان ويتهاون بتطبيق دينه فيُكثر، من المعاصي، فيُعاني من اضطرابات النفس دون شك، وتزداد احتمالية إقباله على الانتحار. فلماذا قد أختار، بمعصية الله، طريقًا فيه تتهيج النفس بدلًا من طمأنينتها وسكينتها؟

---

[1] صحيح البخاري 1271.

هذا وقد قال تعالى أيضًا {أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [الأنعام 122]، فهذه الآية تشير إلى أن معنى الحياة الحقيقي يتحقق بالإيمان، وليس المعنى لمن يأكل ويشرب ويَعمُر. إن العاصي ليشعر أنه تائهٌ أو مضطربٌ أحيانًا عندما يفكر في حياته، خاصةً عندما يكون في فترة لا يجد شيئًا يعمله ليُلهيه، أو في أوقات المِحَن، وأحيانًا أخرى يشعر أنه يفقد التحكم على نفسه، مع العجز على فهم ومعالجة حاله. يشعر وكأن نفسه مستقلة عن جسده، فيجد فراغًا بين ما تريده النفس وما يريده الجسد، ومن هنا تنشأ الوحشة إلى شيءٍ مفقود لا يعلمه، حتى إن كان يملك من متاع الدنيا ما يملكه.

قد يصل هذا الاضطراب في بعض الأحيان إلى الإحساس بالاختناق النفسي، ويكأن جسده غير قادر على احتواء نفسه، وبأن نفسه غير قابلة للتحكم، فيصدر عنه أشياء لا يعلم سببها. فمثلًا قد يجد نفسه يبكي وهو لا يدري لماذا، وهذه من علامات الاكتئاب. وذلك الاكتئاب ينشأ بسبب أنه يُسيء استخدام حياته فيما هي ليست مُصممة له، إذ إن حياة الإنسان مُصممةٌ للإيمان بالله وعبادته. فإساءة استخدام نعمة الحياة –بالشرود عن صراط الله– يجعل الحياة تتلف، وأعراض تَلَفِ الحياة هو الضلال في الفكر والعمل ثُم الاكتئاب. فالله قد صمَّم الإنسان ليُلَبّي أوامر ربه وليس ليُلبي رغبات جسده ونفسه، فلا يُمكن للإنسان أن يجد سكينته واستقراره إلا بفعل ما صُمِّم له.

وأريد أن أضيف ملحوظة، أن الإنسان مهما طغى وأسرف في المعاصي حتى يختم الله على قلبه، فلا يموت لدى ذلك الإنسان ضميره الذي يصحو بين الحين والآخر فيُواجهه في نفسه بكلامٍ ثقيلٍ. إضافة إلى فطرة الإنسان التي جَبَل الله عليها الإنسان في التمييز بين الحق والباطل، فإنه يصل إلى مرحلة أنه يشعر أن هناك خطئًا ما في الطريق الذي يسلكه. ومثال على ذلك أن حتى في أقبح الظلم لحق الإنسان –وهو القتل–، فهل يظن أحدنا أن الذي يُسرف في القتل بغير حق يتعود على ذلك فينام وباله مرتاح ونفسه في سكينة؟! فلا والله، فإنه يختنق من ملاحقة ضميره وعقله وغضب الله له، وباله لن يدعه يرتاح إلا بعد الإقرار بالخطأ والتوبة.

والدليل على ذلك هي القصة التي سبق أن ذكرناها عن الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفسًا، ومع ذلك لم تتطبع فطرته على أن هذا صواب، وظل يسأل عن إمكانية التوبة، فلما يأَّسه الراهب من التوبة قتله وأتمّ به المائة. وحتى بعد ذلك عاد ضميره ليُلح عليه، فلم يتخلَّ عن السؤال عن التوبة، إلى أن بشَّره العالم أن له توبة ولكن ينبغي أن يُهاجر إلى أرضٍ بها أناس صالحون. فتسلسل الأحداث دل على أنه لم يألف القتل ولم يخمد ضميره، والفرق بين هذا الرجل والذي يستمر في سفك الدماء هو عامل المعاندة، فهذا الرجل أقرّ بخطئه وغيَّر سلوكه فهاجر كي يتوب، وبدأ حياةً جديدة.

أما المُستمِر فإنه يُعاند ويضغط على نفسه ويقهر صراخ ضميره ليستمر فيما هو عليه، ويُقدّم لنفسه التبريرات كي تسكن نفسه، ولكن أنَّى يُفلح ذلك.

والسؤال هو، ما دام أن سلك الدرب الأيسر –الخوض في المعاصي لأقصى الحدود– فلن يُرضي النفس تمامًا، فلماذا سلك هذا الضرب بدلًا من طاعة الله إذًا؟ فالأولى سلك درب طاعة الله، لأن هذا آخرة رضا النفس التام، فتسكن وترتاح في الدنيا، إذ إن أفعال المرء تتماشى مع فطرته فلا يحدث تضارب وتفاوت، وهذا دون الخوض في مكاسب الآخرة.

إجمالًا، قد تكلم ابن القيم حول هذه القضية، وهذا في أثناء كلامه على من يُعرض عن الله. وبما أن من آثر نفسه وشهواته على أمر الله، وهذا بارتكاب المعصية، فهو بمنزلة من أَحَبّ الدنيا وأعرض عن الله، ولو جُزئيًا. قال (رحمه الله): ومن أعظم أسباب ضيق الصدر: الإعراض عن الله تعالى، وتعلق القلب بغيره، والغفلة عن ذكره، ومحبة سواه؛ فإن من أحب شيئًا غير الله عُذِّب به، وسُجِنَ قلبه في محبة ذلك الغير، فما في الأرض أشقى منه، ولا أكسف بالًا، ولا أنكد عيشًا، ولا أتعب قلبًا. فهما محبتان: محبة هي جنة الدنيا، وسرور النفس، ولذة القلب، ونعيم الروح وغذاؤها ودواؤها، بل حياتها وقُرَّة عينها، وهي محبة الله وحده بكل القلب، وانجذاب قوى الميل والإرادة والمحبة كلها إليه؛ ومحبة هي عذاب الروح، وهَمّ النفس، وسجن القلب، وضيق الصدر، وهي سبب الألم والنكد والعناء، وهي محبة ما سواه سبحانه[1].

المعاصي تنتقص من العقل

بدايةً ينبغي التفرقة بين الدهاء والعقل، فالعقل مصطلح أشمل من الدهاء لأنه يأخذ في الاعتبار: الدهاء والعلم المكتسب والحكمة (وربما جوانب إضافية أخرى). فإذا ذهبت أيٌ من تلك العناصر يذهب جزء من العقل، وإن ذهبوا جميعًا ذهب العقل كله. وتؤثر الرغبة على العقل تأثيرًا مباشرًا، بمعنى أن عقل المرء قد يُدرك أن معصية ما تؤدي إلى فساد، ولكن لأنه يرغب بشدة في متعتها ويكره تركها، فإنه إما يُنكر ما يُمليه عليه عقله أنها مَفسدة وإما أن يستجلب الأعذار تبريرًا لارتكابها، وفي كلتا الحالتين يكون قد انتقص بعض عقله إذ حكَّم الرغبة على العقل.

والدليل على ذلك يوجد في قول الله تعالى {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ} [البقرة 170]. ففي الآية إشارة على أن آبائهم لا يعقلون بما أنهم رفضوا الإيمان، مع أنهم يُميّزون بين الحق والباطل، فلو كان آباؤهم لا يُميزون بسبب جنون مثلًا، لسقط عنهم التكليف فلن يؤاخذوا ولن يُقال عنهم إنهم لا يهتدون.

---

[1] زاد المعاد في هدى خير العباد لابن القيم 25/2.

ونستنتج من ذلك أن عامة آراء الكافر لا يُسَلَّم بها وإن كان أعلى الناس دهاءً وأكثرهم علمًا وتطورًا في الدنيا، إذ إنه أخطأ وغدر في أهم قضية قابلته في حياته: قضية الإيمان بأنه لا إله إلا الله. فكيف تكون آراؤه في مسائل أدنى بُرهانًا وأهميةً من الإيمان أن يُعتد بها وقد أخفق رأيه في قضية الإيمان؟ ولكن ينبغي أن يُفهم المقصد من الكلام على الوجه الصحيح، فإنه لا يعني أن آراء وأخبار الكافر تُنبذ بالكلية، بل يُدقق فيها وتُراجَع على إذا كانت صحيحة أم لا، وتتناسب مع الإسلام أم لا.

فهذا فيما يختص بالكافر، وعلى نفس الوجه ولكن بدرجة أقل يكون حال المسلم العاصي، فمع أنه قد آمن بالله إلا أنه يقع في حدود الله فيكون قد ذهب بعض عقله أيضًا. فهل مكتمل العقل يعصي من وهبه روحه ويرزقه ويقدر عليه؟ وهل مكتمل العقل يُقبل على معصية وهو يعلم أنه سيُعاقَب عليها؟ فبإقبال العاصي على المعصية يكون من الجاهلين، إذ يُثبت أنه ينقصه استيعاب تبعات المعصية، وينقصه الحكمة إذ أقبل على عملٍ يؤذي نفسه به.

وقد تكلم الإمام ابن القيم (رحمه الله) على أن المعصية تُنافي كمال العقل، فقال: وكيف يكون عاقلًا وافر العقل من يعصي من هو في قبضته وفي داره، وهو يعلم أنه يراه ويشاهده فيعصيه وهو بعينه غير متوارٍ عنه، ويستعين بنِعَمه على مَسَاخطه، ويستدعي كل وقت غضبه عليه، ولعنته له، وإبعاده من قربه، وطرده عن بابه، وإعراضه عنه، وخُذلانه له، والتخلية بينه وبين نفسه وعدُوِّه، وسقوطه من عينه، وحِرمانه روح رضاه وحبه، وقرة العين بقربه، والفوز بجواره، والنظر إلى وجهه في زمرة أوليائه، إلى أضعاف أضعاف ذلك من كرامته أهل الطاعة، وأضعاف أضعاف ذلك من عقوبة أهل المعصية.

فأي عقل لمن آثر لذة ساعة أو يوم أو دهر، ثم تنقضي كأنها حلم لم يكن، على هذا النعيم المقيم، والفوز العظيم؟ بل هو سعادة الدنيا والآخرة، ولولا العقل الذي تقوم به عليه الحجة لكان بمنزلة المجانين، بل قد يكون المجانين أحسن حالًا منه وأسلم عاقبة، فهذا من هذا الوجه (انتهى من الجواب الكافي لابن القيم 81-82). وقد لخَّص المسألة في جملة واحدة في كتاب "الفوائد": كيف يكون عاقلًا من باع الجنة بشهوة ساعة؟

المعاصي تُضعف عزيمة المرء، وقوة بدنه، وشعورة بمسؤولية قضاء ما عليه من التزامات

جاء في كتاب الجواب الكافي لابن قيم الجوزية (رحمه الله): فالذنب إما يُميت القلب، أو يُمرضه مرضًا مخوفًا، أو يُضعف قوته ولا بد حتى ينتهي ضعفه إلى الأشياء الثمانية التي استعاذ منها النبي -صلى الله عليه وسلم- وهي: الهَمّ، والحزن، والعجز، والكسل، والجبن، والبخل، وضَلَع الدَّيْن، وغلبة الرجال؛ وكل اثنين منها قرينان. ثم قال: والمقصود أن الذنوب من أقوى الأسباب الجالبة

لهذه الثمانية، كما أنها من أقوى الأسباب الجالبة لجَهْدِ البلاء، ودَرَكِ الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء، ومن أقوى الأسباب الجالبة لزوال نعم الله، وتحول عافيته إلى نِقمَتِه، وتجلب جميع سَخَطِه (انتهى بتصرف).

للتعريف بالمصطلحات: ضَلَع الدَّيْن هو ثِقَل المديونات على المرءِ بحيث يعجز عن السداد؛ وغلبة الرجال هي شدة تسلط السفهاء أو الظالمين على الرجال فيُهينوهم أو يأخذون أموالهم أو يقتلونهم، كاستيلاء الرعاع هَرْجًا وَمَرجًا. أما جَهدِ البلاء فهو البلاء الذي يفوق قدرة تحمل المرءِ، إما جسديًّا (مثل المرض، أو قلة المال وكثرة العيال) أو معنويًّا (بأن ينشر أحدٌ معايب المرءِ)، حتى إنه ربما يُفتتن عن دينه أو يتمنى الموت أو يقع في قلبه تجاه الله ما لا يليق. ودَرَكِ الشقاء هو أن يُدرك الانحطاط بالمرءِ بسبب ارتكاب المعاصي، إذ إنها تجلب الشقاء بدل السعادة، وسوء الخاتمة. وسوء القضاء هو أن يقضي المرءِ في نفسه أو في الناس بالخطأ والظلم، أو أن يقضي الله على المرءِ أمرًا يسوؤه ويُحزنه فيقع في المكروه فيما قدَّرَه الله عليه.

لُب المسألة هي أن المعاصي تُثبط العبد عن القيام بواجباته الدينية (مثل الذكر) والمعيشية (مثل مهنته)، وذلك من عدة أوجه. منها أن المعصية تمنع المرءِ من الإقدام على الأعمال الصالحة، وذلك بسبب أن الشيطان يُسول للمرءِ أن يتقاعس عن فعلها {إِنّ الّذِينَ تَوَلّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنّمَا اسْتَزَلّهُمُ الشّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ إِنّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ} [آل عمران 155]. فذلك من جزاء المعصية أيضًا، أن يُحرم العبد من العمل الصالح.

ووجه آخر هو التعود على قضاء الأوقات في المتعة، فيثقل على المرءِ الإقبال على عملٍ ليس فيه متعة بل وفيه ما تكرهه النفس من مشقة. وذاك التعود يجعل المرءِ كسولًا متقاعسًا متخاذلًا.

قال ابن القيم (رحمه الله) أيضًا عن آثار المعصية، تحت عنوان 'المعصية تُضعِف إرادة الخير': -وهو من أخوفها على العبد- أنها تضعف القلب عن إرادته، فتُقَوّي إرادة المعصية، وتُضعِف إرادة التوبة شيئًا فشيئًا، إلى أن تنسلخ من قلبه إرادة التوبة بالكلية، فلو مات نصفه لما تاب إلى الله، فيأتي بالاستغفار وتوبة الكذابين باللسان بشيء كثير، وقلبه معقود بالمعصية، مُصِرٌّ عليها، عازم على مواقعتها متى أمكَنَه، وهذا من أعظم الأمراض وأقربها إلى الهلاك[1].

ومن آثار المعصية على الجسد هي أنها تُرهقه وتأكله وتُبليه، فيَهرم المرءِ أسرع، حتى تظهر عليه مؤشرات الشيخوخة وتتحقق فيه مُبكرًا في عمره. ينبغي أن نستوعب أن ما حرَّمه الله علينا إنما حرَّمه لأنه يضرنا، وعدم الالتزام بحدود الله يجعل تلك الآثار السلبية تُحمّل وتتراكم على الجسد،

---

[1] الجواب الكافي 56.

فتستنزف حيويته، تمامًا مثل الزرعة التي تنبت في أجواء قاسية أو بيئة ملوثة. وكلما طالت نشأة الفرد في تلك الأجواء، قلّت قدرة جسده على تحمل أعباء الحياة حين يتقدم في العمر.

هذا خاصةً أن بعض المعاصي يكون لها عبء مُضاعف على الجسد. قد ذُكر سابقًا قول ابن القيم (رحمه الله) إن ضرر المعاصي على النفس كضرر السموم على البدن، وهذا كلامٌ بليغ. وبالفعل، مِن المعاصي ما هي سُموم على الجسد فوق أنها سموم للنفس. أرأيت شارب الخمر؟ أم مُتعاطي المُخدرات؟ والمُدَخِّن؟ وكذلك الزاني الذي يُدخل الأمراض التناسلية على جسده، أليست كل تلك سُمومًا؟

وهناك نقطة متعلقة بالموضوع أريد إبرازها بمثالٍ، وهي أن الفرد لا يستطيع أن يتعدى مستوًى من التدخين إذ إن هذا يستنزف جسده، لأنه يبلغ مرحلة أنه لا يستطيع أن يتنفس، فيُقلع إجباريًّا رغبةً منه في استعادة راحة وعافية جسده. ولكن أثر هذا على الجسد لا يزول تمامًا بترك التدخين (إلا بعد التوقف لأمدٍ طويل جدًّا)، خاصة أنه قد يُكرر التدخين، فتتراكم الآثار السلبية على الجسد وتظهر في صورة إبلائه في جميع جوانبه. واعلم أن هذا المبدأ عام مع أي معصية، فالإنسان لا يُطيق أن يرتكب المعصية طوال الوقت، لما في ذلك من الملل واستنزاف الجسد والعقل. المرء قد يُكثر من المعصية إلى درجات صادمة، ولكن لا بد أن تتخللها فترات راحة، طالت أو قصرت. فاعلم الحقيقة: أن هوى المرء يظل يُلح عليه للاستزادة من المعصية، حتى يبلغ مرحلة الإجهاد وكره المعصية، فيُجبَر على تركها لمُهلة، ثم يعود هواه ليُلِح عليه.

فاعتياد المعصية صراع مستمر يُجهد النفس، إضافة إلى إجهاد المعصية للجسد، فلماذا لا أُخرج نفسي من دائرة المشقة والفوضى والمعاناة بأن أترك المعصية بالكلية من الأساس، أي عدم ارتكابها ولو لمرة. فإني تاركها جبرًا لا محالة: إما لإجهادٍ وإما لانشغالٍ بأمور الحياة أو بالموت؛ فلماذا لا أتركها إراديًّا وطاعةً لله، ولو بإشغال نفسي عنها؟

فقدان العلم النافع، بل ورفعه إذا تمادى العبد في المعاصي (ضياع الدين)

الفرق بين فقدان العلم ورفعه هو أن فقدان العلم يكون بالنسيان، ويستطيع العبد إعادة تحصيله إذا أصلح نفسه واجتهد في إعادة تعلمه. أما الرفع فهو نسيان العلم مع عدم استطاعة إعادة تحصيله حتى إذا اجتهد المرء، أي يُمنع العبد من بلوغ ذلك العلم. وبلا شك، فإن رفع العلم عقوبةٌ أشد بعد أن فرَّط العبد في ذلك العلم، فحال الله بينه وبين العلم منعًا دائمًا. ورفع العلم لا يشترط أن يكون فقط على المستوى الفردي، بل وقد يُرفع على مستوى الأمم كما سيأتي بيانه.

قال عز وجل {وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا} [الإسراء 86]. هذه الآية تجعل المرء يفيق ويتفكر، ولا يأخذ النعم التي هو فيها على أنها مُسَلَّمة، لاسيما نعمة القرآن تحديدًا بهذه الآية. سبحان الله، فكان من الممكن أن يرفع الله القرآن من على الرسول (صلى الله عليه وسلم) مثل ما أنزله عليه، وحينئذ لم يكن ليجد (صلى الله عليه وسلم) من يشكو إليه ولا ناصرًا له ولا سلطانًا، وكانت الإنسانية أجمع لتتوه. ولا يزال الله قادرًا على رفع القرآن، أو أن لا يعد بحفظه فيُحرَّف مثل ما حُرِّفت الكتب السابقة، ولكن بفضل الله وعدنا بحفظه فلا يُنقص منه أو يزاد عليه، ولا يُنسى حمدًا له على ذلك {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [الحجر 9].

وإن ذهب الله بالقرآن فسنتيه ونضل، ولكننا لا ندرك مدى الضياع الذي سنكون فيه، بل وإلى من سنشتكي على ذلك الضياع؟! إن نعمة القرآن نعمة عظيمة لها عدة فوائد، من أهمهم أنه يُفرِّق لنا بين الحق والباطل (ولهذا سُمِّي بالفرقان)، وتلك نعمة كبيرة لأنها تؤدي إلى طمأنينة وهدوء النفس ومن ثمَّ استقرارها، ولا يُقَدِّر تلك النعمة كثير من الناس، ولذلك قيل عنه شفاء للنفس وما في الصدور. ولو أننا لم نُميز الصالح من المفسد لتلَبَّست علينا الأمور مثل كيف نحكم في القاتل أو السارق أو الزاني أو شارب الخمر. آنذاك ستجد أناسًا يقولون إن قتل القاتل شيء قاسٍ، وإن رجم الزاني المُحصن عقوبة مُفرطة، وإن قطع يد السارق أمرٌ غليظ، وإن جلد الزاني غير إنساني، وإن جلد شارب الخمر عقوبة شديدة بل وإن شُربها حرية شخصية، وأقوال أخرى من ذلك القبيل.

فستجد جدالًا مستمرًّا على الحدود وبين الحق والباطل، ويتفشى القتل والسرقة والزنى بسبب اختلاف الناس، ولا يدري المرء ما الخطأ وما الصواب، حتى يصبح الوضع كما هو في الدول غير إسلامية. فترى أُخت المرء تدعو صديقها إلى المنزل وتزني معه والأب لا يعترض على ذلك، وكل جارح من جوارح الأخ وقطعة من جسده تنكر ذلك ويشتاط غيرةً على أهله من ذلك وغضبًا منهم، ولكنه لا يدري يقينًا ما الصواب وما الخطأ في مثل هذا الوضع. ويتقطع كل جزء من فؤاده لعجزه عن التعامل مع الوضع، بل ومع استيعابه من الأساس، ولا يدري ما المفترض أن يفعله، فتتمزق نفسه وتضطرب بحيث إنها تُؤثر في معيشته، حتى ينشأ لديه العِلل النفسية والاكتئاب، وربما يؤدي تراكم مثل تلك الاضطرابات إلى انحرافه أو الانتحار.

ونعمة القرآن والسُنَّة نزلا ليريحا بالنا من كل تلك الاضطرابات، وليُبينا لنا أن من أعرض عن هذا المنهج فهو المخطئ، لأن الذي أنزل الأحكام هو الله الذي يعلم تفاصيل الأمور، ويعلم الماضي والمستقبل، وما يضر الإنسان وما ينفعه لأنه هو الذي ركَّبه وخلق الكون كله، فحُكمه لا يمكن أن يحتمل الخطأ، فوجب الالتزام به للصلاح والمنفعة. المؤسف هو أننا اعتمدنا على أن القرآن موجودٌ فاطمأننا، وتحتاج أنفسنا إلى هذا الاطمئنان حتى تكون في سلام وسكينة، ولكننا بعد هذا نهجره بطرق مختلفة، منها أننا لا نقرأه أو لا نتدبره أو لا نعمل بما فيه من إرشادات. فلنكن صُرحاء مع

أنفسنا: وأليس ذلك التصرف أدعى بأن يُرفع عنا أو يُحال بيننا وبينه؟ {أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ} [الزخرف 5].

أفإن هجرنا القرآن وأقبلنا على المعاصي، أليس ذلك تفريطًا عمليًّا في هذا الدين ورجوعًا إلى عصور الضلال؟ بهذا النهج، قد يصبح حالنا كما كان قبل نزول الإسلام، كما ذكر الله في الآية {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [الجمعة 2]. فيجب أن ندرك أهمية وقدر نعمة القرآن بالتفكر في ذلك، وأن من نعم القرآن أنه يحول بين المرء وبين المعصية.

ومن المؤشرات التي تُنذر المرء أن تطبيق الدين يسير في اتجاه خاطئ هو أن ترى المسلم يُعجب بمنهج غير المسلمين فيسير في دربهم، وأفعاله تلتصق بأفعالهم. ويستلزم تبرير سلك ذلك النهج أن يطعن المرء في من سبق من المُهتدين والصالحين بأنهم كانوا على خطأ أو انحراف، أو أن ذاك عهدٌ قديم والآن عهدٌ آخر، وهذا إن دل على شيء فهو يدل على نبذ المرء لإسلامه وانسلاخه منه تدريجيًّا.

وقد استشف ذلك سيدنا حذيفة بن اليمان (رضي الله عنه)، الذي هو من أعلم الصحابة عن النفاق والضلال، فقال: أَوَّلُ مَا تَفْقِدُونَ مِنْ دِينِكُمُ الْخُشُوعُ، وَآخِرُ مَا تَفْقِدُونَ مِنْ دِينِكُمُ الصَّلاةُ، وَلَتُنْقَضَنَّ عُرَى الإِسْلامِ عُرْوَةً عُرْوَةً، وَلَيُصَلِّيَنَّ النِّسَاءُ وَهُنَّ حُيَّضٌ، وَلَتَسْلُكُنَّ طَرِيقَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ، وَحَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ، لا تُخْطِئُونَ طَرِيقَهُمْ وَلا يُخْطِأُنَّكُمْ، حَتَّى تَبْقَى فِرْقَتَانِ مِنْ فِرَقٍ كَثِيرَةٍ، فَتَقُولُ إِحْدَاهُمَا: مَا بَالُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، لَقَدْ ضَلَّ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا، إِنَّمَا قَالَ اللَّهُ –تَبَارَكَ وَتَعَالَى– {وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ}، لا تُصَلُّوا إِلا ثَلاثًا! وَتَقُولُ الأُخْرَى: إِيمَانُ الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ كَإِيمَانِ الْمَلائِكَةِ، مَا فِينَا كَافِرٌ وَلا مُنَافِقٌ! حَقٌّ عَلَى اللَّهِ أَنْ يَحْشُرَهُمَا مَعَ الدَّجَّالِ[1]. ومن كلامه هذا نستطيع أن نستشف أيضًا أن المعاصي تُذهب الخشوع في الصلاة، فإن العاصي يُحرَم لذة الخشوع في الصلاة.

ويصبح الفرد كذلك إذا خبث قلبه وساء عمله، وكثرة ارتكاب المعاصي مؤشرٌ على هجر العمل بالقرآن –إن لم يكن هجره تعلمًا أيضًا–، والتفريط في الدين. وعاقبة ذلك أن الله يمنع العلم عن العصاة ويبتلي الفرد (أو المجتمع، بحسب انتشار الخبث) بالفتن وعلماء السلطة كي يُمَحِّص الصالح من الطالح، وذلك من باب الجزاء من جنس العمل. فإن كان الإسراف في المعاصي مُقتصرًا على مستوى أفرادٍ في المجتمع، نزع الله العلم عن أولئك الأفراد إما عن طريق نسيانه وإما بزرع فيهم النفور من تَعَلُّمِه.

---

[1] المستدرك على الصحيحين لأبي عبد الله النيسابوري 664/5.

أما إن كانت المعاصي على مستوى فئات من المجتمع حتى يَعُمّ، حينئذ يرفع الله علم الإسلام عن تلك الأمة، وذلك كما دل حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقْبَضَ الْعِلْمُ، وَتَكْثُرَ الزَّلازِلُ، وَيَتَقَارَبَ الزَّمَانُ، وَتَظْهَرَ الْفِتَنُ، وَيَكْثُرَ الْهَرْجُ -وَهُوَ الْقَتْلُ الْقَتْلُ-، حَتَّى يَكْثُرَ فِيكُمْ الْمَالُ فَيَفِيضَ"[1]. وفي حديث آخر جاء "إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ، وَيَثْبُتَ الْجَهْلُ، وَيُشْرَبَ الْخَمْرُ، وَيَظْهَرَ الزِّنَا"[2]. ولنكن صُرحاء مع أنفسنا، إن أكثرنا من المعاصي حتى تتفشى في الأمة بأسرها، فهذا مؤشر على إعراضنا عن كتاب الله، وتخلينا عن القرآن يضعنا في موضع استجلاب لعقاب الله أن يحل علينا، ولو عاقبنا من جنس العمل فلله أن يرفع عنا القرآن.

القرآن الذي هو نعمة بالغة، وهو أساس دين الإسلام الذي هو أعظم نعمة أنعمها الله على الإنسان، ووالله إن كثيرًا من المسلمين لا يُقدِّرون نعمة كتاب الله، الذي هو كلام رب الكون، حق التقدير. وأفضل طريقة لإدراك النعمة التي يمتلكها الإنسان هو بتعرضها للسحب أو بسحبها فعليًّا، وذلك ما زجر به الله الذين تبطروا على نعمة القرآن وقالوا للرسول (صلى الله عليه وسلم) أن يأتي بقرآن آخر، فجاء قول الله تعالى وهو يمُنُّ عليهم {قُل لَّوْ شَاء اللّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} [يونس 16]. فكل ما أطلبه منكم أن يتخيل كل واحد منا حياته لو لم يكن القرآن تلاه علينا الرسول (صلى الله عليه وسلم)، فلم ندراه ولم يكن بين أيدينا. كيف سيكون حالنا وحال الناس في الأرض إن لم نكن نعرف ما يُفيدنا مما يضُرُّنا عن طريق الحلال والحرام، ولم يكن هناك قوانين تحكم سلوك الإنسان؟ فلماذا التفريط فيه إذًا؟!

ومن المعلوم أن في آخر الزمان يكون كثيرًا من المسلمين لا يعلمون كيفية الصلاة والصوم وغير ذلك، وتكون كلمة لا إله إلا الله تقال كعادةٍ أكثر من أنها تُقال إيمانًا، كما جاء في الحديث عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "يَدْرُسُ الإِسْلامُ كَمَا يَدْرُسُ وَشْيُ الثَّوْبِ حَتَّى لا يُدْرَى مَا صِيَامٌ وَلا صَلاةٌ وَلا نُسُكٌ وَلا صَدَقَةٌ، وَلَيُسْرَى عَلَى كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي لَيْلَةٍ فَلا يَبْقَى فِي الأَرْضِ مِنْهُ آيَةٌ، وَتَبْقَى طَوَائِفُ مِنْ النَّاسِ الشَّيْخُ الْكَبِيرُ وَالْعَجُوزُ يَقُولُونَ: أَدْرَكْنَا آبَاءَنَا عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ: لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ، فَنَحْنُ نَقُولُهَا"[3] (فَلا يَبْقَى فِي الأَرْضِ مِنْهُ آيَةٌ أي مكتوبة أو محفوظة في صدور الناس).

ثم بعد ذلك يسوء الوضع فيأتي زمان لا يقال فيه لا إله إلا الله، كما في الحديث "لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لا يُقَالَ فِي الأَرْضِ: لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ"[4] (والراجح أن ذلك من نُدرة الموحدين، فيقبض الله أرواحهم بلطفٍ ويذر الكفرة الذين تقوم عليهم الساعة). فنستطيع أن نرى الصلة بين تخلي الناس عن تطبيق العلم ورفع الله إياه، إذ يحدثان في آخر الزمان.

[1] صحيح البخاري 948.

[2] صحيح البخاري 78.

[3] سنن ابن ماجه 4039.

[4] مسند أحمد 13331.

أما عن كيفية رفع العلم فقد قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ اللَّهَ لا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنْ الْعِبَادِ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالا فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا"[1]. ومن طرق رفع العلم أيضًا هو نسيان ما حفظه المرء من القرآن أو الفقهيات في الإسلام، أو أن علماء الإسلام تظهر فيهم الأمراض بسبب فساد عامة الناس. فترى مُفتِيين خاضعين لأهواء السلاطين، والمنافق عليم اللسان، والرويبضة، والعلماء الذين يخافون من قول كلمة الحق قد كثروا، والله المستعان. وإنما كل تلك أعراض لمرض المجتمع والأمراض التي بداخلي أنا كفرد، فلا نلومن إلا أنفسنا. كيف نتوقع أن يكون عامة علماء الإسلام أشجارًا ناطحةً راسخةً وتُربتهم نحن كالرمال الجافة المتطايرة؟

وبيان أن رفع العلم يكون عقابًا من الله هو قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) "يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، تَعَلَّمُوا الْفَرَائِضَ وَعَلِّمُوهَا فَإِنَّهُ نِصْفُ الْعِلْمِ، وَهُوَ يُنْسَى، وَهُوَ أَوَّلُ شَيْءٍ يُنْزَعُ مِنْ أُمَّتِي"[2]. ففي الحديث دلالة أن فقدانه من العقاب لأن قيل عنه إنه يُنسى ويُنزع، وقد قال السندي (رحمه الله) في شرح الحديث إن ذلك يحدث لقلة اهتمام الناس به. وذلك عقابٌ من جنس العمل لأنهم تخلوا عن العمل بكتاب الله اختياريًّا –عدم تطبيق العلم وعدم تعلم العلم يتساويان من حيث الجانب الملموس على الأرض–، فعاقبهم بحرمانهم حتى من نعمة معرفته فأصبح عدم تطبيقه إجباريًّا عليهم لا اختياريًّا.

ومن علوم الفرائض هو علم المواريث الذي إذا رُفع تاه الناس وكثر الخلافات والظلم وقطع الأرحام وربما حتى تقاتل الأقارب، وما أدرانا أبعاد ذلك البلاء لأنه لن يُعرف من يستحق كم من ماذا وكيف يأخذه، وكله بسبب تخلينا عن التمسك بديننا. حينئذ تَعُمَّ تيهة الناس في الأرض والفساد إذ لا يعرفون الحق من الباطل، فأي عيشة تلك وما فائدة خوضها؟!

وقال أيضًا سيدنا عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه): لَيُنْتَزَعَنَّ هذا القرآن من بين أظهركم، قيل له: يا أبا عبد الرحمن، كيف يُنتزع وقد أثبتناه في قلوبنا وأثبتناه في مصاحفنا؟ قال: يُسْرَى عليه في ليلة فلا يبقى في قلب عبد ولا مصحف منه شيء، ويصبح الناس كالبهائم، ثم قرأ قول الله تعالى {وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلا} [الإسراء 86][3]. وهذا يدل على أن القرآن يُرفع في آخر الزمان لفساد الناس وتركهم لشرع الله، كما قال ابن كثير (رحمه الله) في تفسير الآية. وجاء أيضًا في تفسير ابن كثير أن ابن مسعود (رضي الله عنه) قال: يطرق الناس ريح حمراء (يعني في آخر الزمان من قِبَل الشام) فلا يبقى في مصحف رجل ولا في قلبه آية، ثم قرأ ابن مسعود {وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا} [الإسراء 86].

[1] صحيح البخاري 98.

[2] سنن ابن ماجه 2710.

[3] المعجم الكبير للطبراني 8698؛ قال ابن حجر في فتح الباري (16/13): سنده صحيح ولكنه موقوف؛ وصححه الألباني.

فاعلم أخي أنك لست الذي تُحدد طبيعة علاقتك بالعلم وأين ينتهي معك، إنما هو الله الذي يفرض حُكمه، فإن رآك مُقبلًا على العلم عاملًا به فتح عليك منه ما شاء، وإن رآك متخليًا عن تعلمه مُتخاذلًا في تطبيقه نزعه عنك حتى لا تعلم الحق من الباطل، وابتلاك بالفتن التي تتيه فيها. وذلك لأن معرفة الحق من الباطل وقدرة التفرقة بينهما نعمتان من الله تعالى، ويتحققان عن طريق إدراك علوم الفقه مع تطبيقه، فمن علم ثم أعرض كان حقًّا لله أن ينزعه من ذلك الشخص حتى يتيه ولا يستطيع أن يُفرِّق بين الحق والباطل، فأي انتكاسةٍ تلك!

وكمبدأ عام، لو شاع إعراض الناس عن علوم الإسلام، فإن الله يُنجِّي المصلحين ويُنزل عقابه على المُعرضين، سواء بالفتن أم بعذاب مُهلك {فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ} [الأعراف 165]، {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (17) وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} [فصلت 17–18]. أما في آخر الزمان فإن الله يقبض أرواح المصلحين بلطفٍ (بريحٍ طيبةٍ)، ثم تبدأ أهوال القيامة على الفسدة المفسدين، وهم شرار الخَلق. هؤلاء الباقين لا يُبالي الله بأمرهم ولا لما يحدث لهم، فيُهلكهم ولو جميعهم بأي نوع من العذاب شاء، وهذا مُشار إليه في عدة أحاديث، منها "يَذْهَبُ الصَّالِحُونَ الْأَوَّلُ فَالْأَوَّلُ وَيَبْقَى حُفَالَةٌ كَحُفَالَةِ الشَّعِيرِ أَوْ التَّمْرِ، لَا يُبَالِيهِمْ اللَّهُ بَالَةً"[1].

والدليل على أن العلم نعمة من الله هو قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "مَنْ يُرِدْ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَاللَّهُ يُعْطِي، وَلَنْ تَزَالَ هَذِهِ الْأُمَّةُ قَائِمَةً عَلَى أَمْرِ اللَّهِ لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ"[2]. فمن فرَّط في العمل بما عَلِم يُنَزِّه الله العلم عنه، أي أن من يترَّفع عن تطبيق العلم قد جعل لله حُجَّةً في أن يرفع العلم عنه، ولن يكون مظلومًا، بل العبد هو الذي ظلم العلم.

فقدان البصيرة

إن قُدرة إبصار الأمور على حقيقتها نعمة يمن الله بها على عبده، وتلك النعمة يعطيها لعباده المتقين المؤمنين خصوصًا، لأن من يتفقه في الدين ويتقي الله يكون على قاعدة راسخة، فيُبارك له الله ويتفضل عليه لسعيه في العلم والعمل بأن يُجنِّبه الانخداع بتيارات الدنيا. الفقيه التقي يرى حقيقة الأمور كما تعلم من الإسلام، عن طريق المواعظ والعبر التي في القرآن والسُنّة، فينظر إلى أفعال الناس ولا ينظر فقط إلى كلامهم، فالأفعال أدل من الكلام على نيات المرء ومُعتقداته، إذ

[1] صحيح البخاري 5954.

[2] صحيح البخاري 69.

يظهر فيه ما يُبطِنه مثل إن كان عنده رياء، أو مُتَّبعا لشهوته، أو مُتستِّرا بالإسلام مثل المنافق، إلخ. هذا وأن الله يُريه في الأمور ما لا يُريَ عباده الآخرين، فذلك العبد يرى بنور الله. وذلك ما جاء في الحديث عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ، فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ"، ثُمَّ قَرَأَ {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ}[1].

وبحسب درجة إيمان المرء تكون قوة فراسته، فمن المؤمنين من يصيب في رؤية حقيقة الأمور بوضوح تام فقط ببعض المؤشرات فيُدرك حقيقة المشهد سريعًا. وهناك من المؤمنين من يُخطئ ويصيب في رؤيته، ولا يرى الأمور بوضوح تام، ويحتاج إلى كثير من المؤشرات وبعض الزمن كي يستشف حقيقة المشهد، كُلٌّ بحسب درجة بُعده عن معصية الله. أما من يُسرف في المعاصي فلا يرى الأمور على حقيقتها مهما كثرت المؤشرات ومهما طال الزمن، بل وقد يرى الباطل حقًّا والحق باطلًا فيلتبسان عليه، وينتهي به المطاف أنه يتثبت بالباطل ويُفادي نفسه من أجله، فيكون قد وقع ضحية لفتنة من الفتن {الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا} [النساء 76].

أما من جهل عن دينه، فيكون تائهًا عديم الخِبرة في الدنيا، كورقة الشجر تُحركها الرياح التي حولها كما تشاء، فيُصبح ذلك العبد مُعرضًا للتأثر بمعتقدات غيره خاصةً لو كان غيره أذكى منه أو أفضل منه في أمور الدنيا كالعلم المِهَني أو المال أو السلطة أو الشهرة. فإن سلم أو أعرض عن معتقدٍ فاسدٍ لأحدٍ فسيقع في آخرٍ، ويُقبِل عليه لأنه يتخبط في الأرض ولا يدري أن ذلك فساد، وتكون عاقبته أنه أهلك نفسه بسبب جهله، فيقع في الفتن في حين المؤمن يفادي الفتن (بعون الله وتثبيته له) فيسلم منها.

وقد رأينا ذلك على أرض الواقع إذ إن أُناسًا يُعرضون مبدأ يتعارض مع الشريعة ويُروجونه، ويزعمون أنه فيه صلاح للناس، ولكن أفعالهم ينتج عنها الفساد في أعين المُستبصرين، إضافة إلى أن تقصيرهم في فرائض الشريعة الإسلامية يكون واضحًا (مثل الصلاة والزكاة)، ولكن تجد أناسًا لا يزالون يؤيدون ذلك المُفسد. ومن أوضح الأمثلة عبر الأزمنة هو الحاكم الذي يقول إنه يريد إصلاح الأمة، ثم يمضي في ذلك باضطهاد فئة من المسلمين، فيُقَتِّل فيهم ويسجنهم وعائلاتهم ويظلمهم، ثُم ترى أن له أنصارًا يؤمنون بما يقوله ويثقون ثقةً عمياء في نياته -لأنهم يستعظمونه بالنسبة إليهم أو لفسادهم، ونسوا أنه عبدٌ مثلهم-، فيُبررون ما يقترفه، حتى بعد أن يَهلك وتُفضح أفعاله أيضًا. فلا حول ولا قوة إلا بالله، نسأل الله العفو والعافية في الدنيا والآخرة مع السلامة من أن نُفتتن.

---

[1] سنن الترمذي 3052.

ويخطر على بال المرء: ما هو "النور" الذي يُقال عنه مثلًا "نور الإسلام"، أو أنه يرى "بنور الله"، أو "نور العلم" أو في الدعاء "اللهم اجعل في قلبي نورًا"؟ النور الموصوف هو نور البصيرة، أي دليل ومرشد له كما يكون النور للعين، وهو رؤية الحق بوضوح وتمييزه عن الباطل، وهذا فيه منفعة عظيمة له. وإذا أصبح الفرد عالمًا في علوم الدين وقائلًا لكلمة الحق دون كتمها فإنه يرتقي ليصبح نور إرشاد، وكأن ذلك الشخص منارة المراكب في الفُلك، فيتوجهون نحوها ويعتمدون عليها، كما يستند البنيان إلى الأساس، وذلك فيه منفعة لمن حوله إذ يتعلمون منه. فنور الإسلام هو الحِكَم والمواعظ والعِبر والنصائح والخبرة التي يكتسبها المرء من التعلم والتبحر في علوم الإسلام، فلا يزيغ عن الحق، ولا يُتعتعه أحد عن الحق حين يتيه أغلب الناس ويرتبكون في تمييز الحق من الباطل، بل ويرسخ ذلك المتفقه على الحق وهو متيقن أنه الحق.

وتلك نعمة ينالها المرء بالتطلع في رفائع الفقهيات وإلى سعة علوم الإسلام، مع تطبيقه (ويشمل ذلك الإقلاع عن المعاصي)، فيهبه الله نور البصيرة بما تعلمه وطبَّقه العبد ومكافأةً على جُهده. فنور الإسلام هو شيءٌ حِسِّي يكون المرء به في منزلة متميزة عن سائر الناس، إذ يثبت على الحق عند التعرض للفتن (هذا إذا سلُمت نياته). وفي ذلك الحال يكون قد أكرمه الله وأعزه وأعلى قدره ومنزلته، ويكون إيمانه راسخًا، فقد أفلح وفاز في الدنيا والآخرة. ولكن المعاصي تُذهب بذلك النور لأنه نور الله، والعبد يستمد ذلك النور من الله فيتدفق ما دام متصلًا بربه، فإن قطع العبد صلته بربه عن طريق عصيانه، تنقطع وصلة ذلك النور ويتضاءل تدريجيًّا.

ذهاب الحياء وخمول الغيرة

إن الإنسان إذا أسرف في المعاصي ينسلت منه الحياء، حتى لا يستحيي من أن يراه الله فيما يفعله، ثم يزداد على ذلك فلا يستحيي من الناس إذا رأوه وهو عليها. ثم يزداد، والعياذ بالله، إلى مرحلة الهلاك إذ يفضح نفسه بعد أن ستره الله وهو يعصيه، بل ويتفاخر أنه كانت له الجرأة لانتهاكها، ويُروِّج للذَّة خوضها. ويجب أن يُعلم أن كل تلك المراحل إنما هي أبواب مُغلقة، تعين العبد على ترك المعصية ما لم يقتحمهم، لأن الحياء من الانتقال إلى المرحلة الأسوأ قد يزجر المرء عن ارتكاب المعصية، شبيهًا بالضمير الذي قد يبلى أيضًا. فالاستحياء من الله باب مانع عن المعصية، والاستحياء من الناس باب مانع آخر، والاستحياء على حفظ ذات المرء –ألا يهين نفسه وألا ينخرط في الأمور المشبوهة– بابٌ آخر، فقد يمتنع المرء عن الخوض في معصية لأحد تلك الأسباب.

والامتناع عن المعصية بسبب الناس ليس بشرك إذا صلحت النية، كأن تكون أساس نيَّته ألا ينحدر حاله في الإيمان، أو أن صميم الوضع أنه يريد الامتناع عن المعصية لله ولكن يدفعه إخوانه أو الناس، أي كانوا سببًا وليسوا غايته. مثلًا، إن خشي المرء أن يفتن الناس وينتشر الفساد، أو من

أن يزداد وزرًا إذا تمثَّلوا به، وهذا تسبب في إعراضه عن المعصية، فله حسنات إن شاء الله. أما إن امتنع كي يقول الناس عليه تقي، وإن في نيَّته ارتكاب المعصية عندما يتوارى عن الناس، فذلك هو الرياء –والذي هو الشرك الأصغر الذي به لا يُعطي الله على العمل أجرًا–، لأنه يمتنع للناس ولا يمتنع لله عامةً، يقصد إظهار خلاف ما هو عليه.

وهذا الذي يُقصد في الحديث عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "لأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا فَيَجْعَلُهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا"، قَالَ ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا، جَلِّهِمْ لَنَا أَنْ لا نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لا نَعْلَمُ، قَالَ "أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ وَيَأْخُذُونَ مِنْ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا"[1]. أما من يستتر من الناس ويفعل المعصية في الخفاء حياءً، فهذا ليس بنفاقٍ وإنما هو ضعف الإنسان، خاصةً إذا كان يندم بعد المعصية، وذلك أدعى أن يُغفر له إذا استغفر، وهو ليس ممن شملهم هذا الحديث.

هذا لأن الإسلام حث على إخفاء المعصية في الأصل، كما قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) "اجتنبوا هذهِ القاذوراتِ التي نهى اللهُ تعالى عنها، فمنْ ألمَّ بشيءٍ منْها فليستتر بسترِ اللهِ وليتب إلى اللهِ، فإنَّه منْ يُبدِ لنا صفحتَه نُقِمْ عليهِ كتابَ اللهِ"[2] (نُقِمْ عليهِ كتابَ اللهِ أي يُعاقَب بحسب أحكام كتاب الله ويُقام عليه الحد إن انتهك حدًّا). وذاك رحمةٌ بالمُسلم وحفاظٌ على عامة الناس بألا يفتتنوا فتنتشر المعصية بأمراضها.

وعلى الوجه الآخر، فالحياء مرتبطٌ بغيرةِ المرءِ، إذ إنهما يرتبطان بحفاظ المرءِ على نفسه وماله وعرضه وأقاربه. فما إن يبلى حياؤه إلا وتتبلد غيرته معه وذلك لسببين، أولهما أنه ينتهك حرمات غيرهِ فلا يستطيع أن يمنع الآخرين من انتهاك حرماته، ويتعايش مع الصراع الداخلي في نفسه إذ تغلب بمنطقه الفاسد فكرة قبول الظلم المتبادل بدلًا من المُحافظة المتبادلة. هذا بالإضافة إلى أنه لا يعترض بناء على غيرته لأنه داخليًا يكون مُنكسرًا وذليلًا بسبب إفراطه في المعاصي.

والسبب الثاني أن حياءه الذي ذهب نتيجة انغماسه في المعاصي أيضا يُسبب تبلُدًا في مشاعرة، إذ يعتاد على رؤية وخوض تلك الانتهاكات، بل ويألفها ويرى مميزات المعاصي ولا يرى سلبياتها، فيُحبها. فتذهب نخوته تدريجيًا حتى يصبح شخصيةً رخوةً، لا تُثار غيرته كالفرد الطبيعي، فيقبل على نفسه العار بل وقد لا يرى ما المانع، بل قد تسوء حالته أكثر فأكثر حتى يمشي ترافقه زوجته وهي متبرجة ومتكشفة ومتعطرة تمر على الرجال، ويرى أن ذلك من سيمات الرُقي والتقدم، بل وقد يتباهى بها وهي معروضة هكذا ويفرح عندما يعجب الرجال بجمال زوجته ويمدحون له فيها. فأي

---

[1] سنن ابن ماجه 4235.

[2] الجامع الصغير للسيوطي 175؛ خلاصة حكم المحدث: صحيح.

رجولة ونخوة تلك؟ وهل قيمة المعاصي عند النفس تُغطي ثمن بتر الرجولة من المرء؟ فالسببان المؤديان للتبلد يكون أحدهما عقليًّا والآخر حِسّيًّا.

ثم بالطبع، وكما قد يستنتج البعض أن الغيرة أيضًا نوع من أنواع العون للعبد (من الله) على الامتناع عن معصية الله، فمن تذهب منه الغيرة يفقد سلاحًا من أسلحة محاربة المعاصي. وحال الرسول (صلى الله عليه وسلم) يؤيد أن الغيرة تجعل المرء وقافًا عند حدود الله وغيورًا إذا انتهكها أحدٌ، كما أشارت السيدة عائشة (رضي الله عنها) فيما ترويه: وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِنَفْسِهِ إلا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللَّهِ فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ بِهَا[1].

انقلاب حال المرء من النعيم إلى الضيق، ومن اليُسر إلى العُسر، ومما يُحب إلى ما يكره

من القواعد التي ينبغي أن يعلمها المرء هو أن بما أن كل شيءٍ حرَّمه الله فيه ضرر للإنسان، ولهذا حرَّمه الله، فهذا يعني أن من يعصي الله سيتضرر ويُصاب بالأذى، ولو تأخرت إصابته أو ظهور أعراض ذلك الأذى، ولكنه سيحدث لا محالة. قال تعالى {فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ} [الزمر 51].

ثم إن الله بيده ملكوت السماوات والأرض، وهو الذي يهب النعم على عباده بقَدَرٍ بحكمته المطلقة. فإذا عصى العبد ربه، أفليس ذلك أدعى أن يرفع الله نعمه من عبده، خاصة أن مجرد عدم شُكر النعمة بابٌ لاستحقاق نزعها؟ ودرجات عقوبة المرء بعد الإنعام من ربه تكون بحسب كمّ ونوع ومُعدل عصيان العبد لربه، فهي تبدأ بمنع رزق كان مُتجِّهًا إليه، كما دل جزء من حديثٍ لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) "وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ"[2].

والدرجة الأشد التي تليها لا تكون فقط بحرمان العبد من الرزق، بل وسلب نعمة من النعم التي عند العبد بالفعل {فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ} [سبأ 16]. "سَيْلَ الْعَرِمِ" هو سيل أتى من وادي اسمه العرم، وقيل إنه اسم السد الذي كان يحبس الماء؛ "أُكُلٍ خَمْطٍ" هو ثمر الأراك، النبت المُرّ الذي لا يمكن أكله. "وَأَثْلٍ" هو نوع من الشجر يُشبه شجر الطرفاء، نوع من الشجر كثير الشوك؛ "سِدْرٍ" هو ما يُعرف بالنبق، نوع من الثمار التي يقل الانتفاع بها.

ثم تأتي الدرجة الأسوأ، وهي منع الرزق وسلب النعمة، وفوق كل هذا إرسال الله من عذابه على العبد بدرجاته، مثل الأمراض أو الزلازل، أو حتى مَهلَكةٍ تُبيد القرية مثل ما حدث مع عاد وثمود

---

[1] صحيح البخاري 3296.

[2] سنن ابن ماجه 4012.

وقوم لوط. قال تعالى {أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ} [الأنعام 6].

الخلاصة هي أن المعصية تقلب حال المرء إلى الأسوأ، وإن ظلت معه تلك النعمة ظاهريًّا (أو حتى زادت من باب استدراج الله للعبد)، مثل نعمة المال الكثير، فيجعلها الله آنذاك نقمةً على العاصي. ذلك بأن تنقلب فتكون عليه وزرًا وحملًا يوم القيامة بدلًا من نعمة وأجر، وتُرهقه في الدنيا للمحافظة عليها، وتُلهيه عن التقرب إلى الله بدلًا من أن تكون تيسيرًا وعونًا له على طاعة الله. وقد يبتليه الله بالأمراض والنفقات فيظل ينفق من ماله الكثير فيما لا يُحب، فلا يكون له نصيب كبير منه يُنفقه على ما يشتهي، بالرغم من وفرته. فمعصية الله، كمبدأ عام، تقلب حال العبد من اليُسر إلى العُسر، وطُرُق حدوث ذلك متعددة، تؤدي إلى التعسير على المرء في قضاء الالتزامات والحصول على الاحتياجات ودفع البلاء، وسيتم تداول كثير منهن في الأبواب القادمة إن شاء الله.

ذهاب الرزق والبركة في الرزق

بدايةً، ينبغي توضيح الفرق بين ذهاب الرزق بالكلية وبين ذهاب بركته. وبالمثل على نعمة المال، فذهاب رزق المال هو أن لا يصل إلى العاصي من الأساس، وأما ذهاب بركته فهو أن المال يصل إلى العاصي، ولكن تظهر له مصاريف مثل غرامة من الدولة يضطر إلى دفعها؛ فقد بلغ المال يده ولكنه لم يستفِد به، إذ كأنه لم يأتِه المال ولم تأتِه الغرامة. فحقيقة الوضع هو أن المرء يحتاج إلى الرزق وأيضًا إلى البركة في الرزق كي يستطيع بلوغ الاستفادة.

قال تعالى {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ} [الأعراف 96]، ففي الآية دلالة على أن الإيمان والتقوى يجلبان الرزق من الله. وهذا أيضًا يعني أن الكفر والعصيان لا يجلبان الرزق، بل ويمنعانه ويجلبان العقاب. وينبغي إدراك أن مصطلح الرزق شمولي، بمعنى أن كل نِعَم الله تُعتبر رزقًا، فلا يقتصر مفهوم رزق الله على مسألة المال، فإن الهداية والصحة والزوجة والذُرية أمثلة على الرزق. وبهذا المفهوم، قد يُحرَم العاصي من زوجة صالحة، أو يُحرَم من زوجة مؤقتًا فيتأخر في الزواج، أو نهائيًّا فلا يتزوج، وهذا بالرغم من وفرة المال لديه؛ ويُقاس على مثل هذا سائر أنواع رزق الله التي لا نُحصيها. ومن ثمَّ، يتبين أن حرمان الرزق قضية مُعقَّدة، تكون كيف يشاء الله فيما يشاء الله وبالقدر الذي يشاؤه.

ومن أنواع الرزق الذي يذهب هو رزق الآخرة، أي تفويت فرص إعلاء منزلة العبد في الآخرة بإتمام أعمالٍ صالحةٍ في الدنيا، وهذه أفدح الخسارات في الرزق –الخسارة من رزق الآخرة. ومن طُرُقها: ذهاب بركة الوقت، فلا يستطيع العاصي إيجاد الوقت لجمع أعمالٍ صالحة، ومن ثمَّ يُحد من

منزلته يوم القيامة، وهذا دون وضع في الاعتبار وزر المعاصي التي تحط من المنازل إضافةً. فقد يقول المرء المُقَصِّر في عمله إنه لا يملك الوقت للاستزادة من الأعمال الصالحة لانشغاله بمتطلبات الدنيا، ولكن كثيرًا ما يكون ذلك بسبب المعاصي، ولو أنه أيقن أنه سيموت قريبًا لترك المعاصي ومتطلبات الدنيا ليوجِد وقتًا للأعمال الصالحة.

فإن المعاصي لا تُضعف عزيمة المرء في الإقبال على الأعمال الصالحة فحسب، بل إن الله ينزع بركة الوقت عند العبد أيضًا. فالذي يعصي ربه كثيرًا يجد أن يومه يمر سريعًا، فلا يستنفع منه لنفسه بالأعمال التي تنفعه في الآخرة، وذلك لأنه لا يجد وقتًا لفعل العمل الصالح، وربما أيضًا لأمور دنياه التي يتلهف عليها، فأي خسارة تلك؟ قد قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَتَقَارَبَ الزَّمَانُ فَتَكُونُ السَّنَةُ كَالشَّهْرِ، وَالشَّهْرُ كَالْجُمُعَةِ، وَتَكُونُ الْجُمُعَةُ كَالْيَوْمِ، وَيَكُونُ الْيَوْمُ كَالسَّاعَةِ، وَتَكُونُ السَّاعَةُ كَالضَّرَمَةِ بِالنَّارِ" (كَالضَّرَمَةِ بِالنَّارِ أي الشيء الذي يُوقد به النار مثل القصب أو الكبريت أو العود، فعادة ما يحترق سريعًا)[1].

وربما أيضًا يبتليه الله بأن انشغالات الحياة تُصب عليه صبًّا، فينشغل بها. ولو أن المرء جعل الدنيا هينة عليه وأقبل على طاعة الله، لكفاه الله كثيرًا من تلك الانشغالات إذ إن كل شيء بيد الله، وذلك ما دل عليه قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) "مَنْ جَعَلَ الْهُمُومَ هَمًّا وَاحِدًا: هَمَّ آخِرَتِهِ، كَفَاهُ اللَّهُ هَمَّ دُنْيَاهُ؛ وَمَنْ تَشَعَّبَتْ بِهِ الْهُمُومُ فِي أَحْوَالِ الدُّنْيَا لَمْ يُبَالِ اللَّهُ فِي أَيِّ أَوْدِيَتِهَا هَلَكَ"[2]. ولكن ذاك المُعرِض عن الله أقبل على الدنيا فشغله الله بها، والمُحَصِّلة أنه قد يَكِدُّ طوال الأسبوع فيعمل أزيد من فترات العمل الطبيعية وبالكاد يُوفِّي احتياجات بيته، فمن يقبل بهذا، ومن أجل ماذا؟

وذلك كله جزاء من الله إذ إن العبد أعرض عن منهج ربه عامةً وأقبل على الدنيا، فكلَّفه الله من الدنيا ما يمنعه من فعل الطاعات التي يختارها ويُحبها العبد. هذا لأن ليس للعبد أن يختار شرائع تُناسبه دون شرائع أُخرى، إذ إن كل ما يفعله العبد من طاعات إنما هو بتوفيق الله. فذاك من مكر الله بالعاصي، بأن يمنعه من الفوز بغنائم ترفع من منزلته، مثل المواظبة على الأذكار، أو حضور دروس علم، أو ما شابه ذلك مما يحتاج إلى بعض الوقت من العبد لإتمامه أو يحتاج إلى حضور الذهن.

وأكبر دليل على ذلك هو ما يشعر به المعتكف في المسجد، خاصةً في أواخر رمضان، وذلك لأنه انفصل ليس فقط عن المعاصي، بل وعن هموم مقتنيات الدنيا ومشاغلها ومتاهاتها، وحتى عن المباح من الدنيا عامةً مثل مُعاشَرة الزوجة. والنتيجة أنه يجد نفسه يقوم مع القائمين لساعات، ويقرأ من القرآن بالساعات، ويُحافظ على الأذكار، ولا يزال لديه الكثير من الوقت الفائض، وكل ذلك كان يبدو مستحيلًا قبل أن يعتكف ولم يستطع فعله. ولذلك قبل انتهاء رمضان تجد كثيرًا من المعتكفين

[1] سنن الترمذي 2254.

[2] سنن ابن ماجه 253.

يبكون، لأنهم استشعروا لذة الإيمان والقُرب من الله، والأُخوَّة الطيبة، ويخشون من الدنيا التي تخطفهم وتلهيهم وتغريهم وتستنزفهم. فضياع الوقت -غير الوقت الذي ضاع في أثناء المعصية نفسها- عاقبة من عواقب معصية الله، ومكر الله بالعبد حتى لا يستنفع بوقت يومه، فلا يكون من أصحاب الغنيمة من يومه.

وقد أدرك السلف الصالح ومن بعدهم أن المعصية تمنع الرزق، وعكس ذلك صحيحٌ وهو أن الله يرفع البلاء بالتوبة. وهذا كله تحت باب أن الله لا يُغير ما بقوم حتى يُغيروا ما بأنفسهم، فإن أساءوا بدل الله عليهم العافية بالبلاء، وإن أحسنوا فإنه تعالى يُبدل عليهم الشقاء بالرخاء. وهذا يتضح جليًّا في ما جاء عن سيدنا أنس بن مالك (رضي الله عنه) أن سيدنا عُمَر بن الخطَّاب (رضي الله عنهما) كان إذا قَحَطُوا (أي مُنع عنهم المطر من السماء فأصابهم القحط) اسْتَسْقَى بِالْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ (رضي الله عنه) فيقول: اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا فَتَسْقِينَا، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا؛ قَالَ (سيدنا أنس): فَيُسْقَوْنَ[1].

آنذاك كان سيدنا العباس بن عبد المُطلب (رضي الله عنه) يقول: اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَمْ يَنْزِل بَلاء إلا بِذَنْبٍ، وَلَمْ يُكْشَف إلا بِتَوْبَةٍ، وَقَدْ تَوَجَّهَ الْقَوْم بِي إِلَيْك لِمَكَانِي مِنْ نَبِيّك، وَهَذِهِ أَيْدِينَا إِلَيْك بِالذُّنُوبِ وَنَوَاصِينَا إِلَيْك بِالتَّوْبَةِ فَاسْقِنَا الْغَيْث؛ فَأَرْخَتْ السَّمَاء مِثْل الْجِبَال حَتَّى أَخْصَبَتْ الأَرْض، وَعَاشَ النَّاس[2]. ففي هذا إشارة أن سيدنا العباس كان يعلم أن الذنب يمنع المطر، وهو رزقٌ ونعمةٌ من الله. وحقا، فإنه لا ينزل بلاء إلا لمعصية ارتكبها المرء، كما نبأ تعالى مخاطبًا الناس عن طريق الرسول (صلى الله عليه وسلم، إذ إنه لم يُذنب قط) {مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا} [النساء 79].

وأريد أن ألفت النظر إلى نعمةٍ قد لا يراها كثير من الناس، ألا وهي حُسن الخاتمة (فهي ضمن رزق الله للعبد)، فإما أن يرزقها الله للعبد أم لا. وفي هذا الصدد أريد أن أقارن بين نهج الرعيل الأول من الخلفاء -أبي بكر وعمر وعثمان وعلي (رضي الله عنهم جميعًا)- في الحُكم وبين نهج الظالمين في حُكمهم، ولنُقيِّم عاقبة كل فريق منهم. فقد كان عدل الرعيل الأول من الخلفاء مثالًا يُحتذى به، فحين جاء أجلهم لم يندموا على أفعالهم كخلفاء، وإنما خشوا أن يكونوا قد أخطأوا أو أخفقوا وهم لا يشعرون، وذلك من تقواهم وإتقانهم!

وعلى الوجه الآخر أضرب مثل الحَجاج، وهو كان أحد الولاة على العراق في فترة من الزمن، وقيل إنه كان كثير الظلم بالرغم من نُصرته للإسلام. فقد كان يُكثر من سفك دماء المسلمين، حتى إنه اشتُهر بذلك، وتجرأ فقتل وصَلَبَ صحابيًّا ابن صحابي من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه

[1] صحيح البخاري 954.

[2] فتح الباري لابن حجر العسقلاني 497/2.

وسلم) وهو عبد الله بن الزبير بن العوام (رضي الله عنهما)، وأُمّه هي أسماء بنت أبي بكر الصديق (رضي الله عن الصحابة أجمعين)! ومن غلظته ترك عبد الله بن الزبير مصلوبًا، فرأته أمه أسماء بنت أبي بكر، بل وتهكّم عليه أمامها بعد صلبه.

وانتهى ذلك العهد قُبيل وفاته عندما حكم على سعيد بن الزبير (وهو تابعي تقي فقيه عابد من كبار العلماء التابعين) أن يُقتل لأنه كان مناهضًا لحُكمه، فدعى عليه سعيد بن الزبير (رحمه الله) قبل أن يُقتل: اللَّهُمَّ لا تُسَلِّطْهُ عَلَى أَحَدٍ يَقْتُلُهُ بَعْدِي[1]. فانظروا إلى دعاء سعيد، فإنه يدل على مدى أدبه مع الله، ويقينه فيه، وفقهه في الدين، إذ مقتضى الدعوة أنه لم يسأل لنفسه أن يدفع الله عنه بطش الحجاج –وذلك من قمة إيمانه ورضائه بالقدر، فلم يشأ رد ما كتبه الله عليه بالدعاء بالرغم أنه كان مستجاب الدعوة!–، ولكنه دعى ألا يُصاب إخوانه بظلم الحجاج بعده، مما يدل على أنه مهموم على إخوانه المسلمين ومدى حبه لهم وحرصه عليهم.

وقد كان، إذ استجاب الله دعاء سعيد فلم يقتل الحجاج أحدًا بعده، فمرض الحجاج ولم يمكث أمدًا بعد تلك الواقعة، حتى إنه كان يتندّم ويُعاتب نفسه وهو يعاني قبل وفاته قائلًا: ما لي ولسعيد بن جبير؟! كلما أردت النوم أخذ برجلي![2] وروي أن الحجاج لم يلبث بعده إلا أربعين يومًا، فكان إذا نام يرى سعيد في المنام يأخذ بمجامع ثوبه ويقول للحجاج: يا عدو الله فيمَ قتلتني؟ فيقول الحجاج: مَا لِي وَلِسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، مَا لِي وَلِسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ؟![3].

فقد قُتل سيدنا عمر بن الخطاب وسيدنا عثمان بن عفان على أيدي الظالمين، فعمر طُعن وهو يؤم الناس في الصلاة، وعثمان طُعن وهو يقرأ القرآن، وقد بلغ من حرص سيدنا عثمان من أن يَظلِم أحدًا ومن نشوب الفتنة بين المسلمين إلى حد أنه نهى أنصاره من مقاتلة المسلمين الذين رغبوا في قتله، وأنه إذا مات أن يقتصُّوا من القاتل وحده! أما مع الحجاج فكان عاقبته العكس، فقد مات ميتة ذليلة انتقاميةً من الله بسبب ظُلمه –قتل الصالحين–، فسبحان الله على انقلاب الأوضاع.

والهدف من سردي هذه المقارنة هو أن أُعطي مثلًا على مآل الظالم والعاصي، فإن الظُلم ومعصية الله يجعلان المرء يفوته خيرًا كان مُقدرًا له في الأصل وسارٍ نحوه، فيُحوّل الله مسار ذلك الخير فيتخطى الظالم، وذلك من نقمة الله عليه. وفي هذه الحالة كانت حسن الخاتمة، فبينما نال الرعيل الأول من الخلفاء حسن الختام، بل والشهادة لبعضهم، كان نصيب الحجاج أن حسن الخاتمة فاتته وأبدله الله بها موتةً ذليلة في الدنيا مسخوطًا عليه من الله بدعوة المظلومين عليه، والأكثر قهرًا له أنه أدرك ذلك قبل موته.

---

[1] سير أعلام النبلاء للذهبي، باب: الطبقة الثانية، سعيد بن جبير.

[2] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للأصبهاني 48/2.

[3] البداية والنهاية لابن كثير، باب: ثم دخلت سنة أربع وتسعين، مقتل سعيد بن جبير رحمه الله.

وفوق ذلك كله أن أمامه المُحاسبة على من ظلمهم، وفوَّت على نفسه شرف وميزة أن يُظله الله يوم القيامة مع فئة الإمام العادل. فتلك المقارنة ليست مثالًا على أن الظالم قد يفوته الخير ويُمنع الرزق فحسب، بل وقد يجلب مكر الله أيضًا، فقد استدرج الله الحَجاج بغروره وتجبره حتى تجرأ وسفك دم رجلٍ مُجاب الدعوة عند الله! فأي ورطة تلك؟!

أختم هذا الباب بواقعة رأيتها شخصيًّا، وهي ظاهرةٌ عجيبةٌ لم أستطع فهم جميع أبعادها حتى الآن، إلا أن الله قد وعد بها فآمنت أنها عقوبة من الله، ألا وهي غلاء السِلَع، كما أشار الحديث الذي ذُكر سابقًا "وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إلا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمَئُونَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ". وهناك حديث صريح أكثر أن أسعار السِلع إنما هي بيد الله حقيقةً، قاله سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) عندما جاءه أناس فقالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ غَلَا السِّعْرُ فَسَعِّرْ لَنَا (أي ضع سعرًا مُحددًا للسِلَع)، فقال "إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُسَعِّرُ الْقَابِضُ الْبَاسِطُ الرَّازِقُ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَلْقَى اللَّهَ وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْكُمْ يُطَالِبُنِي بِمَظْلَمَةٍ فِي دَمٍ وَلَا مَالٍ"[1].

بِالسِّنِينَ أي القحط أو حتى المجاعة، وشدة الْمَئُونَةِ هي صعوبة تحصيل المرء لاحتياجاته، بدايةً من الطعام والشراب، وهذا بالطبع يعني غلاء أسعار جميع البضائع. فقد عاصرت الغلاء وهو يحدث بطريقة فجّة، حتى إن السلع الغذائية عامةً ارتفعت إلى خمس أضعاف –وربما أكثر– في خلال عشر سنين، ومنها ما بلغ عشرة أضعاف. أما الأسباب الفرعية فهو بسبب فساد التُجار (مثل الانتقاص في أثناء المكيال والميزان كما ذُكر)، وكثرة الوسطاء في نقل البضاعة، والطمع الفاحش في المكسب، واحتكار السلع، ولكن يبقى السبب الرئيسي وهو أنه عقاب من الله لابتعاد الناس عن منهجه. ووضوح عقاب الله بلغ ذروته عيانًا بالنسبة إليَّ عندما رأيت تاجر فاكهة قد بالغ في رفع سعر سلعة مُحددة إلى حد أنه يكاد لا يخفى على أحد أن هذا سعرٌ شاذٌ، فلم يشترِ الناس من هذه السلعة إلا القليل، وظل الوضع هكذا عدة أيام حتى فَسدت، وتم إلقاء أكثر من نصف هذه الفاكهة في المُخلفات.

آنذاك تبين لي بوضوح جزء كبير من كيفية حدوث المشكلة، ألا وهي أن التاجر ينظر إلى الأرباح ولا يكترث أن يُهدر الجزء الأكبر من البضاعة بعد ذلك، والغالب أنه بهذه الحركة قد ازداد ربحه بالفعل. والنتيجة الفعلية هي أن أناسًا كثيرين حُرِموا من أكل هذه الفاكهة اللذيذة، والبعض الذي اشتراها قد أخذها بسعرٍ غالٍ جدًّا، في حين تم التخلص من النسبة الأكبر من المحصول في المُخلفات والناس ينظرون بتحسرٍ، فالواقع هو أنهم لم يستطيعوا نيل الفاكهة ورأوها وهي تُرمى. فأي تناقض هذا في الأوضاع؟ وأي ذهاب للبركة هذا؟ ولكنه يتحقق عندما يغضب الله على قوم.

---

[1] سنن أبي داود 2994.

الشيطان يتَّخذ العاصي قرينًا ويُلازمه، مما يترتب عليه عواقب وخيمة

قال تعالى {وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (36) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (37) حَتَّى إِذَا جَاءنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ} [الزخرف 36-38]. هكذا يقود الشخص نفسه إلى الهلاك، يُعرض عن الله فيُحبه الشيطان لفعله، ويكن له قرين. إن الله ليس بظالم، فالمُعرض عن ذكر الله -أي يستهين بطاعة الله- يجلب الشيطان لنفسه، وقد استحق أن يُقيض الله له شيطانًا لأن من عادى الله بالإعراض عنه وجبت له أن يُجمع مع أعداء الله، وهم الشياطين.

هذا بالإضافة إلى أن من يُعرض عن الحليف أقبل عليه العدو توددًا في عُرف سياسات البلاد حتى، وتلك سُنَّة الحياة، وكذلك تجد الشيطان يُقبل على ذلك المرء لإعراضه عن الله. وهنا يكيد الشيطان لنا، بأن يرينا أعمالنا (الصالحة فعليًّا منها) على أنها كافية لتُنجّينا من العذاب، وقد تكون هذه الأعمال قليلة ولكن يُطَمِّعنا بالأماني، بل والأدهى أن هذه الأعمال قد يعدها المرء أنها صالحة وهي في الواقع أعمال مُفسدة باطلة عند الله! ويسأل المرء نفسه: هل يملك الشيطان ميزان الله حتى يكيل لنا أنجونا أم هلكنا؟

مثل هذا الشخص بهذه الأعمال القليلة التي يستعظمها، في حين أنه يُحَقِّر من أثر أعماله القبيحة أو يُعذِّر نفسه لفعلها (وينساهم أخيرًا)، يبلغ أنه يطمع في الجنة لأنه يرى أنه يستحقها بتلك الأعمال، فأي تيهٍ بعد ذلك التوهان؟ وتعظيم الأعمال الصالحة من الغرور والتكبر، وتلك صفتان يبغضهما الله أن يجدهما في عباده، وكفى بهما قبحًا لدرجة أنهما قد يُبطلان العمل الصالح عند الله. وعلى الوجه الآخر، فإن الله يُضَاعف في أجر الأعمال الصالحة المُقدمة بذلّة وانكسار وفقرٍ وتواضع، وبعد كل هذا يخاف العبد ألا تُقبل، لأن العبد يستيقن أنها هينّة بين يدي عظمة الله، حينئذ يُعظِّمُها الله.

والأدلة على هذا الكلام كثيرة، منها ما جاء في القرآن الكريم مثل قوله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (57) وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (58) وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ (59) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (60) أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ} [المؤمنون 57-61]. قد جاء في تفسير ابن كثير (رحمه الله) لهذه الآيات: "إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ" أي هم مع إحسانهم وإيمانهم وعملهم الصالح مشفقون من الله خائفون منه وجلون من مكره بهم. وجاء عن الحسن البصري (رحمه الله) أنه قال: إِنَّ الْمُؤْمِنَ جَمَعَ إِحْسَانًا وَشَفَقَةً، وَإِنَّ الْمُنَافِقَ جَمَعَ إِسَاءَةً وَأَمْنًا؛ وَتَلا هَذِهِ الآيَةَ {إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ

مُشْفِقُونَ (57) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ} [المؤمنون 57-58]، وَقَالَ الْمُنَافِقُ: إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي[1].

وقوله تعالى "وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ" أي يعطون العطاء وهم خائفون وجلون ألا يُتقبل منهم لخوفهم أن يكونوا قد قصَّروا في القيام بشرط الإعطاء، وهذا من باب الإشفاق والاحتياط. وعن السيدة عائشة (رضي الله عنها) وهي تسأل الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن هذه الآية "وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ" قالت: أَهُمْ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ وَيَسْرِقُونَ؟ قَالَ "لا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُمْ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لا يُقْبَلَ مِنْهُمْ، أُولَئِكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ"[2] (انتهى). فسبحان الله على انقلاب المفاهيم فيما نظنه من ظاهر الآية.

ومن الأدلة ما جاء في السُنة، مثل قول النبي (صلى الله عليه وسلم) "مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلا رَفَعَهُ اللَّهُ"[3]. والعكس يحدث بتقرُّب الشيطان، وهو أن الشيطان يُسَّول للإنسان الإعجاب بالنفس وبالعمل، فيرى أنه قدّم كثيرًا من الأعمال الصالحة العظيمة -سواء فعليًا ولكن يغفل أنه قد يُبطلها، أو في تقييمه المنحاز لنفسه-، وأنه أفضل من كثير من الناس. هذا لدرجة أنه قد يبغي على غيره من هذا المنطلق، أي أنه على الاستقامة فلا بأس أن يحيف على غيره أحيانًا، وذلك من شدة غروره وضلاله. فكما قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ وَلا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ"[4].

وقال أيضًا (صلى الله عليه وسلم) "لا تَحَاسَدُوا، وَلا تَنَاجَشُوا، وَلا تَبَاغَضُوا، وَلا تَدَابَرُوا، وَلا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا. الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لا يَظْلِمُهُ، وَلا يَخْذُلُهُ، وَلا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَاهُنَا (وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ)، بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنْ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ. إِنَّ اللَّهَ لا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ وَلا إِلَى صُوَرِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ (وَأَشَارَ بِأَصَابِعِهِ إِلَى صَدْرِهِ)"[5] (تَنَاجَشُوا هي زيادة سعر السلعة لخداع الغير؛ تَدَابَرُوا أي المعاداة أو المقاطعة؛ وَلا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ أي لا يطلب أحد من رجل اتفق على شراء شيئًا: افسخ اتفاقك وأنا أبيع لك السلعة بأرخص من ذلك أو لأجود من ذلك).

---

[1] الزهد والرقائق لابن المبارك، بَابُ: فَضْلِ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

[2] سنن الترمذي 3099.

[3] صحيح مسلم 4689.

[4] سنن أبي داود 4250.

[5] صحيح مسلم 4650.

فتحقير المسلم لأخيه يُهيئ المُستكبر إلى أن يستبيح مال أو عرض أو حتى دم أخيه الذي يحتقره. والمصيبة أن ذاك المتكبر يُحقِّر أخاه المسلم بسبب معيار من معايير الدنيا، مثل قلة ماله أو ضعف سلطته أو افتقاره للنسب أو ضعف جسده أو ذكائه المحدود أو لون بشرته، كلها أشياء ليس للمستضعف يدٌ فيها، وإنما ذاك نصيبه الذي قسمه الله له. يغفل المتكبرون عن الجزء الأخير من الحديث، أن أساس التقييم الإلهي للعباد هو بالنظر إلى ما في القلوب.

والغريب أن هؤلاء أناس يُعظِّمون أنفسهم فيفتخرون على أناس آخرين، وما يدعو إلى التعجب من الوضع أن كلاهما عبادٌ لله، فكيف يسخر شخص من شخص وهو جالسٌ بجواره في نفس المركب؟! فإنَّ استعظام العمل الصالح أول خطوة في طريق الهلاك لأنه يؤدي إلى التهاون والتقاعس عن الاستزادة من العمل الصالح، ويسوق إلى استسهال ارتكاب المعاصي والتهاون بعواقبها. ذلك لأن من تكبر لن يرى داعيًا في إصلاح النفس، مما يؤدي إلى المنحدر القِيَمي والخُلُقي، فمن لم يصلح باستمرار في نفسه فهو في انحدار. وقد حذر الله من التكبر وعرَّفنا مكاننا بقوله {وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولا} [الإسراء 37]، نظرًا لعواقب التكبر المتعددة الخطيرة.

وهذه الآية تجعل الإنسان يدرك قدر نفسه، فإنه مخلوق من مخلوقات الله وليس بأعظمهم، قد يصبح أكرمهم عند الله إذا أحسن عمله كما هو حال الرسول (صلى الله عليه وسلم)، ولكن قد يكون أيضًا أرذلهم إذا فسد عمله (وأرذل من البهائم). وأنى للإنسان التقي أن يمشي في الأرض مرحًا وهو يحمل هم المحاسبة على ذنوبه؟ فإما أن يمشي المرء مرحًا لأنه لا يُبالي بالمحاسبة، وإما أن همّه بالمحاسبة والذلة التي تصيبه بذنوبه تثقل عليه من أن يمشي في الأرض مفتخرًا أو مرتاح البال. ويجب التوضيح أن هناك فرقًا بين الثقة في النفس والتفاخر، فالثقة ضرورية ولكن التفاخر مذموم، ويفصل بينهما خط دقيق وجب أن يُميزه كل سخص.

ومن الآثار السلبية التي تحدث من اتخاذ الشيطان قرينًا هو الضلال في القول والعمل، سواء أدرك أم لم يُدرك المرء، فقد قال تعالى {فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ اللهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ} [الأعراف 30]. ولكن غالبًا لا يكون مُدركًا مدى قُبح عمله، وهذا في حالة إذا أدرك وأقر أنه على خطأ أو راوده الشك أنه على خطأ. بل وقد يصبح تائهًا فاسدًا لدرجة أنه قد يظن أنه على الصلاح، بل وعلى الحق والهُدى! وذلك من مكر الله بذلك الشخص، لأنه عادة يكون ذلك الشخص قد دعى الشيطان لمصادقته بأقوال أو أفعال شديدة القبح، فيُصاحبه الشيطان، ويأخذ ذلك المرء الشيطان له وليًّا، إذ يتلقى من الشيطان اقتراحاته ويجعله يُملي عليه ما يفعله، فيكون وكيلًا عليه.

ويجب لفت الانتباه إلى أن اتخاذ الشيطان قرينًا أو وليًا ليس هدفًا يُبتغى في حد ذاته، ولكنه يترتب عن أفعال أو أقوال فتجلب رفقته للمرء، والدليل على ذلك هو أنك إذا سألت الضال صراحةً: هل اتخذت الشيطان قرينًا؟ سيقول: لا؛ بل ويرى أنك تُريد إهانته. ذلك لأن من يتخذ الشيطان قرينًا لا ينوي على ذلك أو يقصد ذلك، إنما هو أمرٌ تبعي يقع دون إرادة المرء وهو يسعى لتلبية شهواته. فالحذر أخي من الأفعال والأقوال التي تجلب مرافقة الشيطان وأنت لا تشعر، وهي في كل ما نهى الله عنه.

ينتج من هذا أن يكون للشيطان سلطانٌ على الشخص الذي استدعى الشيطان، فيدفعه دفعًا إلى عصيان الله بحيث يصعب على الشخص ألا يعصي الله أكثر. قال ابن القيم (رحمه الله): وأما السلطان الذي أثبته في قوله {إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ} [النحل 100] فهو تسلُّطُه عليهم بالإغواء والإضلال، وتمكُّنه منهم بحيث يؤزهم إلى الكفر والشرك ويزعجهم إليه، ولا يدعهم يتركونه، كما قال تعالى {أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا} [مريم 83]. قال ابن عباس: تغريهم إغراءً؛ وفي رواية: تشليهم إشلاءً؛ وفي لفظ: تحرضهم تحريضا؛ وفي آخر: تزعجهم إلى المعاصي إزعاجًا؛ وفي آخر: توقدهم؛ أي تُحركهم كما يحرك الماء بالإيقاد تحته. وقال الأخفش: تُوَهِّجَهم. وحقيقة ذلك: أن الأزّ هو التحريك والتهييج[1] (انتهى).

وقال تعالى {وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاء فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ} [فصلت 25]. في هذه الآية يتضح لنا كيف يُضل الله من أعرض عنه، إذ إنه يقيض للمُعرضين –وانظر إلى التعبير يا أخي– قُرناء يلزمونهم فيُزينوا لهم (أكثر مما هي زينة لهم، مما يجعل تركها أصعب)، ما بين أيديهم وما خلفهم، أي كل شيء. قال المفسرون عن قوله تعالى "فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ" إنه ما بين أيديهم هو أمر الدنيا فآثروها وعصوا الله، وما خلفهم هو أمر الآخرة إذ زُين لهم التكذيب بالبعث والحساب. وجاء أيضًا أن ما بين أيديهم وما خلفهم قد يكون ما يُقبلون عليه من معاصٍ وما قد اقترفوه، أي المستقبل والماضي من سوء أعمالهم.

وأقول: قد يكون من المعاني المحمولة أن ما بين أيديهم هو ما في رصيدهم وارتكبوه من معاصٍ، وما خلفهم هو ما فاتهم من معاصٍ لم يستمتعوا بها –أو لم يستطيعوا نيلها– ولكنهم كانوا يرغبون في فعلها. وفي هذا المعنى هم يلومون أنفسهم على ما فرطوا من معاصٍ مما لم يفطنوا أن يغتنموه في لحظتها –أي سهوًا عنها–، وأيضًا يتحسرون على ما فاتهم مما لم يستطيعوا تحصيله عجزًا (كأن لا يكون معهم ما يكفي من المال لتحصيله أو لم يلحقوه).

---

[1] إغاثة اللهفان لابن القيم 1/172-173.

فهي خسارة على خسارة على خسارة، فلم يرتَح بالهم لأنهم يحزنوا على ما فاتهم، وعليهم ذنوب نيَّتهم أنهم أرادوا فعل المعاصي بالرغم من أنهم لم يفعلوها، وإذا قابلوها في المستقبل كانوا أشد حرصًا على تحصيلها فبات همُّها في قلوبهم. ومن ثمَّ تحسروا على فواتها في الماضي، ومع ذلك حملوا وزرها لحرصهم عليها مع أنهم لم يرتكبوها، وأيضًا حملوا أوزار ما اقترفوه، وفوق كل هذا انشغلوا باللهفة إلى تكرار الفرصة لهم في المستقبل، فمرضت قلوبهم. جمعوا حُزنًا على ما فاتهم، ووزرًا على نيَّتهم وأفعالهم السيئة، وهمًّا على عدم تفويت المعصية في المستقبل، فأي انغراق في الضلال والعناء ذلك؟

أما عن دليل أنه إذا شاء الله أن يُحمَّلهم ذلك الوزر –على نيَّتهم لتحصيلها إن أتيحت لهم الفرصة– مع أنهم لم يرتكبوها، هو حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ"[1]. فإذا كانت النية أساس تقييم نوع العمل وقدر المثابة عليه، فذلك دليل على أن النية لها وزنٌ في حد ذاتها وعليها جزاء، فأولئك قد يُحَمَّلون وزر النية السيئة.

ودليل آخر هو الحديث القدسي "قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِذَا تَحَدَّثَ عَبْدِي بِأَنْ يَعْمَلَ حَسَنَةً فَأَنَا أَكْتُبُهَا لَهُ حَسَنَةً مَا لَمْ يَعْمَلْ، فَإِذَا عَمِلَهَا فَأَنَا أَكْتُبُهَا بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا. وَإِذَا تَحَدَّثَ بِأَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً فَأَنَا أَغْفِرُهَا لَهُ مَا لَمْ يَعْمَلْهَا، فَإِذَا عَمِلَهَا فَأَنَا أَكْتُبُهَا لَهُ بِمِثْلِهَا"، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "قَالَتْ الْمَلائِكَةُ: رَبِّ ذَاكَ عَبْدُكَ يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً، وَهُوَ أَبْصَرُ بِهِ فَقَالَ: ارْقُبُوهُ فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ بِمِثْلِهَا وَإِنْ تَرَكَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً، إِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَّايَ"، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "إِذَا أَحْسَنَ أَحَدُكُمْ إِسْلامَهُ فَكُلُّ حَسَنَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ، وَكُلُّ سَيِّئَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ بِمِثْلِهَا حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ"[2].

ويجب أن نلاحظ لفظ الحديث "أَغْفِرُهَا لَهُ مَا لَمْ يَعْمَلْهَا"، في دلالة على أن النية قد تحمل وزرًا ولكن الله يرأف بعباده المؤمنين بالمغفرة. أما قوله تعالى "وَإِنْ تَرَكَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً" فذلك لمن تركها عمدًا من خشية الله وهو قادرٌ عليها، أما من لم تُتَح له الفرصة أو عجز عن ارتكابها فهو تحت رأفة الله إن شاء عفا عنه وإن شاء آخذه عليها. وذلك كله خاص لمن وصفه الله "عَبْدِي" بالمعنى العملي للكلمة، وقال أيضًا "إِذَا أَحْسَنَ أَحَدُكُمْ إِسْلامَهُ".

أما الفاجر فله مُعاملةٌ مختلفةٌ، فقد يؤاخذه الله بنيَّته السيئة لأن ذلك العبد خرج عن طاعة الله عامةً، فلا يستحق ما يستحقه التقي من مميزات. وتلك الميزة للمؤمن خاصةً، مثل ميزة أن المؤمن قد يُكَفَّر عنه سيئاته بالأذى الذي يصيبه، بخلاف الكافر فإنه لا يُكَفَّر عنه ذنوبه بالأذى الذي

---

[1] صحيح البخاري 1.

[2] صحيح مسلم 185.

يصيبه، وهذا معنى لفظ: كَامِلَةً في قول الله تعالى {لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ} [النحل 25].

ولعل أقوى دليل على أن هناك أناسًا يحملون أوزارًا لم يعملوها بسبب فقط نياتهم السيئة جاء في قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "مَثَلُ هَذِهِ الأُمَّةِ كَمَثَلِ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا وَعِلْمًا فَهُوَ يَعْمَلُ بِعِلْمِهِ فِي مَالِهِ يُنْفِقُهُ فِي حَقِّهِ؛ وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ عِلْمًا وَلَمْ يُؤْتِهِ مَالا فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ كَانَ لِي مِثْلُ هَذَا عَمِلْتُ فِيهِ مِثْلَ الَّذِي يَعْمَلُ، فَهُمَا فِي الأَجْرِ سَوَاءٌ؛ وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا وَلَمْ يُؤْتِهِ عِلْمًا فَهُوَ يَخْبِطُ فِي مَالِهِ يُنْفِقُهُ فِي غَيْرِ حَقِّهِ؛ وَرَجُلٌ لَمْ يُؤْتِهِ اللَّهُ عِلْمًا وَلا مَالًا فَهُوَ يَقُولُ لَوْ كَانَ لِي مِثْلُ هَذَا عَمِلْتُ فِيهِ مِثْلَ الَّذِي يَعْمَلُ، فَهُمَا فِي الْوِزْرِ سَوَاءٌ"[1]. فهناك رجلٌ ليس عنده مال ولكن يُساوى في الوزر مع الذي معه مال وتمتع به في الحرام، لأنه نوى أن يفعل مثل المُسرف إذا جاءه المال، فيا للخسارةِ الفادحة، لم يتمتع بالدنيا ومع ذلك حَمَل وزرها.

وهذا كله يدل على مكر الله بالذين يسرفون في المعاصي، والعياذ بالله من مكر الله الذي إذا نزل لن نستطيع أن نتفلت منه، وعندما يصيب لن نستطيع أن نخرج منه حتى يتم لآخرهِ أو أن يأذن الله برفعه، لأننا لسنا بصدده. وقوله تعالى "وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم" يدل على أنهم ليسوا بمختلفين عن أسلافهم، بالرغم من ظنهم أنهم متميزون عنهم وأقوى وأكثر تقدُمًا منهم، وهذا من أخزى الخزي وأكبر الإهانات لهم، ويبين مدى هوانهم عند الله إذ لا قيمة لكثرتهم ولا إنجازاتهم في الدنيا عند الله. فاحذر أن تكون ممن يمكر الله بك، فمع تعمد تكرار معصية الله قد يمكر بك حتى تتيه، ولكن كن مجاهدًا لنفسك تائبًا إلى الله كي تنجو في الآخرة بما قدمته في الدنيا.

واعلم أخي، أنك عندما ترتكب معصية فإنك تُعشِّم الشيطان فيك بأنك قد تأتي بالمزيد، فيزداد إلحاحًا عليك لأنك أطمعته في قابليتك للانحراف أكثر. إن المرءِ إذا أكثر من المعاصي يصبح الشيطان وليه كما تحدثنا، قد انصاع ذلك المرءِ (وعيًا أو غفلةً) للشيطان فيصبح وليًّا له. والدليل على أن الشيطان يطمع أكثر فيوحي إليه بارتكاب المزيد من القبح، فيكون العاصي بمنزلة الطائع للشيطان، جاء في قوله تعالى {وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ} [الأنعام 121، جزء من الآية]. وفي الآية {اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [المجادلة 19] دليل آخر أن الشيطان يُسيطر إملائيًّا على من يُقبل على عصيان الله. فإذا بلغ الشيطان ذلك المستوى من التمكين على المرءِ، فإنه يُنسيه ربه والأعمال التي تُقرّبه إلى ربه؛ أي يُحيل بينه وبين الأعمال الصالحة عامةً.

---

[1] سنن ابن ماجه 4218.

ودليلٌ آخر على أن الشيطان يتقرب إلى العاصي هو أن شيطان سيدنا عمر (رضي الله عنه) كان يسلك طريقًا عكس طريقه، مخافة أنه إذا وسوس له أن يُخالفه عمر (رضي الله عنه) بعمل عمل صالح. ذلك أنها كانت عادة سيدنا عمر (رضي الله عنه) أن يعمل عملًا صالحًا إذا وسوس له الشيطان أمرًا، ومنهجه هذا جعل الشيطان في موقف عكس التعشيم الذي يحدث معنا. وهذا ثبته الرسول (صلى الله عليه وسلم) عندما قال له "إِيهٍ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا لَقِيَكَ الشَّيْطَانُ سَالِكًا فَجًّا إِلا سَلَكَ فَجًّا غَيْرَ فَجِّكَ"[1] (فَجًّا هو الطريق الواسع).

والخلاصة هي، أن من أسرف في المعاصي يستجلب الشيطان ليكون قرينه وملازمًا له، فيكون أقرب إليه من صديقه من الإنس، فأي داهية أعظم من تلك إذ إن الشيطان غايته من الإنسان أن يجعله يكفر بربه كي يخلد في النار؟ والشيطان آنذاك يتخذ عقل ذلك المرء مرتعًا له، فيظل يقترح عليه المعاصي، إذ قد وجد أن الطُرُق للمعاصي كثيرة مُفَتَحةً عند ذلك الشخص، وفيه القابلية للاستزادة، فيُمهِّد الشيطان لذلك الشخص طريق الكفر إلى أن يصبح اختيارًا متاحًا ومقبولًا، بل وربما محبوبًا.

فلهذا الشخص، لا يُستبعد منه فعل أي شيء، لأن كل السُبُل مباحة عنده كي يصل إلى غايته وشهواته، فلا إشكالية عنده من أن يمنع مساجد الله أن يُذكر فيها اسم الله ويسعى في خرابها، أو أن يكتم شهادة الحق، أو أن يفتري على الله الكذب وعلى الرسول (صلى الله عليه وسلم)، أو أن يُكذِّب بآيات الله أو يُعرض عنها، أو أن يقتل نفسًا مؤمنة ظُلمًا كانت تحيل بينه وبين غايته. إذا، أفلا نتعظ بقول الله تعالى {وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاء قِرِينًا} [النساء 38، جزء من الآية].

ومما قاله ابن القيم (رحمه الله) عن عقوبات المعصية: إنها مدد من الإنسان يمد به عدوه عليه، وجيش يقويه به على حربه، وذلك أن الله سبحانه ابتلى هذا الإنسان بعدو لا يفارقه طرفة عين، ولا ينام منه ولا يغفل عنه، يراه هو وقبيله من حيث لا يراه، يبذل جهده في معاداته في كل حال، ولا يدع أمرًا يكيده به يقدر على إيصاله إليه إلا أوصله إليه، ويستعين عليه ببني جنسه من شياطين الجن، وغيرهم من شياطين الإنس، فقد نصب له الحبائل، وبغى له الغوائل، ومد حوله الأشراك، ونصب له الفخاخ والشباك، وقال لأعوانه: دونكم عدوكم وعدو أبيكم لا يفوتكم ولا يكون حظه الجنة وحظكم النار، ونصيبه الرحمة ونصيبكم اللعنة، وقد علمتم أن ما جرى عليَّ وعليكم من الخزي والإبعاد من رحمة الله بسببه ومن أجله، فابذلوا جهدكم أن يكونوا شركاءنا في هذه البلية، إذ قد فاتنا شركة صالحيهم في الجنة. وقد أعلمنا الله سبحانه بذلك كله من عدونا وأمرنا أن نأخذ له أهبته ونعد له عدته.

---

[1] صحيح البخاري 5621.

ثم قال: والمقصود أن الذنوب والمعاصي سلاح ومدد يمد بها العبد أعداءه ويعينهم بها على نفسه، فيُقاتلون بسلاحه، ويكون معهم على نفسه، وهذا غاية الجهل.

ما يبلغ الأعداء من جاهل   ما يبلغ الجاهل من نفسه[1]

انقلاب موازين الحق والباطل عند العاصي

إن الشخص العاصي ليبتعد عن الله ويتقرب إليه الشيطان ويتولى عليه هواه حتى يُلَبَّس عليه الحق من الباطل، وتختل موازينه التقييمية، ويختلط عليه القواعد الشرعية والأولويات بسبب جهله وضلاله. فيرى آنذاك الحق باطلًا والباطل حقًّا في بعض (أو كثير) من الأمور، بحسب درجة عصيانه. أفلم نرَ من يؤيد الرجل القاتل الفاجر ويُنسب إليه الإصلاح في الأرض؟!

وهذا يحدث لأن الشيطان يُملي ويوسوس للإنسان، ويتلاعب في عقل المرء، وذلك استدلالًا بواقعة حدثت مع الرسول (صلى الله عليه وسلم). كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في المسجد وعنده أزواجه فَرُحْنَ، فَقَالَ لِصَفِيَّةَ بِنْتِ حُيَيٍّ (وهي زوجته) "لا تَعْجَلِي حَتَّى أَنْصَرِفَ مَعَكِ"، وَكَانَ بَيْتُهَا فِي دَارِ أُسَامَةَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَهَا، فَلَقِيَهُ رَجُلانِ مِنْ الأَنْصَارِ فَنَظَرَا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ أَجَازَا (أي أسرعا في المشي)، وَقَالَ لَهُمَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "تَعَالَيَا، إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ" (يريد درء الشك منهما)، قَالا: سُبْحَانَ اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ "إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ الإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يُلْقِيَ فِي أَنْفُسِكُمَا شَيْئًا"[2].

فدلت الواقعه أن الشيطان يؤثر على أفكار المرء، ففي حالة أن الأرض خصبة –بأن يكون المرء فاسدًا فيكون متلقنًا من الشيطان– يُصدِّق المرء الشيطان، لأن المرء يريد تصديق ذلك الباطل ويتمنى أنه الحق نتيجة أن كثرة معاصيه تجعله يريد أن الشرائع تواكب ما يستهوي فعله، وأن يُريح ضميره وهو يرتكب المعاصي. وفي حالة أن المرء صالحٌ وليس مستقبلًا للتلميح، يلجأ الشيطان إلى الإلحاح، فكم من رجل فعل ما لا يرغبه نتيجة إلحاح قُرَنائه عليه لإرضائهم أو لأنهم أقنعوه بها. وربما يكون العقل الباطن عنصرًا في تلك الظاهرة أيضًا، فقد تُلح النفس رغبةً في معصية ما ولكن العقل يحول بينها وبين الإقبال على المعصية، فيستغل الشيطان ذلك الإلحاح بأن يُركِّز عليه حتى يُنمِّيه ويصبح فعلًا، مع العلم أن الشيطان لا يسأم من محاولة التأثير على العبد حتى يُسَلِّمَه للهلاك.

وفي ظاهرة إقلاب موازين الحق والباطل في أعين الناس –وهي من الفتن العصيبة المُهلكة التي تُلبس على الناس أمور دينهم، التي يقع فيها أغلب الناس وتسلم الأقلية عندما تعُمّ خاصةً في

---

[1] الجواب الكافي 95–102، بتصرف.

[2] صحيح البخاري 1897.

أواخر الزمن، نعوذ بالله من أن ندرك أسوأها ونسأل الله السلامة منها إن أدركتنا- أمثلة كثيرة وواضحة في العصر الحديث والقديم. ففي العصر الحديث وجدنا من يستحل دماء فئة من المسلمين بظلمٍ، ثُم يُمَجَّد من قِبَل فئة كبيرة ممن ينتمون للإسلام.

أما في العصر القديم، فقد كانت هناك عادات جاهلية قبل البعث، مثل وأد البنات أو تحريم أكل أنواع معينة من الأنعام تعظيمًا لها، أو استحلال القتال في الأشهر الحُرم ثم تعويضها بتحريم القتال في الأشهر التي لا يُحرم فيها القتال. ولما جاء الإسلام لم يواجه تلك العادات الراسخة في قلوب الناس بغلظة، لأن منهم من ءامنوا بالله وحده ولكن تلك العادات الجاهلية رسخت في قلوبهم، فتدرج خطاب التحريم كي لا ينفر حديثو العهد بهذا الدين الجديد آنذاك.

وهذا ما يتبين لنا في الأسلوب اللطيف اللين الرحيم الذي خاطب الله به حديثي العهد بالإسلام، أوضحها أن من أول آيات نزلت بالوحي كانت لتستلطف قلوب الناس وتُحذّرهم من الجزاء. فقد قالت السيدة عائشة (رضي الله عنها): إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ سُورَةٌ مِنَ الْمُفَصَّلِ (أي سورة المدثر) فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى الإِسْلَامِ نَزَلَ الْحَلالُ وَالْحَرَامُ، وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ: لا تَشْرَبُوا الْخَمْرَ، لَقَالُوا لا نَدَعُ الْخَمْرَ أَبَدًا؛ وَلَوْ نَزَلَ: لا تَزْنُوا، لَقَالُوا لا نَدَعُ الزِّنَا أَبَدًا؛ لَقَدْ نَزَلَ بِمَكَّةَ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِنِّي لَجَارِيَةٌ أَلْعَبُ {بَلْ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ}[1].

وفي واقعة طريفة وشخصية، جاء أن أعرابيًّا دخل المسجد ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالسٌ، فصلَّى ثم قال: اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي وَمُحَمَّدًا وَلا تَرْحَمْ مَعَنَا أَحَدًا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم "لَقَدْ تَحَجَّرْتَ وَاسِعًا" (أي ضيَّق أو منع، في توجيه إلى أن رحمة الله واسعه ولكنه يطلب تضييقَها)، ثم لم يَلبَثْ أن بَالَ في نَاحِيَةِ المسجد، فأَسرَعَ الناس إليه فَنَهَاهُم النبي صلى الله عليه وسلم وقال "إِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ، صُبُّوا عَلَيْهِ سَجْلا مِنْ مَاءٍ (أَوْ قَالَ ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ)"[2] (سَجْلًا/ذَنُوبًا أي دلوا من الماء). فهذا يُبيّن منهج الرفق واللطف الذي جاء به الإسلام.

وقال تعالى {فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ اللّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ} [الأعراف 30]. هذه الآية تُحمل على معنى الهدى والضلالة على أساس الإيمان والكفر، إلا أن لها تطبيقًا على مستويات الإيمان عند المسلمين أيضًا، فإن بعض المسلمين سيدخلون جهنم لتقصيرهم في الواجبات وتماديهم في المعاصي. فهكذا حال من اتبع هواه ووساوس الشيطان، فإن للشيطان تحايلات تجعل الحق مُنَفِّرًا وشاقًّا والباطل مقبولًا بل ومحبوبًا.

---

[1] صحيح البخاري 4609، جزء من الحديث.

[2] سنن أبي داود 324.

إن الشيطان يأتي للعابد ويُلح عليه بثقل طاعة الله، ويأتي للعاصي ويُبرر له المعصية بأسباب مثل أنه سيُغفر له، أو أن كثيرًا من الناس يفعلونها، أو حتى إنها ليست بمعصية في حالة هذا الشخص بالذات لأنه مضطر -تحت مبرر أن وضعه مختلف أو خاص-، كأخذ الرشوة أو تناول المخدرات لظروفٍ شاقةٍ. ولو أن كل واحدٍ منا أخذ أن المشقة مُبرر لمعصية ما بعينها، لوجدت أن جميع المعاصي مُستباحة وتُرتكب بشيوعٍ بين الناس لعدم مقاومتهم إياها، ولطَغَى الفساد في الأرض.

واتباع الشيطان بالاستماع إلى كلامه يفتح الباب لحدوث أي شيء، لأن عنده قدرة تقليب الموازين، فيدخل المرء في دوَّامة مركزها الكفر والعياذ بالله. فعند هؤلاء الناس تنقلب موازين الحق والباطل، بسبب أفعالهم واختياراتهم الخاطئة، والمصيبة أنهم من شدة ضلالهم يرون أن ما يفعلونه من باطل أنه الصواب والهدى وأن لهم جزيل الثواب من الله. فكم من غير المسلمين يعبدون الأصنام وهم على يقين أنها تنفعهم، وكم من مسلمٍ يتمتع بالمعازف ويرى أنها من الأشياء الجميلة المباحة شرعًا للتسرية عن النفس؟

وقد يصل حال ذلك الضال إلى مرحلة أنه يكون مُضلًّا لمن حوله بأن يدعوهم إلى مثل ما يرتكبه من ضلال. بل وأكثر من ذلك إذ قد يُحارب شريعةً من شرائع الإسلام لا تتماشى مع هواه، أو لا تتوافق مع فِكره للحياة وغايته منها ورؤيته لواقعها، أو يُحارب تمكين الإسلام على الأرض بأن يُحارب تطبيقه في جوانب الحياة، بأن يعمد إلى فصل الدين عن السياسة مثلًا، ويُستفز غيظًا عندما يرى السياسة تمشي على المنهج الشرعي. فهذا حاله كالذين قال الله عنهم {وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ} [الزخرف 37]. فمثل هؤلاء قد بلغوا مرحلة من الضلال إلى أنهم، ولنستعيذ بالله أن يُصيّرنا مثلهم بمعاصينا، يستنكرون الحق وتسكن أنفسهم بالباطل، حتى إنهم بلغوا ما لا يتخيله شخصٌ ذو فطرةٍ سوية أن يبلغوه {وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} [الزمر 45]. لا إله إلا الله.

ومن أعراض انقلاب الموازين أن المرء يفرح بنيله لمعصية، بل ويرى أنه غانمٌ، مثل الذي يفخر بمعصية ما فيُفشي بها لقرنائه وقد ستره الله، ولا يشعر بسعادة غامرة إذا عمل عملًا صالحًا، مما يجعل المرء أكثر إقبالًا على المعاصي وأكثر فرارًا من الطاعات. وهذا بخلاف حال المؤمن، كما بين لنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) حين قال "اسْتَوْصُوا بِأَصْحَابِي خَيْرًا ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَفْشُو الْكَذِبُ حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَبْتَدِئُ بِالشَّهَادَةِ قَبْلَ أَنْ يُسْأَلَهَا، فَمَنْ أَرَادَ مِنْكُمْ بَحْبَحَةَ الْجَنَّةِ فَلْيَلْزَمْ الْجَمَاعَةَ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ وَهُوَ مِنْ الاثْنَيْنِ أَبْعَدُ، لا يَخْلُوَنَّ أَحَدُكُمْ بِامْرَأَةٍ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ ثَالِثُهُمَا، وَمَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَهُوَ مُؤْمِنٌ"[1] (بَحْبَحَةَ أي أوسطها وأوسعها وأرجحها).

[1] مسند أحمد 109.

فالسرور بالحسنة والندم على المعصية من مؤشرات الإيمان ومن دلالات حياة الضمير، ولعل الله ينزع تلك الصفة من العاصي عقابًا له، فيهوي في المعاصي أكثر.

مؤشر آخر على انقلاب الموازين عند الفرد هو أنه يفتخر عندما يتجنب معصية واحدة من بين معاصيه المُستمرة التي لا يندم عليها. الشخص الذي يستخف بالمعاصي يظل يُكثر من العصيان تدرُّجًا، حتى يصل مرحلة أنه إذا تجنب معصية واحدة لله افتخر واستعظم فعلته الصالحة تلك. هو يرى لنفسه الجزيل من الثواب على إعراضه عن تلك المعصية الوحيدة، بل وقد يرى أنه تميَّز إلى درجة أن هذا يمحو عنه حمل معاصيه الأخرى. فهو بتركه معصية واحدة من بين معاصيه يستعظم نفسه وعمله وأجره، وكأنه أسدى لله خدمة فَيَمُنَّ بها عليه تعالى، مع أنه لو فعل المعصية لأخذ وزرًا، وأن الله لا يضره عصيان عباده ولا ينتفع بأعمالهم الصالحة! إنما فائدة تركه للمعصية تعود عليه شخصيًّا، وضرر ارتكابه المعصية يقع عليه شخصيًّا، ولكن الله بكرمه يُعطي على تركها أجرًا وهو الغني عن هذا كله. وهذه الصفة تتسلل بسهولة لأي شخص يقع في المعاصي، فينبغي أن أحترس من تحققها معي.

ومن علامات انقلاب الموازين ما نبأنا به رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّهَا سَتَأْتِي عَلَى النَّاسِ سِنُونَ خَدَّاعَةٌ، يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ وَيُخَوَّنُ فِيهَا الأَمِينُ، وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ"، قِيلَ: وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ؟ قَالَ "السَّفِيهُ يَتَكَلَّمُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ"[1]. وبالفعل قد بدأت تلك الظواهر، فرأينا الرويبضة، وقد يلاحظ من يتعامل في التجارة ظاهرة تكذيب الصادق مع تخوينه، وتصديق الكاذب مع ائتمانه. فالبائع الذي يذكر عيوب سلعته يرتاب الناس في أمره إذ يتساءلون لماذا قد يفعل ذلك، وأما البائع الذي يخدع الناس بوهمهم أن البضاعة مميزة، ويظل يمدح فيها وفي المشتري ويَعِد ويُمنِّي فهو الذي يطمئن الناس له ويشترون منه، فسبحان الله.

هذه العلة، انقلاب موازين الحق، قد تنتشر من مستوى الأفراد إلى مستوى الجماعات، ثم تتوسع على نطاق الأمة كما أشار الحديث. وهذا إلى أن يبلغ الحال أن الرجل إذا أُصيب بمصيبة في دنياه، مثل خسارة في تجارته ولو كانت بسيطة، أو فواته ميزة -مثل شراء منزلٍ في مكان فارهٍ-، سخط وجزع وتذمر بين الناس فتداولوا الخبر وضَخَّموه وأشفقوا عليه وتعاطفوا معه. أما إن أصابته مصيبة في دينه، أو طُعن في الإسلام، أو أُصيب المسلمين بمكروه، فلربما استقبل الأمر بهوان أكثر وجزعٍ أقل.

وتشتد هذه الظاهرة على مستوى القرية أو المدينة أو الدولة إلى أنه إذا مات عالمٌ إسلاميٌ أو مُصلحٌ فإن الخبر لا يأخذ قدرًا من اهتمام الناس، وأما إن مات مُطرب أو ممثل مشهور أو لاعب

---

[1] مسند أحمد 7571.

كرة ترى أناسًا كثيرين يتأثرون ويجزعون، ويأخذ قدرًا كبيرًا من الاهتمام الإعلامي، وتُقام له التكريمات والتِذكَارات وما شابه. وهذه من المؤشرات على انقلاب الموازين عند أغلب الناس؛ نسأل الله الهداية والسلامة لنا ولهم، وبه نستعين.

وختامًا، هناك آيات تبين واقع أناس بلغوا من الفُجور في المعاصي ليس لحد انقلاب الموازين فحسب، بل بلغوا من الضلال أن حدث عندهم التباس في الشرائع وظنِّهم في الله! قال تعالى عن المجرمين الذين أرادوا قتل سيدنا صالح (عليه السلام) {وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (48) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (49) وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (50) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ} [النمل 48-51] (لَنُبَيِّتَنَّهُ أي لنقتلنه، أي أرادوا قتله سرًّا ثم إنكار أنهم يعلمون من قتل سيدنا صالح عليه السلام).

فهؤلاء كانت أعمالهم مُفسدة لا يُخالطها بعض الأعمال المُصلحة حتى، وأقسموا بالله أن يقتلوا نبيّ الله، أي ألزموا بعضهم بالقسم بالله حتى لا يتقعَّس أحدهم أو يغدر بالباقين، يريدون أن يُلزموا بعضهم البعض بشرف الالتزام بالقسم في ارتكاب جريمة! فوق هذا، يطلبون من الله أن يكون شهيدًا على ترتيبات هي في الحقيقة مُحاربة له، فظنوا أن الله يشهد على مُحاربتهم له ويراهم وهم يمكرون بنبيّه دون أن يفعل شيئًا! فقولوا لي، هل كان أحدنا يتخيل أن هناك أناسًا يجتمع فيهم هذا الكم من اللا منطق، ويبلغون هذه الدرجة من السفه والجُرأة على الله؟! إنها المعاصي...

سيطرة المعاصي على القلب بعد أن تعلو عليه، فتكون هي الرأس لرغبة القلب، ومن ثمَّ تتحكم في قرارات وأفعال المرء

قال تعالى {إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (13) كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [المطففين 13-14] (رَانَ أي غلب فغَشِيَ). قد جاء عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ سُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}"[1] (سُقِلَ أي نُقّيَ وصُفي). فهذا الحديث دال على أن الران يحدث مع مسلم أيضًا لأن التوبة تُقبل فقط من المسلم، ولكن القضية هي إلى أي مرحلة يبلغ.

---

[1] سنن الترمذي 3257.

الذي يُعرض عن آيات الله قد ران على قلبه معاصيه إلى ذلك الحد، حد أنه يؤثر شهوته ورأيه الشخصي عن عظة الله الحكيمة، نسأل الله الوقاية والمعافاة. فقد يظل المؤمن يتَّبع شهواته تدريجيًّا في المعاصي حتى تعلو على قلبه، ويُصنَّف واقعيًّا على أنه عبدٌ لهواه كما نبأ تعالى في أكثر من موضع. قال عز وجل {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَـكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [الأعراف 175-176]؛ {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} [الجاثية 23].

ففي الواقع، قد أصبح عبدًا لهواه وإن زعم أنه عبدٌ لله؛ أعدَّه الله منهم مهما مارس من الشعائر مثل الصلاة والصوم لله، إذ إن الآفة في قلبه. وقد يظن البعض أن تصنيفه "عبدٌ لهواه" أنه ربما يكون مجازًا، ولكنه ليس كذلك، بل هو عبدٌ لهواه بمعنى الكلمة، أي يعبد هواه. مقتضى العبودية هو التسليم والطاعة، وهذا ما يفعله الشخص المُبالغ في المعاصي، فإنه يُقدِّم ويَنقاد لأوامر هواه فوق أوامر الله وفوق عقله هو شخصيًّا، ثم يقول إنه عبدٌ لله، فما بال هذا التفاوت بين كلامه وفعله؟

والدليل أنه يصبح عبدًا لهواه بمعنى الكلمة يتبين لنا في كلام رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن قضية مماثلة، وهم اليهود والنصارى الذين اتخذوا علماءهم وقرَّاءهم أربابًا {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَـهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ} [التوبة 31]. قال عُدي بن حاتم (عندما سمع هذه الآية قبل أن يدخل الإسلام، رضي الله عنه): يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ! فَقَالَ "أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ فَتُحَرِّمُونَهُ، وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَتُحِلُّونَهُ؟" قُلْتُ: بَلَى. قَالَ "فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ"[1]. بل وإن طالبهم علماؤهم بعبادتهم لرفضوا، كما شرح أبو البختري (رحمه الله): ولو قالوا لهم 'اعبدونا'، لم يفعلوا[2]؛ ومع ذلك لم يشفع لهم ذلك عن تصنيفهم كعبادٍ لعلمائهم بشيء. فالحذر من أن يقع أحدنا فريسة لهواه، وهذا يحدث بالتدريج وربما على مدى عقود من عمره، إلى أن ينتقل إلى فئة العُبَّاد لهواهم.

وفي واقعنا الملموس نرى ذلك، نرى أُناسًا قد غرقوا في عدة الشهوات على مدى سنين كثيرة حتى شربها القلب فصبغته وغَمَرَته وتحكمت فيه، بل وربما طمسته، وحينئذ إذا رأى أدلة على نهي وخطأ ما يفعله ما صدر منه إلا إنكار ذلك أو تجاهله، ولو كانت آيات من القرآن! فقد انتقل من مرحلة العصيان إلى الفُحش إلى الفُجور، وربما إلى الكفر -إذا كذَّب بآية- والعياذ بالله، ويكون شديد العداوة والقسوة والسخرية ممن يلتزمون بالشرائع والذين ينهونه عما يفعل.

---

[1] تفسير الطبري 210/14، وحسَّنه ابن تيمية في مجموع الفتاوى.

[2] تفسير الطبري 212/14.

وفي ذلك عبرة لنا، أن أي واحدٌ منا مُعرَّضٌ لهذا إن ترك نفسه تهوي في المعاصي، فهو يوقع نفسه في دائرة مكر الله وسخطه، ولعل مكر الله به أن يتركه حتى يكفر بأن يسخر من شرع الله، فيتحقق الخسران الأعظم! فذلك مآل من مآلات كثرة العصيان، وإنه لمنظر مؤسف ومحزن يُرثى له عندما ترى من صار إلى ذلك.

التعود على فعل تلك المعصية، حتى إن المرء ليفعلها من باب العادة وليس من باب الشهوة

قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) "ثَلاثَةٌ لا يُكَلِّمُهُمْ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: شَيْخٌ زَانٍ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ"[1]. في هذا الحديث دلالة (في الشيخ الزاني) على أن المرء قد يرتكب معصية مُعينة من باب العادة لا من باب الشهوة بسبب أنه لزمها من شبابه، وأَجَّل الإقلاع عنها أو حتى مقاومتها. بل وقد يغرق أكثر بأن يبلغ مرحلة أنه يضغط على نفسه أحيانًا ليُتم تلك المعصية، فيُصبح مخدوعًا محبوسًا. الشيطان قد أوقعه في الفخ، إذ يجبر المضلول نفسه على فعل ما لا يُسعده، وفوق هذا يُحَمَّل عليه وزرها يوم القيامة فيُعاقب عليها، أي يُعاقب على فعل هو كاره له في الأصل، خسارة في خسارة، أوزارًا على عناءٍ! وفي تلك الحالة يصبح تصنيفه عند الله أقبح من الذي يرتكب المعصية بسبب أن شهوته غلبت عليه، ولهذا له تلك المهانة والعقاب كما في الحديث.

ولعل المرء يتساءل، كيف يكون منطقيًّا أن المرء يرتكب معصية وهو كاره لها؟ وللتوضيح، إنا لا نتكلم عن معصية فرضها شخصٌ آخر عليه جبرًا، إنما نتكلم عن رجل يُقبل على المعصية بمحض إرادته بالرغم من أنه لا يرغب فيها أو هو كاره لها، فالسؤال هو: لماذا وكيف. الإجابة عن لماذا يفعل ذلك هي أنه تعود عليها ويألفها ويرتاح بها حتى يصبح كالمُدمن، فإنه يرتاح بارتكابه إياها من باب العادة وليس من باب الشهوة لها، مثل الذي يسرق ويظل يسرق حتى بعد أن يجمع مالًا أكثر مما يستطيع إنفاقه في حياته. وكيفية حدوث ذلك هو أنه من طول أمد ملازمته تلك المعصية يصبح العقل يعتمد عليها كي يسكن، وهو الاعتماد النفسيّ (أي السيكولوجيّ). وتلك مشكلة ليست ببسيطة إذ بجانب إلحاح شهوته، يقوى إلحاح ووسوسة النفس للجسد للإقدام على المعصية، متمثلة في كثرة تردد الفكرة على باله، ولا يهدأ باله إلا بعد عمل المعصية.

ومن أوضَح الأمثلة على هذا هو في مُدمن التدخين، فهناك جانب تعود جسدي (وهو متوسط الدرجة في حالة التدخين)، وهناك جانب تعوّد نفسي متمثل في عادات وحركات نمطية مثل مسك سجارة في يده ونفخ الدخان من فَمِه. وعندما يقلع ذاك الشخص عن التدخين فترة، فإن التعود الجسدي يذهب إذ لا يحتاج إلى التدخين كي يعمل جسده طبيعيًّا، أي لا يُعاني من الصُداع مثلًا.

---

[1] صحيح مسلم 156.

ولكن بالرغم من ذلك، تجد نسبةً منهم يعودون للتدخين بعد فترة طويلة جدًّا من الإقلاع، وذلك بسبب ما يُسمى بالاعتماد (أو التعود) النفسيّ.

فهنا يكون الاعتماد النفسيّ هو الذي أدى به إلى الرجوع إلى التدخين وليس الاعتماد الجسدي، وهذا الاعتماد النفسي هو الذي يجعل المرء يعتاد المعصية إذا طال لزومه لها، فيرتكبها من باب التعود وسكينة البال وليس من باب الشهوة. والدليل على هذا هو أن تلك المعصية قد تُحَمِّل جسده ما يُجهده فلا يكون سعيدًا في أثنائها ولا بعدها، ومع ذلك يرتكب تلك المعصية. بل وقد يرغب ويعزم على تركها لأنه أصبح مُبغضًا لها ولا يحدث له نشوة ملحوظة منها، إلى حد أنه قد يلعنها، ولكنه لا يزال يرتكبها؛ يُصَبِّر نفسه على عناء وأذى ارتكاب المعصية وهو سيُعذَّب عليها في الآخرة، فأي عذاب وداهية وورطة تلك؟

وجاء في شرح النووي لهذا الحديث: فقال القَاضِي عِيَاض: سَبَبه أَنَّ كُلّ وَاحِد مِنْهُمْ اِلْتَزَمَ الْمَعْصِيَة الْمَذْكُورَة مَعَ بُعْدهَا مِنْهُ، وَعَدَم ضَرُورَته إِلَيْهَا، وَضَعْف دَوَاعِيهَا عِنْده؛ وَإِنْ كَانَ لا يُعْذَر أَحَدٌ بِذَنْبٍ لَكِنْ لَمَّا لَمْ يَكُنْ إِلَى هَذِهِ الْمَعَاصِي ضَرُورَة مُزْعِجَة وَلا دَوَاعِي مُعْتَادَة، أَشْبَهَ إِقْدَامُهُمْ عَلَيْهَا الْمُعَانَدَة وَالاسْتِخْفَاف بِحَقِّ اللَّه تَعَالَى وَقَصْد مَعْصِيَته لا لِحَاجَةٍ غَيْرهَا. فَإِنَّ الشَّيْخ لِكَمَالِ عَقْله وَتَمَام مَعْرِفَته بِطُولِ مَا مَرَّ عَلَيْهِ مِنْ الزَّمَان وَضَعْف أَسْبَاب الْجِمَاع وَالشَّهْوَة لِلنِّسَاءِ وَاخْتِلال دَوَاعِيهِ لِذَلِكَ، عِنْدَهُ مَا يُرِيحهُ مِنْ دَوَاعِي الْحَلال فِي هَذَا وَيُخَلِّي سِرَّهُ مِنْهُ فَكَيْف بِالزِّنَا الْحَرَام. وَإِنَّمَا دَوَاعِي ذَلِكَ الشَّبَاب، وَالْحَرَارَة الْغَرِيزِيَّة وَقِلَّة الْمَعْرِفَة وَغَلَبَة الشَّهْوَة لِضَعْفِ الْعَقْل وَصِغَر السِّنّ.

وَكَذَلِكَ الإِمَام لا يَخْشَى مِنْ أَحَدٍ مِنْ رَعِيَّتِهِ، وَلا يَحْتَاج إِلَى مُدَاهَنَته وَمُصَانَعَته؛ فَإِنَّ الإِنْسَان إِنَّمَا يُدَاهِن وَيُصَانِع بِالْكَذِبِ وَشِبْهه مَنْ يَحْذَرُهُ وَيَخْشَى أَذَاهُ وَمُعَاتَبَته، أَوْ يَطْلُب عِنْده بِذَلِكَ مَنْزِلَة أَوْ مَنْفَعَة، وَهُوَ غَنِيٌّ عَنْ الْكَذِب مُطْلَقًا. وَكَذَلِكَ الْعَائِلُ الْفَقِيرُ قَدْ عَدِمَ الْمَال وَإِنَّمَا سَبَب الْفَخْر وَالْخُيَلاء وَالتَّكَبُّر وَالارْتِفَاع عَلَى الْقُرَنَاء الثَّرْوَة فِي الدُّنْيَا لِكَوْنِهِ ظَاهِرًا فِيهَا وَحَاجَات أَهْلهَا إِلَيْهِ؛ فَإِذَا لَمْ يَكُنْ عِنْده أَسْبَابهَا فَلِمَاذَا يَسْتَكْبِر وَيَحْتَقِر غَيْره؟ فَلَمْ يَبْقَ فِعْله وَفِعْل الشَّيْخِ الزَّانِي وَالإِمَام الْكَاذِب إِلا لِضَرْبٍ مِنْ الاسْتِخْفَاف بِحَقّ اللَّه تَعَالَى، وَاَللَّه أَعْلَم (انتهى).

للعلم، مسألة التعود على معصية عامل خطير، لأن هناك أناسًا يبلغون بالتعود على معصية إلى حد أنهم يختارون الكفر بالله (أو الاستمرار في الكفر) بدلًا من ترك المعصية، عندما يتم بيان بطلان الممارسة التي يرتكبونها وتُهدَّد المعصية التي كانوا يعشقونها. أفلا نتمعَّن في قول الله تعالى {وَانْطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ} [ص6]؟ لنلاحظ أن خرج منهم مصطلح "واصبروا" في وصيتهم لبعضهم، ولم يخرج منهم تعبير مثل: تمسكوا/تثبتوا/استمروا، فهذا اللفظ يشير إلى شعورهم بتحمل المشقة، أي يشعرون بتلكف وعدم راحة النفس في عبادة

الأصنام، مما يدل على أنهم لا يُحبون عبادة الأصنام وإنما يفعلونها اعتيادًا وفخرًا بما ورثوا من آبائهم.

فكان الكبر سببًا في الضغط على أنفسهم وتحمل العناء لفعل أمر لا يستهوُونه، فوعدهم الله أن يُجبروا على أن يضغطوا على أنفسهم في تحمل عناء الحرق في جهنم، كما ضغطوا على أنفسهم في تثبيت الباطل، ويُقال تعذيبًا لهم {اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [الطور 16]، جزاءً من جنس العمل. على هذا الأساس، إن بلوغ مرحلة التعود وإدمان معصية هي حالة ينشأ منها عناء على عناء: عناء في الدنيا لنيل عناء في الآخرة. فأي مصيبة تلك؟!

تعريض النفس للهلاك برفع احتمالية الانحدار إلى مستويات أعمق في مستنقع المعاصي، ومن ثمَّ تقليص فُرص الخروج

إن العاصي إذا اعتاد المعاصي وبررها كي لا يُلح عليه ضميره، فإن قلبه يَسْوَدُ ويُصبح قاسيًا، حتى إنه قد ينسى نفسه ويتجرأ في الإقدام على معاصي أكثر أو أكبر، أو أكثر وأكبر. قال تعالى {الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ} [الأعراف 51]. ومع أن هذه الآية تتحدث أساسًا عن الذين كفروا، ولكن لها جانبٌ مع الذين يقولون إنهم مسلمون ولكن يتركون العمل، فمن الناس من يستهين بالواجبات الدينية من صلاة أو زكاة أو الوقوف عند حدود الله مما حرمه، مثل من يستحل الزنى أو الخمر مثلًا.

إن الناس في الإسلام درجات بحسب إيمانهم وأعمالهم، ومن هذه الدرجات وجدت نفسي في إحداهم، وهي درجة الذين تُغريهم الحياة الدنيا وتستهويهم شهواتهم فيعصون ربهم. ومع أن هذه الدرجة لها فرصة في النجاة، إلا أن سهولة الاندراج إلى المستوى الأدنى أسهل مما يتخيله المرء، فكم من مُتبعٍ لهواه يصبح معتادًا لشهوة معينة، فلا تُمتعه كثرة فعلها لأن أحاسيسه قد تبلدت، فينتقل إلى شهوة أقوى وأقبح. وهذا شبيه بالذي يُدمن المخدرات، بعد زمنٍ في الإدمان يحتاج إلى الانتقال إلى صنفٍ أقوى أو جرعة أكبر كل فترة كي يصل إلى نفس مستوى النشوة، حتى يأخذ جرعة تفوق قدرة الجسد على التغلب عليها فيموت.

وكلما تدنى المرء في منزلتة يُقلص من فُرَصِه للنجاة يوم القيامة، حتى إنه ليصل إلى مرحلة من الاستسلام أنه يؤسس نجاته اعتمادًا على المجازفات، مثل ما سمعه في جزء من حديث عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ فَوَجَدَ بِئْرًا فَنَزَلَ فِيهَا فَشَرِبَ، ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنْ الْعَطَشِ فَقَالَ الرَّجُلُ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبَ مِنْ الْعَطَشِ مِثْلُ الَّذِي كَانَ بَلَغَ مِنِّي، فَنَزَلَ الْبِئْرَ فَمَلأَ خُفَّهُ مَاءً ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ حَتَّى رَقِيَ فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللَّهُ

لَهُ فَغَفَرَ لَهُ"[1]. فمن يضمن أن الله سيُتيح له موقفًا مثل ذلك ليغفر له، ومن يدري أنه حتى إن مر بموقف مثل ذلك أنه سيغتنمه، ومن يضمن له أنه حتى إن فعل مثل ذلك أن الله سيقبل عمله؟

بل قد يتجاهل الكلبَ فيزداد إثمًا، لأن المرء أحيانًا يتصرف بغير ما كان ينوي عندما يُوضع في الموقف واقعيًا، كأن ينشط كِبَرَه لأن الناس حوله كثير وسيرونه. فمن الذي يُجازف بحياته من أجل لحظات شهوة، يؤسس نجاته على الاحتمالات والاستثناءات، خاصة في أمر بلغ أقصى الأهمية مثل النجاة من النار؟ أعطوني عقولكم.

فهو أسهل مما نتوقعه، أن ينتقل المرء من مرحلة إلى مرحلة أخرى، فيُكثر من الصغائر التي يرتكبها فتتراكم عليه، أو يبدأ بارتكاب الكبائر بعد أن كان يرتكب الصغائر، وعادة ما يُصاحب هذه الحالة ترك الفرائض بعد ما كان يترك بعض السُنَنَ، فيكون الهلاك. وربما يصيبه مكر الله في تلك الحالة فيقبضه، فيكون قد خُتم له بسوء خاتمة ويكون من أصحاب النار. ولا شك أن كثرة المعاصي من الاستهانة بالدين، مما لا يؤمن عاقبتها كما ذكرت، فينحدر العاصي في الدرجات حتى يصل إلى درجة التصرفات المذكورة في الآية الأخيرة، فيشمله الله فيمن توعد لهم والعياذ بالله. والجوهر هو أن للمعصية غدرًا بالمرء، وما ذكرته هو طريقة من طرق غدر المعصية، فتجنب المعصية أسلم من ارتكابها مع الحذر، لأن الحذر ليس مُحصّنا من الثغرات، فالحذر من أمرٍ ليس ضمانًا بالسلامة من هذا الأمر.

ومن تلك المستويات المتدنية نجد مستوى النفاق، فقد يصل العبد إلى أنه يُبرر لنفسه المعاصي أو يتهاون بها لأنه يُخطط للتوبة عند تقدمه في عمره، أو أنه يتأول تفسيرًا (مُحرفًا) للآيات والأحاديث تُرخص له معصية الله، مثل أصحاب الكتب السابقة الذين تأولوا على الله أنه سيغفر لهم بعد أن حرَّفوا الكُتُب. حينئذ يدخل في دائرة معاملة من الله مُختلفة، إذ يمكر به الله ويُملي له مخادعةً، لأن ذلك المرء أراد مخادعة الله {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللهَ إِلاَّ قَلِيلًا} [النساء 142]. من أكبر المهالك هو أن يقع المرء في فخ وهو لا يدري، لاسيما إن كان مع الله، فكيف للمرء الذي لا يعي أنه في فخ أن يخرج منه؟ وهذا ما يحدث لمن مكر في دينه، يبحث عن فجوات يتسرب من خلالها في موضعٍ لا يجوز البحث فيه عن ضعف ولا يوجد فيه خلل، ولكن يُزين الشيطان ذلك لنا.

المثال الذي يخص موضوع هذا الكتاب هو عن الذين يستثقلون العبادات المفروضة والنواهي، وبدلًا من مجاهدة النفس يُفكرون في طريقة لنيل مرادهم بأن يقولوا لأنفسهم إنهم سيفعلون ما بدا لهم حتى يتقدموا في العمر ثم يتوبون ويلتزمون، إرادةً في استغلال مبدأ أن الله يقبل التوبة. أو

---

[1] صحيح مسلم 4162.

أن يقول على الحرام لا يُعقل أن يكون هذا محرمًا لأنه لا يرى ضررًا في ذلك، وعلى الطاعة لا يمكن أن تكون ذلك فريضة لأنها ثقيلة، وحكَّموا أهواءهم ورؤياتهم الشخصية على العلم فلا يسألون العلماء، وإن سألوهم فلا يأخذوا بفتواهم بحجة أنه مذهب مثلًا. وهذا كله من كيد الشيطان بالإنسان، ومن الناس من يقع في ذلك، فيظنون أنهم بذكائهم ابتكروا حلًّا لم يُدركه أحد من قبل، ولم يُدركوا أن هذا هو الفخ الذي وقع فيه من قبلهم بالضبط.

هؤلاء ظنوا أنهم مكروا لأنفسهم والحقيقة أنهم مكروا بأنفسهم، ومكرهم هذا يُضعف الدين سواء قصدوا أم لم يقصدوا، فبسبب ما يفعلونه يفتنون الذين يريدون التمسك بالدين والجُهلاء سواء. ولو أن الماكرين نجوا لتمثل بهم جميع الناس لأن ذلك ما تشتهيه النفس: الفوز بمتاع الدنيا والآخرة. والدليل على أن العصاة الذين يكونون في رفاهية فتنة للذين يتمسكون بكتاب الله {وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (33) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِؤُونَ (34) وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ} [الزخرف 33-35].

فأولئك الماكرون علم الله ما في نفوسهم فمكر بهم من جنس العمل، فوقعوا في حفرة يستحيل الخروج منها إلا إذا أذن الله، وتلك الحفرة هي عيشهم في الوهم أنهم قد خدعوا الله بذكائهم وهم في خدعة لا يرونها من شدة خدعتها. فالحذر كل الحذر من المكر مع الله، لأن هذا ما لا يُسلم عقباه.

ومما لا شك فيه هو أن كثرة المعاصي قد تجر المرء إلى الكفر في نهاية المطاف، إذ قد يكون قد قطع العاصي شوطًا كبيرًا في الطريق المُخالف، فيكون لا غالي عنده أن يتخلى عن دينه جملة. وذلك ما حدث مع فرعون حتى إنه بلغ مرحلة من الفجور فتطاول قائلًا {فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى (25) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى} [النازعات 24-26]. هذا قول فرعون لقومه وما تبع ذلك من انتقام الله منه، فلم يكن فقط ليُعذَّب عذابًا شديدًا، بل جعل الله منه عبرةً بأن نكَّل به في الدنيا بإغراقه وجنوده، وفي الآخرة بما سَيُستَقبل به. والسؤال الذي يطرح نفسه هو ما تواتر الأحداث التي أدت به إلى أن يقول ذلك الافتراء والبهتان العظيم؟ والجواب هو أنه أصبح سلطانًا على مصر، ثم تكبر واستعلى على الناس، وأصبح جبارًا ظالمًا، مما أثقل على نفسه الرجوع إلى الصواب بالاعتراف بأخطائه وبأن الله هو رب كل شيء.

ولا يمكن أن نتجاهل ما كان يفعله مَن حوله في دعمه لبلوغ تلك المرحلة من الغرور والوهم والكبر، فقد كان من يحيطه من أهل مشورته يُسولون ما هو عليه ويُعظمون من شأنه {وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ} [الأعراف 94]. وكانوا يوافقونه على الباطل بدلًا من معارضته وإرشاده

إلى الصواب {قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (34) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (35) قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (36) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ} [الشعراء 34-37]. وهذا من مكر الله به، أنه تعالى مكر به فقيَّض له شياطين الإنس {أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا} [مريم 83]، ومعنى "تَؤُزُّهُمْ أَزًّا" هو إغراؤهم إغراءً إلى الشر (المعصية).

أما رعيته فأطاعوه بدلًا من قول كلمة الحق له {وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ} [الزخرف 51]، وكانوا ينصرونه ظلمًا على الطوائف الضعيفة فيهم {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} [القصص 4]. وأدى كل ذلك إلى أن فرعون تكبر واغتر وتمادى وفجر {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ} [القصص 38]. وسَخِرَ من موسى (عليه السلام) أنه دعى إلى عبادة الله وحده، واستهزأ بما يقوله {قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (23) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (24) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (25) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (26) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ} [الشعراء 23-27].

وبلغ فجوره إلى أنه تدخل في شؤون كل الطوائف بأنه أملى عليهم جبرًا ما يفعلونه، حتى في أمور تعبدهم {قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ} [الشعراء 29]. وعلى الصعيد الآخر، كان يقمع من يدعو إلى طاعة غيره أو يختار طريقًا آخر {وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ} [غافر 26]، {قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ} [غافر 29، جزء من الآية].

فما كان لقومه من بُد إلا أن يُجاوبوه في كل ما زعم بعد أن نصبوا له ذلك المناخ، وأيضًا لأنهم بلغوا معه تلك المرحلة تدريجيًا، فما يضيرهم إجابته في الألوهية {فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ} [الزخرف 54]. وما أدى إلى ذلك أن قومه لم يكونوا يتصدون له من بداية شروده، وكما دلت الآية أنهم كانوا أنفسهم فاسقين بالمعاصي (أي فاسدين)، فسلّموا له وأقرّوه على ما يفعل، بل وَوَكَّلوه مصيرهم بأن فَوَّضوه على قيادتهم في أمور آخرتهم أيضًا! وذلك مما زاده كبرًا وظُلمًا وفُجرًا، إلى أنه عندما شعر أنهم يتَّبعونه مثل الأنعام قال لهم مقولته إنه ربهم. بل والأفج أنه أقنع نفسه وأمر جنوده فأطاعوه في جنون أنه لا بأس في مُلاحقة سيدنا موسى (عليه السلام) على أقدامهم بين حوائط ماء البحر الذي انفلق! فحتى هنا لم يتراجعوا ويعترفوا أن هذا شيءٌ عجيب والوضع خطير، وأن لعل سيدنا موسى (عليه السلام) هو الذي معه الحق.

ومن تلك الأحداث نأخذ عبرتين متعلقتين بموضوع الكتاب، أولهما أن تتابع المعاصي قد يُفضي بالمرء أن يصل إلى مراحل من الفجر لم يكن يتخيلها هو على نفسه قط. وهذا ما نراه في زمننا هذا بوفرة، من أناس ذي سلطة أو علوم دنيا أو غنًى مُفرط أو شهرة بين الناس، قد تحكمت فيهم عاداتهم في المعاصي، إلى درجة أنهم يتهمون الشرائع الإسلامية أنها متشددة. ومنطقهم هو أنها لا تجب أن تُحَكَّم على المرء كاملة، بدلًا من الإقرار أنهم كانوا هم المخطئين على مدار سنوات كثيرة من حياتهم. وهذا الفعل فيه مهاجمة للإسلام، ومن هاجم الإسلام متعمدًا خرج من ملة الإسلام والعياذ بالله، ومن ثمَّ قد أدت معاصيهم المتمادية إلى أنهم خرجوا من الملة، وربما لا يقتنعون بذلك.

العبرة الثانية أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شيء بالغ الأهمية، ولو أخذ به فئة كبيرة من قوم فرعون لما أدّى ذلك إلى افتراء فرعون عليهم وإلى المصيبة التي وصلوا إليها من ضلالٍ وإهلاك. وهذه صفة يجب أن نتّصف بها، وتقصيرنا فيها هو ما أدى إلى ما آل إليه حال بعض الدول الإسلامية في زمننا هذا من قهر السلاطين لشعوبهم والاغتناء على حساب رعيتهم وسياقهم إلى الذل أمام أعداء الإسلام.

إضافة إلى ذلك التأخر في أمور الدنيا، بخراب البنية الأساسية والصناعة المحلية وبيع الأراضي وإصابة الناس بالإحباط وضعف كفاءة المؤسسات وتفشي الفساد وتجمد التطوير واندثار الأبحاث العلمية الفريدة. وأما في أمور الآخرة، يكون بالترهيب أو بالمنع أو بالتضليل عن الشرائع الإسلامية، ومن الجهة الأخرى بتزيين الباطل والأفعال المُخِلَّة للآداب لصرف الناس عن الهدى وإلهائهم عن الحق، حتى يُقلّصوا ممن يتمسك بالصلاة في المساجد أو الدروس الدينية أو ببعض السُنن مثل اللحية والتَيَمُّن في الأمور (استخدام اليد اليمنى في المأكل والمشرب والمَلبَس وغير ذلك).

ولو أن ذلك استمر لرأينا بدل فرعون فراعين، ولوقع علينا ما لا يُسلم عواقبه مما حذرنا الله منه في القرآن {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ} [هود 102]. والذي أدى إلى ذلك الأخذ هو الإعراض عن منهج الله ونسيانه مع الفسوق عنادًا {فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ} [الأعراف 165]، فتم استحقاق عقاب الله. ومن أنواع عقاب الله هو علو الفاسقين في المجتمع {وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا} [الإسراء 16]، وهذا قبل نزول الهلاك.

وفي السنّة النبوية جاء عنه (صلى الله عليه وسلم) –في حديث منقطع– "إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ فَيَقُولُ: يَا هَذَا اتَّقِ اللَّهَ وَدَعْ مَا تَصْنَعُ فَإِنَّهُ لا يَحِلُّ لَكَ؛ ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنْ الْغَدِ فَلا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ. فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ"، ثُمَّ قَالَ {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ

بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ (78) كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ (79) تَرَى كَثِيرا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (80) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالله والنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاء وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ}، ثُمَّ قَالَ "كَلا وَاللهِ، لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنْ الْمُنْكَرِ، وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدَيْ الظَّالِمِ، وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا، وَلَتَقْصُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْرًا، أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللَّهُ بِقُلُوبِ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ ثُمَّ لَيَلْعَنَنَّكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ"[1] (وَلَتَأْطُرُنَّهُ أي لتردُّنه عن الجور والظلم، وَلَتَقْصُرُنَّهُ هو الإلزام). وفي رواية – ضعيفة الإسناد– جاء "لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنْ الْمُنْكَرِ وَلَتَحَاضُّنَّ عَلَى الْخَيْرِ أَوْ لَيُسْحِتَنَّكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا بِعَذَابٍ، أَوْ لَيُؤَمِّرَنَّ عَلَيْكُمْ شِرَارَكُمْ، ثُمَّ يَدْعُو خِيَارُكُمْ فَلا يُسْتَجَابُ لَكُمْ"[2].

وكلمة الحق للحاكم أصعب بكثير من كلمة حق لعامة الناس، كما دل على ذلك قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) "أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ"[3]، فكيف يتوقع المرء أن يقول كلمة الحق للحاكم إذا أُتيحت له الفرصة بينما يخشى أو يستحيي من قول كلمة الحق لعامة الناس؟ فوجب عليك الاجتهاد في النهي عن المنكر على الأقل لتتفادى عواقب تركه، ولتفعل ذلك يجب أن تصلح نفسك بترك المعاصي لسببين:

أولهما أن المعاصي تُذل الإنسان وتُضعف عزيمته فلا يقدر على النهي عن المنكر، لأن نفسه تلومه وتُحجِمَه لأنه هو نفسه به اعوجاج. وثانيهما لتتفادى أن تكون ممن شملهم قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) "يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ، فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِالرَّحَى، فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ: يَا فُلانُ مَا لَكَ، أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنْ الْمُنْكَرِ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، قَدْ كُنْتُ آمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلا آتِيهِ وَأَنْهَى عَنْ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ"[4]. ولا أستثني نفسي من هذه النصائح، والله المستعان.

واعلم أخي أنك إذا حملت نفسك إلى عملٍ صالح، فإن الله يفتح لك باب عملٍ صالحٍ آخر (ربما أفضل منه) حتى تُتاح لك الفرصة لفعل خير أكبر وأكثر، أو قد يُغلِق عليك بابًا من أبواب المعاصي أو البلاء. وهذا من ضمن ما يُكافئ الله به العبد، وإن كان الله يُحب ذلك العبد لا ينتهي الأمر عند فتح باب الخير له، بل ويُوَفِّقه ويُعِينه على الخوض فيه وإتمامه. فالواقع هو أن الله أخذ بيده حتى ينتهي من العمل الصالح، فيأخذ العبد أجرًا على عملٍ لم يبذُل عليه مجهودًا كبيرًا، وهذا تَفضُّلٍ من الله على ذاك العبد. وبهذا يتدرج العبد في العمل الصالح صاعدًا ما دام العبد يُقرر انتهاز تلك الأبواب التي تتفتح، والفضل والعون يكونان من عند الله.

---

[1] سنن أبي داود 3774، ضعيف.

[2] مسند أحمد 22223.

[3] سنن ابن ماجه 4001.

[4] صحيح مسلم 5305.

وكذلك العكس، إذا تركت نفسك لتُقبل على معصية، فإن الله يفتح عليك باب معصيةٍ أُخرى، ربما تكون أسوأ مما سبقتها، ولا تزال الأبواب تتفتح إذا سخط الله على العبد سخطًا شديدًا، ابتلاءً وفتنةً لك ليرى الله أين منتهاك، وهذا من ضمن ما يُجازي الله به العبد لإقباله على المعصية. وإن كان الله يكره ذلك العبد، حمَّلَ عليه أكثر بتعريضه لقرناء سوء يُسَولون له المعصية مثلًا، أو بجعل شهوته تتهيج وتُلح فوق العادة، أو بتزيين المعصية فلا يستطيع العبد مقاومتها، أو بتسهيل المعصية له بحيث أن العبد لا يحتاج إلى مجهودٍ كبيرٍ للإقبال عليها وإتمامها، أو غير ذلك، فما أكثر طرق مكر الله بالعبد. وهكذا يتدرج العبد في المعاصي نزولًا وهو لا يعي أبعاد الدوَّامة التي هو فيها، حتى يبلغ منزلة من الفُجر لم يكن يتخيل أن نفسه تتدنى إلى ذلك الانحطاط. لكن المُعضلة هي أنه عشق المعاصي، فيصعب على نفسه جدًّا تركها.

ويجب أن يُدرك أن هذا من عقاب الله للعاصي، أنه يُيسر له معصية أُخرى، فالمعصية تجر معصية أُخرى حتى قد يجد المرء نفسه متورطًا فيما لم يتعمده في الأصل! والدليل على ذلك قول الله تعالى ﴿وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (9) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل 8–10]، فقد جاء عند بعض المفسرين أن إحدى الأوجه من تلك الآيات هي أن المعصية تجر المعصية. وذلك ما قاله بعض السلف: إن من عقوبة السيئة: السيئة بعدها، وإن من ثواب الحسنة: الحسنة بعدها[1]. والحمد لله أن العكس صحيح، وهو قول الله تعالى ﴿فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ [الليل 5–7]. وهذا طوق نجاة من الله لنا، فهي أحد الأساليب لكسر سلسلة المعاصي المتتابعة: الإعراض عن معصية اختياريًّا، فالعمل الصالح يعكس سير دورة الأحداث.

قال ابن القيم في كتابه "الفوائد": مثال تولُّد الطاعة، ونموِّها، وتزايدها، كمثل نواة غرستها، فصارت شجرة، ثم أثمرت، فأكلتَ ثمرها، وغرستَ نواها، فكلما أثمر منها شيء جنيت ثمره، وغرست نواه. وكذلك تداعي المعاصي، فليتدبر اللبيب هذا المثال (انتهى).

في ختام هذا الباب أريد الإشارة إلى ظاهرة قد يغفل عنها كثير من الناس، تكون عقبة للعبد، ألا وهي تصعد صعوبة ترك المعصية وفعل الطاعات مع نزول البلاء، نظرًا لأن هذا يحتاج إلى توكل على الله، والذي يفتقر إليه العاصي من الأول. توضيحًا، إن العبد في وضعه الطبيعي يبتليه الله ليرى مَعدنه، فالمرء قد يكون ذاهبًا لصلاة الفريضة في المسجد ثم تأتيه بضاعة نفيسة إلى متجره في هذه اللحظة، فينظر الله ماذا سيفعل التاجر، هل سيُضيّع الصلاة ليشتري ويُرتّب البضاعة أم يتوكّل على الله ويُضحّي فيؤجّل مسألة البضاعة (وما يترتب على هذا من مخاطرة خسارة الصفقة) إلى بعد الصلاة؟ هذا حتى إن الله ينظر إلى كم الوقت الذي سيتأخر به التاجر عن الصلاة انشغالًا ببضاعته قبل أن يذهب للصلاة!

---

[1] الجواب الكافي لابن القيم 55–56.

فإذا كان العبد ممن يترك الصلاة في المسجد من أجل جمع البضاعة، فكيف حاله عندما يُنزل الله عليه عقابًا بذهاب بركة الرزق مثلًا، فيحتاج إلى مُضاعفة تجارته حتى يُضاعف مكسبه ويُعوِّض انخفاض البركة؟ هل سيكون أكثر قابلية للذهاب إلى الصلاة أم لهجرها أكثر؟

هنا تكمن القضية التي أردت إبرازها، أن المرء قد ينزل عليه عقاب أو بلاء نظرًا لتقصيره مع الله أو لعصيانه، والحقيقة أن رفع البلاء يحتاج إلى التقرب إلى الله بينما يكون هذا أصعب نظرًا لنزول العقاب، إذ إن العقاب يجعل ترك المعصية يبدو كأنه سيُسبب زيادةً في الضرر على العبد. ومثال آخر قصير للتوضيح: إن الله قد يُنزل غلاء السِلع على قوم قد أخفقوا في تأدية زكاة أموالهم، وكي يرفعوا عقاب الله عنهم يجب أن يؤدوا زكاة أموالهم، بينما تأدية الزكاة ستقلل من المال الذي في أيديهم وتجعلهم يعجزون عن شراء السِلع أكثر. فإن الناس قد يُمسكون عن الزكاة أكثر نظرًا لغلاء الأسعار مع أن الأسعار ارتفعت أساسًا بسبب منعهم الزكاة! وعلاج هذا يحتاج إلى رفع إيمان العبد وثقة التوكل على الله في أن الله سيُعينه بعد دفعه الزكاة، فيأخذ القرار ويؤدي الزكاة.

والعاقبة من هذا الوضع هو أن العبد إما أن يزداد وضعه تفاقمًا إذ يدخل في دائرة مُغلقة مُتكررة (تزداد الأسعار فيُمسك أكثر عن تأدية الزكاة)، وإما أن يتوكل على الله بالتضحية من الدنيا حين يصعب هذا كي يكسر هذه الدائرة ويرفع البلاء عنه فيتحسن وضعه، وهذا هو الطريق الأصعب على النفس والذي يسلكه الأقلية من الناس. والعبرة هي أن كلما بَكَّر العبد في التقرب إلى ربه بالطاعة أو بترك معصية، كان الأمر أيسر وأسلم للعبد، فإذا تدهور الوضع فليقفز قفزة التوكل على الله وليفعل الصواب وإن كان شاقًّا.

تعريض النفس لمكر الله، بحيث أن يُختم على قلب المرء فلا يستطيع الرجوع ولو حاول

في الباب السابق، ناقشنا أن المرء قد ينحدر إلى مرحلة يصعب عليه الرجوع منها من شدة انغماسه في المعاصي، ولكن هناك مرحلة أسوأ من ذلك، وهي مرحلة الختم من الله، فلا يستطيع العبد الرجوع وإن أراد! إن المرء إذا تمادى في الإفساد يوشك أن يُختم على قلبه من الله، فلا يُنكر الباطل ولا يعترف بالحق، حتى يبلغ أن يُحكم عليه أنه لن يستطيع الرجوع عما هو فيه ولو أراد وحاول. وليس في ذلك ظُلم من الله، إذ إن ذلك المُبتلى قد ظلم نفسه بالإقبال على الباطل بمبالغة فوق ما تتحمله الفطرة، وكأنه أجبر نفسه على الباطل، فيجتاز الحد الذي يعفو الله فيه ويدخل في نطاق نقمة الله. فمثلًا، الذي يظل سنين يقتل ويخون في المسلمين بينما هو متكبر عنيد كذاب، جمع من أكبر الكبائر أغلبها وأصرّ على هذا الحال، فهل يستحق الشفقة وقد اختار إراديًا ذاك الطريق لنفسه؟

وهناك أدلة على هذه القاعدة، مثل ما حدث مع أبي لهب، فقد نزلت آيات سورة المسد أن أبا لهب سيدخل النار، وكان لا يزال على قيد الحياة، بل وسمع تلك الآيات عنه، ومع هذا لم يستطع

قبول الإسلام. وهناك آية صريحة على تلك القاعدة، فقد قال تعالى {فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ} [الأنعام 125]، والمعنى أن صدره يضيق من الإسلام فلا يستطيع قبوله إلا كمن كُلِّف أن يصعد في السماء بنفسه. فإذا كانت القاعدة تسري في قضية الكفر والإيمان، فمن البديهي أنها تسري في مسألة أقل خطورةً وهلاكًا: بين حال العصيان والتقوى للمسلم.

أما عن الطُرق الذي يمنع الله بها ذاك الشارد، فقد تكون مثل عدم تعريضه للفرص التي فيها منفعة له، مثل تجنيبه التقاء رجُلًا صالحًا حكيمًا يجيد الدعوة يرشده إلى الهداية، أو عدم سماع آيات كانت ستؤثر فيه. أو من جهة أُخرى قد يزيد الله عليه العوامل التي تُجذبه للمعصية مع وضع العواقب التي تمنعه من الرجوع وإن أراد، لأن الله لا يقبله ولا يريد أن يُكرمه بالهداية والنجاة من شدة خبث وقسوة قلب هذا الشخص {وَمَن يُرِدِ اللّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللّهِ شَيْئًا أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [المائدة 41، جزء من الآية]. فمثلًا قد يُهيئ له الله صديق سوء {وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ} [الأنعام 129] يكون قرينه ملازمًا له.

قال تعالى {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ} [الأعراف 146]. هذه الآية تتكلم عن الذين يتكبرون في الأرض لدرجة أنهم يمتنعون عن اتباع الرسل والانقياد إلى المنهج المُنزل من الله، فهؤلاء كان عقابهم من جنس العمل، فمنعهم الله من إبصار آياته ومن ثمَّ التدبر والتفكر في آياته، وحُرموا إبصار الحق مما منعوا أنفسهم في المقام الأول من اتباع الرسل والشريعة.

وهذا بالطبع نوع من أنواع مكر الله، وهو من أخطرهم، أن يختم على قلب المُعرض فلا يستطيع دخول الإسلام، لأنه تعالى يُهلِك بذلك من بالغ في الإعراض عنه. قال تعالى {وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُواْ صَرَفَ اللّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُون} [التوبة 127]، فقد جاءت الآية عن نفر من المنافقين يريدون الانصراف من مجالس رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وكل ما يهمهم هو أن لا يراهم أحدٌ وهم ينصرفون {يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا} [النساء 108]. قد خافوا من رأي الناس فيهم وملاومتهم ولم يخافوا من أن الله يراهم وأنه سيحاسبهم على ذلك، وواقع الأمر هو أن الله صرف قلوبهم عن حُب الحق وتدبر القرآن الذي يتلوه الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وعن الاستفادة بالمواعظ التي يقولها الرسول (صلى الله عليه وسلم).

والمصيبة هي أن بفعلتهم تلك، أي انصرافهم من المجالس، يجهلون أنهم يزدادون صرفًا عن الهداية وتتقلص فرص نجاتهم، وهذا ما أراده الله بهم مكرًا بمكرهم. فنسأل الله ألا يفعل بنا ذلك بسبب معاصينا التي تجعلنا نُعرض عن الله في بعض الأحيان، ونرجو أن يعفو عنا بسبب ضعفنا. وهناك دعاء جميل كان يقوله الرسول (صلى الله عليه وسلم) نحتاجه في مواضع مثل هذه "اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَأَعُوذُ بِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ، لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ"[1].

ولكن مع أملنا هذا، لا يمكن الائتمان من مكر الله، فهو قد يصيبنا، فلا نملك إلا أن نسأل الله ألا يشملنا مع مثل هؤلاء بأن يغلق بابه علينا أبدًا، بالرغم من أننا نغلق الباب الذي بيننا وبين الله أحيانًا بعصياننا له، ونُعكِّر صفاء الجو الذي يربطنا بالله. اللهم عاملنا بما أنت أهله، ولا تعاملنا بما نحن أهله، ونستغفرك من عصياننا لك أحيانًا مما يحول بيننا وبينك، والحمد لك أنك الله بصفاتك التي وصفت نفسك بها.

وقال تعالى {وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ} [الشورى 44]. هذه الآية تتكلم عن الذين أعرضوا عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) فلم يؤمنوا لأن الله أضلهم حتى قادهم إلى العذاب، ولكن لها تطبيق أوسع، وهو على من أكثر على معصية الله بعد الإيمان. أليس الذي يعصي الله بكثرة لاستهتاره ويمكر أنه سيتركها قبيل أجله يُعرِّض نفسه لمكر الله؟ وإذا كتب الله عليه أن يُختم على قلبه ويُضَل بأن يُشرب قلبه حب المعاصي فلا يستطيع تركها حتى يفارق الحياة، أفلا يكون استحق ذلك؟ فماذا أنتظر لترك المعاصي، أرؤية جهنم بعيني والشعور بصَهدِها وسمع زفيرها وشمّ دُخّانها مباشرةً قبل أن أُلقي فيها؟

وقال تعالى أيضًا {وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ (92) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاء رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ} [التوبة 92-93]. الآية الأولى تتكلم عن أناس أتوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ليجاهدوا معه في غزوة تبوك، إلا أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) لم يجد ما يُجهّزهم به. فلما قال لهم ذلك وعلموا أنهم لن يُجاهدوا معه رجعوا وأعينهم تدمع حزنًا بسبب حبسهم وعجزهم عن الخروج، وإن الله قد أعلمهم في هذه الآية أن ليس عليهم وزر لتخلفهم، لأن نيتهم مُحققة ولكن حَبَسَهُم الحال. فلننظر كيف كان حرص هؤلاء المؤمنين على دينهم، فهل يُعقل أن يكون إيمان هؤلاء واستعدادهم للقتال ينبع من كثرة معصية لله؟

---

[1] سنن الترمذي 3486.

هذا حالهم وأنا لي حال آخر، فمتى أكون مستعدًّا مثلهم، فإن التأهب لا يكون إلا بالمواظبة على طاعة الله وترك نواهيه. إنما أخشى أن أكون من نقيضهم يوم يُدعى إلى القتال في زمننا فأكون من الذين يَتَعَذَّرُون ويتهربون، فأتخلف في الدفاع عن الإسلام. حينئذ أكون ممن شملتهم الآية الثانية ولربما يُطبع الله على قلبي، والعجيب أن مع هذا يكون الذل بسبب الخوف من مواجهة العدو والمخاطرة بالحياة، فإن هؤلاء رضوا بحال المُستضعفين المذلولين في الأرض من قِبَلِ غيرهم -أي أعداء الإسلام-، وأن يتمكن الأعداء من السيطرة فيكونون مُهيمَن عليهم، فهو ذل أكبر. والمصيبة أن الله طبع على قلوبهم فوق ذلك، فهم لن يخرجوا من ذاك الحال أبدًا.

وللعلم، إن التيهة قد تأتي تدريجيًّا، فَرُبَّ شخصٍ يواظب على طاعة الله منتهيًا عند حرماته، يبدأ انزلاقه بالوقوع في شبهة من الشُّبه دون مبالاة، ثم يتبعها بمعصية صريحة، ثم تكثر المعاصي وتكبر حتى يصبح قلبه مسودًّا. آنذاك قد يعمد الله على مجازاته على ما فرط بختم قلبه مما يراه الله من سواد قلبه، وسوء نياته، وخبث أفكاره. وقد يأخذ هذا المجرى عدة عقود من الزمن، ولا يُشترط أن تكون بعد بضعة أشهر أو بضع سنين حتى، فلا يشعر بوقوعه حتى يكون قد فات الأوان بختم قلبه وإبطال أعماله، ثم يدرك متأخرًا أن الله قد مكر به، وأنى ينفع الإدراك والندم آنذاك؟

وقد يفتح الله للمرء أبوابًا مُتعددة كإعانةٍ للعبد في النجاة، ويريد من العبد فقط اغتنام تلك الفرص، ولكن هناك من لا يزال يُصر على طريقه، بل وقد يزداد طغيانًا، وفي هؤلاء قال الله عنهم {وَلَقَدْ أَرْسَلنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (42) فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (43) فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ} [الأنعام 42-44]. فهذا مثال على مكر الله الذي لا يُسلم مثواه، وأصاب هؤلاء لأنهم أعرضوا عن عون الله لهم ولم يُنيبوا، بل تمادوا فقست قلوبهم. فوجب ألا يمكر أحدٌ مع الله بنية الإصلاح بعد فعل ما يحلو له من معاصٍ مثلًا، أو بتسويف التوبة مُتعمدًا.

إن الإنسان بطبعه إذا أُصيب ببلاء رجع ولجأ بالدعاء والطاعات إلى ربه رجاء أن يعينه وتُفرج كربته، ولكن مع هؤلاء لم يؤثر فيهم ذلك البلاء الواضح إذ لم ينيبوا إلى الله. فكان مكر الله بهم أن رفع البلاء عنهم، ورزقهم بوفرة من متاع الدنيا كي يزداد عليهم حمل النعم التي لم يؤدوا حقها، بل وصرَّف قلوبهم عن التوبة والإنابة! فأي خدعةٍ مُحكَمة ومصيرٍ محسومٍ ذاك؟! إن ما فعله الله بهؤلاء فيه مكر عظيم، فلنتعظ من ذلك.

والاستدراج نوع من أنواع المناورات الحربية التي يمكن أن تُستخدم، بأن تُعلي آمال عدوك بالفوز فيتراخى في حذره اغترارًا، ثم تسحقه بالهزيمة المُفاجئة والحاسمة. وهذا الأسلوب يجعل العدو يغتر حين الاستدراج، فيزيد من احتمالات أنه يُخطئ بالتهاون في خططه، ويجعله أعمى عن العوامل

التي قد تنقلب ضده. ثم عندما يُهزم يتأزم ليس بسبب الهزيمة وحدها، ولكن أيضًا لأنه يدرك أنه خُدع من قبَل رجلٍ يفوق قُدُراته، فتتحطم عزيمته في المحاربة أكثر. ولله المثل الأعلى، فقد يُفقد هؤلاء المسرفون عزيمتهم أو همَّتهم للرجوع إلى الله، لأنهم لاهون في نعيم الدنيا الذي يصعب عليهم تركه، إلى أن يجدوا أنفسهم في الآخرة قد فات الأوان، عافانا الله من أن نُصبح مثلهم عنده.

وفي تلك الآيات بيان لرحمة الله وعفوه بالتماس الفرص لهم وإعذارهم، فلم يُعذبهم حتى بعث لهم الرسل لينذرونهم، ثم أنذرهم بالبأساء والضراء، ثم بالسراء، مع المُهلة في كل مرحلة، وكل ذلك والله غنيٌ عنهم وعنّا. فاحذر من أن تقع في مكر الله وأنت لا تدرك بسبب سوء اختياراتك وقراراتك في الحياة، وأدرك مراحل الإنذار التي في هذه الآيات. وقد بين لنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) المرحلة الأخيرة "إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنْ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ"، ثُمَّ تَلا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ}[1].

وجاء في عدة مواضع في كتاب الله ما يدل على أن الله يستدرج الظالم والكافر والفاجر للهلاك في الدنيا ببسط النعم لهم، مما قد يبلغ إلى درجة الرفاهية والترف. فكما جاء في الآيات التي تتكلم عن الذين تصدوا لرُسل الله الذين يدعونهم لعبادة الله وحده {وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (33) وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ (34) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ (35) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (36) إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (37) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ} [المؤمنون 33–38].

وقد استفضت في ذكر الآيات التابعة للقضية الأساسية لتوضيح ظاهرة عامة، وهي شدة محاربة مثل هؤلاء المترفين لطريق الحق. فبالرغم من أنهم في ترف، إلا أن عندهم استعدادًا للخروج من ترفهم ذلك وتكبد مشقة ومعاناة وغم محاربة الطريق إلى الله، لأن فيه تنغيصًا نفسيًّا عليهم في ترفهم، إذ يرون الناس يُعرضون عن الترف وينظرون إليهم نظرة إنكار، وبذلك لن يظلوا أسيادًا إذ إنهم سادة في الفساد.

فسبحان الله على حالهم، فلو أنهم أكملوا في ترفهم وذروا محاربة الدعوة إلى الله لكان أفضل لهم من عدة طرق. ما جبرهم أحدٌ على ترك ذلك الترف إذ إن الاهتداء في الدنيا اختياريٌ وليس إجباريًّا، بالإضافة –في حالة المسلم– أن بتطوعهم في محاربة الدعوة قد انتقلوا إلى تصنيف الكفر بدلًا من المسرفين في المعاصي دون الكفر. ولكن يغيظهم الالتزام بالحق، ويغيظهم أكثر توجه الناس

---

[1] مسند أحمد 16673.

إلى ترك الترف والتوجه إلى الحق، فيقطعون على الناس السبيل إلى الحق، وتطوعوا لمحاربة دين الله وحملوا تلك المهمة على عاتقهم، وذلك مما استدرجهم الشيطان إليه ومما تُملي لهم أنفسهم الأمَّارة بالسوء.

ومن أبرز الأمثلة ما جاء في القرآن هو عندما تطاول فرعون ولم يكتفِ برفض الدعوة، وسوَّلت له نفسه تتبع الدعوة والقضاء عليها، فاغتر وتجبر إلى حد أنه ترك ما كان فيه من نعيم وتتبع سيدنا موسى (عليه السلام) حتى بين جبال البحر المنفلق، فأي تمادٍ وعنادٍ وجُرأة على الله تلك؟! قد جاء بيان ذلك كله في الآيات {فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (53) إِنَّ هَؤُلَاء لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (54) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (55) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (56) فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (57) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ} [الشعراء 53-58].

ورجوعًا لآيات سورة المؤمنون، نرى شتى الأساليب الخبيثة للمتكبرين لوأد نور الله، منها الانتقاص من وقار الرسل والاستهزاء بهم علنًا "مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ". ومنها السخرية وانتقاد من يتخذهم قدوةً وإرشادًا "وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ"، فزعموا أن من يتبع الداعي يكون سفيهًا -وفيه استغلال لكثرة عدد الفسدة في التأثير على قرار الشخص المُتفكر، عن طريق التلميح إلى أن أغلب الناس سيرونه سفيهًا، وذلك فيه انحطاط من وجهه ومظهره ووضعه بين الناس-.

ومن أساليبهم أيضًا التهكم من الدعوة نفسها "هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ"، واستخدام تعظيم الناس لهم، ومراكزهم في الدنيا، وتطلع الناس لنيل مثل ما لديهم من نعيم، للتأثير على عامة الناس بآرائهم "إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ"، "وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ". وبالطبع لا نغفل عن إفتاءاتهم الباطلة في أمور الدين الذي هم جاهلون عنه أشد الجهل، وإن فقهوه وأقرُّوا بشيءٍ فيه فإنهم لا يُفعِّلونه في حياتهم في الأصل (حتى الذي اتفقوا على صحَّته، فسبحان الله على نفاقهم)، فقالوا "إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا".

فقد جمعوا بين كل السبل، التهجم على الداعي، والتهجم على من يريد اتباع الداعي، والتهجم على الرسالة التي جاء بها الداعي، واستخدام مكانتهم ونفوذهم بالباطل لنصرة رأيهم وفرضه، وإفتائهم فيما ليس لهم به علم غرورًا للتلبيس على الناس! وسبحان الله، ويكأنهم نموذج محفوظٌ في سلوكهم، وكأنهم جميعًا من منبعٍ واحد ولهم معدنٌ واحد، فهم كما قال تعالى {كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (52) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ} [الذاريات 52-53]. والمعنى أن نفس الافتراء منهم على الرسل يتكرر عبر الأجيال الكافرة، وكأنهم أوصوا بعضهم بعضًا أن يلتزموا بهذا الزعم، مع أنهم لم يُلاقوا بعضهم.

فشدة كفاءة الكافرين في محاربة دين الله، عن طريق مهاجمته بكل السبل لوأد الرسالة بهذه الدرجة من التشابه والنمطية، يشير إلى أن هناك أمرًا أكبر من أنه ينبع من اتباعهم فقط لشهواتهم، وهذا الأمر هو أن هناك من يقودهم ويؤثر فيهم ويدلهم على السُبل لمحاربة دين الله: الشيطان. فقد سيطر عليهم وهم لا يشعرون، طائعين له وهم لا يُدركون، وذلك بسبب إعراضهم عن منهج الله. فيا أيها القارئ، إذا رأيت المحارب لدين الله ستجد فيه كل تلك الظواهر فيه وليست فقط ظاهرة واحدة، فتعرَّف عليه حتى لا تنخدع فيه ويفتنك فيقودك إلى الهلاك. والحمد لله الذي جعل للكافر الفاسق علامات نموذجية نُمّيزه بها حتى لا نُفتتن به! {وَلَوْ نَشَاء لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ} [محمد 30].

وأنى لهم التخلي عن هذه الدرجة من الرخاء والترف والمتعة للخوض في عيشة معاناة تتمثل بالجهاد في سبيل الله، بينما قد يتحملون مشقة محاربة دين الله، بعدما وجدوا لكل حقيقة حجة أو تشويهًا أخمدوا بهم ضميرهم وأقنعوا أنفسهم بهم. تحجُّجات مثل أن الداعي إنما هو بشر مثلهم، وأنه من المستحيل أن يُبعثوا بعد الموت إذ إنهم لا يعقلون ذلك وأنهم لم يروا آباءهم يُبعثون، وأن الداعي يكذب على الله. إنه شبه مستحيل أن يرجعوا عن ذلك إلا إذا هداهم الله وأعانهم، ولكن هذا مكر الله بهم واستدراجهم إياهم بما لا محالة لهم عن تفاديه.

وقال تعالى {فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ} [التوبة 55]. في هذا دلالة على أن عطاء الله من الدنيا، لمن يكفر به، إنما يكون مكر الاستدراج ليزدادوا عذابًا في الدنيا (والآخرة أيضًا كما دلت آيات أخرى)، ففي الدنيا يتحسرون إذا فاتهم منها شيءٌ بالرغم أن المرء منهم قد يكون معه الكثير. إضافة إلى ذلك أنهم يتحسرون عندما يضطرون إلى إنفاقها، كما قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ} [الأنفال 36]، فهي حسرة مزدوجة لهم لأنها من كلتا الجهتين، المكسب والمَنفق. ينبغي أن نعي أن الله قد يُصيب المسلم أيضًا بذلك المكر إذا أسرف في المعاصي، وليس الاستدراج مُقتصرًا على من كفر.

والاستدراج يكون أشد، بعدما يفيض الله على العبد بالمتاع، إذا أطال الله في عمر ذاك الشخص أيضًا. وهذا مأزق مُرَكَّب، لأن العاصي عندما يطول عمره وهو مُسيء فإنه يزداد حملًا للأوزار، كما نبأنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عندما سُئل: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟ قال "مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ"، ثم سُئل: فَأَيُّ النَّاسِ شَرٌّ؟ قال "مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَسَاءَ عَمَلُهُ"[1].

---

[1] سنن الترمذي 2252.

ومن جهة أخرى، فإن تأثير طول العمر مع وجود وفرة من النعَم عند العاصي يجعله يزداد طُغيانا وجُرأةً على حدود الله، إذ يحدث عنده تبلد من خشية انتهاك حدود الله، وأيضًا تَبلى عزيمته وطاقته عن اتقاء الله، وكلا العاملين يؤدي إلى التمادي في الفجور والوقاحة. وهذا المثل مذكور في الآية {بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ} [الأنبياء 44]. جاء في تفسير الوسيط للشيخ محمد طنطاوي (رحمه الله): أي: لا تلتفت -أيها الرسول الكريم- إلى هؤلاء المشركين الذين أعرضوا عن ذكر ربهم، والذين زعموا أن آلهتهم تضر أو تنفع، فإننا قد كلأناهم برعايتنا بالليل والنهار، ومتعناهم وآباءهم من قبلهم بالكثير من متع الحياة الدنيا، حتى طالت أعمارهم في رخاء ونعمة، فحملهم ذلك على الطغيان والبطر والإصرار على الكفر. وسنأخذهم في الوقت الذي نريده أخذ عزيز مقتدر، فإن ما أعطيناه لهم من نعم إنما هو على سبيل الاستدراج لهم (انتهى).

ومأزق آخر من هذا الوضع في الاستدراج هو أن الفرد يبدأ ينشأ عنده عقائد منحرفة، فينبع منه أطياف من الاعتقادات الشاذة، والنتيجة هي أن إدراكه أنه على خطأ ورغبته في إصلاح حاله (من عصيان الله) يتلاشيان، فلا يرى أن عليه تغيير سلوكه. فمثلًا، منهم من يؤمن أن تلك النعم دليل على حب الله له، بالرغم من إعراضه عن الله وعصيانه، ومن ثم يرى أن الله سيجزيه بالنعم في الآخرة أيضًا!

ومنهم من بلغ انحراف معتقداته إلى أنه مقتنع أنه يتقرب من الله تقرُّبًا عظيمًا بعملٍ هو في الحقيقة معصية، كمن يعمل بدعة سيئة قد ابتدعها في دين الله، مثل الذين يطوفون بقبور الصالحين -وربما مبتدعون أو منافقون من الأصل- يطلبون منهم الشفاعة عند الله، بل ويطلبون منهم تحقيق احتياجاتهم! ومنهم من يرى أنه يُقدِّم منافع كثيرة للناس فسيُغفر له معاصيه التي يرتكبها، مثل الذي يَمُنّ على فقير بالقليل من الدراهم بعدما اختلس الكثير من أموال الناس. ومنهم ومنهم ومنهم؛ فلا نهاية للمعتقدات المُنحرفة التي تنشأ عند من يستدرجه الله.

ثم قد ينحدر مستوى المرء فيغرق في ضلاله أكثر وأكثر حتى يصل إلى مرحلة أنه لا يكتفي أنه في الضلال وحده، بل يتحمس أن يستقطب من حوله أن يفعلوا مثله، فيكون داعيًا للضلال أيضًا، فيكون قد انتقل من منزلة الضال إلى منزلة الضال المُضل والعياذ بالله! قال تعالى {وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ} [القصص 41]. ومهما تفكرت في حال هذا الشخص، إلا أني لا أجد إلا البؤس في مصيره ومثواه، إذ إن الله قد يعفو عن الضال الذي لم يتب (في العمل وليس في العقيدة)، ولكن المُضل له تصنيفٌ مختلفٌ عند الله، إلا إذا تاب العبد وتاب الله عليه.

وهذا الشخص، ولو بدرجة أدنى إذ لا يدعو إلى الكفر ولكن يدعو لمعصية الله، يكون مثل الذين قال الله فيهم {وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا

عِوَجًا} [الأعراف 86، جزء من الآية]. والسبب وراء أنه يريد دفن الحق وأن تكون الأوضاع في الدنيا مُعوَجَّة لكي يستطيع أن ينجح في تحصيل الدنيا {الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُوْلَئِكَ فِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ} [ابراهيم 3].

ومن مكر الله بالمرء أنه إذا أسرف العبد في معصية ما ولزمها دهرًا من الزمن فقد يُزين له تلك المعصية أكثر، فلا يستطيع تركها إلى آخر أجله والعياذ بالله. وكذلك لمن يرى الحق ثم يُعرض عنه عمدًا، فقد قال تعالى {أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ} [محمد 14]. هذه الآية تبين لنا نقطة مهمة من كلمة "زُيِّنَ لَهُ"، ولم يُقال: زَيّنَ لنفسه/تزين له، مما يؤكد على أن الله مكر بهم فزين لهم سوء أعمالهم، فأصبح مصيرهم اتباع أهوائهم لا محالة من شدة حُسنها عندهم.

ذلك لأنهم كرهوا الحق واتبعوا أهواءهم الباطلة، فكان عقابهم أن الله ختم على قلوبهم وزين لهم أعمالهم، فانغمسوا فيها لدرجة أنهم لا يستطيعون تركها. وهذا مثل قوله تعالى {وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ} [محمد 16]، لم يستطيعوا الاستفادة من كلام الرسول (صلى الله عليه وسلم)، فأي عاقبة في الدنيا أخزى وأهلك من تلك؟ وهذا يُضاف إلى الهلاك والخزي في الآخرة.

فيجب أن أحذر من أن أُقدِّم هواي على الحق، فلربما يقع هوى على هوى حتى أصل إلى سخط الله، فيُزَيَّنُ لي هذا الهوى -مهما صغر أو كبر- فلا أستطيع تركه. وعلى هذا الأساس نرى أناسًا يستنتجون أفكارًا مثل أنه لا بأس، بل وقد يزعمون أنه يَحِق، للمرء أن تكون له معصية واحدة يعتادها، أو أنه لا بأس أن يستمتع بفترة شبابه ولو بمعصية الله لأنه سيكون عليه التزامات الحياة وينشغل عندما يكبر. أولئك قد أصابهم الغرور فلا يتفقهون في الدين ولا يأخذون برأي عالم، ويفهمون الآيات بحسب منظورهم للحياة، فقد يُحِلُّون حرامًا ويُحرمون حلالًا لأي عذر كان، مثل أن العصر غير العصر، أو تمثّلًا بالدول "المتقدمة" التي نبذت الدين عن الحياة ففتح الله عليهم متاع الدنيا استدراجًا، أو بزعم الحرية والديمقراطية التي قدّموا قوانينها فوق الإسلام. والعياذ بالله من ذلك كله، ووجب تجنبه والحذر منه، ونسأل الله العفو والعافية في الدنيا والآخرة وأن يقبضنا غير مفتونين.

ومما يُعرِّض المرء نفسه له بالمعاصي هو بطش الله، البطش الذي أعلمنا الله إياه {إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ} [البروج 12]. فمن منا يريد أن يُعرِّض نفسه لذلك وقد حذرنا الله من نفسه؟ فمن صلح عمله سلم من بطش الله، ومن أكثر معصيته وقع تحت طائلة البطش، ولا يظن أحدٌ أن البطش يكون فقط للكفار، بل هو لكل من غضب الله عليه. ولكن قد يكون البطش بدرجات متفاوتة، وكله شديد، فالبطش بالكافر يكون أشد من البطش بالمسلم العاصي.

وأوضع مثالًا واقعيًّا، ومما يدل، على أن الله قد يختم على قلب العبد حتى لا يرجع إلى الهدى هو ما جاء عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) "لَمَّا أَغْرَقَ اللَّهُ فِرْعَوْنَ قَالَ: آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ، فَقَالَ جِبْرِيلُ: يَا مُحَمَّدُ، فَلَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا آخُذُ مِنْ حَالِ الْبَحْرِ فَأَدُسُّهُ فِي فِيهِ مَخَافَةَ أَنْ تُدْرِكَهُ الرَّحْمَةُ"[1]. ومما لا شك فيه أن جبريل (عليه السلام) لم يكن ليفعل ذلك إلا إذا أذن له الله بذلك، بل وربما أُمر بذلك، مما يدعو إلى الرعب. أفلا أعتبر إذًا؟ أفلا أخشى أن يُفعل بي مثله؟

ودليل آخر يوجد في الآيات التي فيها نبأ أناس سيدخلون النار لا محالة، وذلك في أثناء محياهم، مثل أبي لهب الذي سيصلى نارًا ذات لهب، والعاص بن وائل الذي قال تعالى فيه {كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا} [مريم 79]. فكل ذلك يدل على أنهم سيدخلون النار لا محالة، ما يشير إلى أنهم مختومو القلوب إذ إنهم لن يستطيعوا أن يدخلوا في الهدى أبدًا إلى مماتهم لينجوا مما نبأهم الله به. وجاءت آيات صريحة على أنه تعالى قد يقضي على أناس أنهم سيدخلون النار لا محالة، فلا سبيل لأن يُهدَوا إلى الحق (إذ خُتم على قلوبهم) بسبب قبح أعمالهم {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ (96) وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ} [يونس 96-97]، فلنبذل أقصى طاقتنا في تفادي أن نُدرَجَ منهم.

ومن أفزَع ختم القلب هو ما قاله ابن القيم (رحمه الله) من خسف ومسخ. أما القلب المخسوف، فهو الذي يُخسف به إلى أسفل السافلين وصاحبه لا يشعر، وعلامة الخسف به أنه لا يزال جوالًا حول السفليات والقاذورات والرذائل، عاشقًا لهذه الأجواء. وأما القلب الممسوخ، فهو الذي يُخسف إلى قرينه من قلب الحيوان الذي يشبهه في الأخلاق والطباع، مثل الكلب أو الخنزير أو العقرب أو الحيَّة (انتهى بتصرف من كتاب الجواب الكافي). والمصيبة بعد كل هذا ليست فقط أن ذاك العاصي قد لا يرى ولا يشعر ولا حتى يقتنع بمرض قلبه، بل إنه قد يفرح بمرضه ظنًّا أنه ميزة!

قال ابن القيم (رحمه الله): فسبحان الله! كم من قلب منكوس (المقلوب الذي لا يدخل فيه الخير) وصاحبه لا يشعر؟ وقلب ممسوخ وقلب مخسوف به؟ وكم من مفتون بثناء الناس عليه ومغرور بستر الله عليه؟ ومستدرج بنعم الله عليه؟ وكل هذه عقوبات وإهانات ويظن الجاهل أنها كرامة[2]. وقد قال أبو الفَرَج بن الجوزي كلامًا حول هذا: أعظم المُعاقبة ألا يُحِسَّ المُعاقَب العقوبة، وأشد من ذلك أن يقع السُرور بما هو عقوبة، كالفرح بالمال الحرام، والتَّمكُن من الذنوب، ومَن هذه حالُهُ لا يفوز بطاعة[3].

---

[1] سنن الترمذي 3032.

[2] الجواب الكافي لابن القيم 119.

[3] صيد الخاطر لابن الجوزي 16.

فالمصيبة المصيبة أن يكون العبد مُستدرجًا من الله وهو مُقتنعٌ أن الله يُنعم عليه مكافأة على الحُسنى، بالرغم أنه كثير العصيان لأوامر ربه وطالب لما يبغضه الله، ويُسبب الفساد في أماكن شتى في الأرض، ويظلم الناس، ويُقدِّم الشحيح من الطاعات، وإن قدَّم طاعة منَّ بها على المخلوقات، واستعظم هذه الطاعة البسيطة التي يُقدّمها مع أنها لا تنفع الله ولن تضره تعالى إن تُركت. فهذا الذي ينطبق عليه القول: من وُسِّعَ عليه دُنياه ولم يعلم أنه مُكِرَ به فهو مخدوع عن عقله[1]. فأي داهية تلك التي أوقع نفسه فيها؛ كيف يخرج من هذا الفخ وهو مقتنع أنه في نعمة؟!

كثرة المعاصي تجعل المرء ضالًّا ومُضلًّا لغيره، إما متعمدًا وإما غفلةً

إن العبد إذا أسرف في المعاصي، أو لزم معصية مُحددة يألفها قلبه حتى يُحبها ويعتاد عليها ويتلاشى ما كان يراه فيها من سلبيات، يؤدي ذلك حتمًا إلى أحد ثلاث أمور: إما أن يرتكبها ويؤمن بحُرمانيتها ولكن يكاد يكون أثر هذا مُنعدمًا عنده، وإما أن يستحلها لنفسه فحسب، وإما أن يستحلها عامةً لكافة الناس، فيُزين تلك المعصية للناس ليخوضوا فيها مثل ما يخوض هو فيها، وليستمتعوا بها (في نظرته) كما يستمتع هو بها. هو يدعو الناس إليها لأنه يرى أنهم لا يرون متعة تلك المعصية كما ينبغي، وبسبب تعوده عليها فإنه يستصغر أضرارها. وهذا يقوده إلى التجرؤ وإضلال غيره عمدًا، بأن يُروِّج لها حتى لا يكون وحده فيها، لأن كثرة الناس تُشعره أنه صائبٌ.

أما الذي يستحلها فقط لنفسه فإنه غالبًا ما سيرتكب تلك المعصية أمام أناسٍ، وهؤلاء عندما يرونه عليها –لو لم يكونوا ينهون عن المنكر– يألفون رؤيتها حتى لا تصبح منكرةً عندهم كما ينبغي، فلربما يخوضون فيها بعد ذلك. وهكذا يكون المرء قد أضلهم بغير عمدٍ، ولكن مع ذلك فعليه من وزرهم. والأدهى من ذلك هو عندما يكون من يستحل المعصية ذا سلطة بين الناس أو شُهرة أو ذا أملاك وأموال كثيرة، فيكون أثره في المجتمع أوسع وأشد، وذلك لأنه قدوة لكثير منهم، فيمتثلون به ويوقِّرونه بينما هو ليس أهلًا للتوقير ولا القدوة.

هؤلاء باستكبارهم، بما أنهم استحلوا وجهروا أيضًا بالمعصية، بدأوا يتشابهوا بالذين قال الله فيهم ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (31) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ (32) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ 31–33]. انظر أخي كيف يكون النقاش بين المستكبرين والمستضعفين ممن استحق العذاب،

---

[1] المفردات للراغب 471.

فاجتنب أن تكون من هؤلاء الذين وجدوا أنفسهم أورطهم المستكبرون إلى ارتكاب المعاصي، كائنًا من كان، فإنه سيتبرأ منك ويُلقي اللوم عليك، ولن يُغني عنك من الله شيئًا.

وقد قال الحسن بن أبي الحسن (رحمه الله) كلامًا بالغًا في النصح والبصيرة يُساعد في التحرر من هيبة المتجبرين، والسداد في تبَصُّر الأمور قائلًا: يَا ابْنَ آدَمَ، لا تُرْضِ أَحَدًا بِسَخَطِ اللَّهِ، وَلا تُطِيعَنَّ أَحَدًا فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَلا تَحْمَدَنَّ أَحَدًا عَلَى فَضْلِ اللَّهِ، وَلا تَلُومَنَّ أَحَدًا فِيمَا لَمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ، إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ وَالْخَلائِقَ فَمَضَوْا عَلَى مَا خَلَقَهُمْ عَلَيْهِ، فَمَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنَّهُ مُزْدَادٌ بِحِرْصِهِ فِي رِزْقِهِ فَلْيَزْدَدْ بِحِرْصِهِ فِي عُمْرِهِ، أَوْ يُغَيِّرَ لَوْنَهُ، أَوْ يَزِيدَ فِي أَرْكَانِهِ أَوْ بَنَانِهِ[1] (انتهى). وفي نفس الوقت، احرص من أن تكون داعيًا للمعاصي سواء بالحث عليها أو بالبواح بها أو بجعلها تبدو مألوفة للناس، لأنهم سيرمون بأثقالهم عليك ثم يتخلون عنك يوم القيامة، ولن يغنوا عنك من الله شيئًا. فلا تكونن ضالًّا ولا مضلولًا.

قال الله عز وجل {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلانَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ} [فصلت 29]. هذا قول الكفار في نار جهنم، ولكن قد لا يقتصر ذلك بينهم فحسب، بل يكون في النار من المسلمين من يقول مثل ذلك. ولهذا الوضع طرفان تحترس منهما لتتجنب ذاك المآل، أن تكون أنت المضلول أو تكون أنت المُضِل، وذلك كان يتعوذ منه الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيما ترويه لنا السيدة أمّ سَلَمَةَ (رضي الله عنها) قائلةً: مَا خَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ بَيْتِي قَطُّ إلا رَفَعَ طَرْفَهُ إِلَى السَّمَاءِ فَقَالَ "اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أُضَلَّ، أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزَلَّ، أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ، أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ"[2].

فلا تكونن مضلولًا بأن يحملك حماس الناس أو كثرتهم أو مكانتهم في الدنيا على التواطؤ معهم، وتغتر بما يُعرضونه فتشرد عن الصراط المستقيم بمعصية الله، ولو كانوا يضغطون عليك بشتى السُبُل. وربما لن تلاحظ ثمار صبرك في الدنيا -بالرغم من نزولها-، ولكن حتمًا ستراها جليًّا في الآخرة أضعافًا مضاعفة. وأيضًا لا تكن ضالًّا، بأن تعصي ربك فتُعرّض نفسك لمكر الله بك، كأن تعصي الله في ملأ، أو البواح بها بعد ستر الله عليك، فيستحسن ما فعلته أناس غيرك ويتمثلون بك، فيكون لك كفل من معاصيهم وأنت لا تدري -وربما لم تقصد- أنه يتّبعك أحد. ويوم القيامة يقولون عنك مثل ما يقال في الآية، وأنت لا تدري كيف كنت مُضلًّا، ولا تعرف بعضًا من هؤلاء الناس حتى.

وقد بين لنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) كيفية حدوث هذا في الحديث "لا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا إلا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا، لأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ"[3]. والسؤال الذي يجب أن نسأله

---

[1] الطبقات الكبرى لابن سعد 175/7.

[2] سنن أبي داود 4430.

[3] صحيح البخاري 3088.

هو: هل كان ينوي ابن آدم أن يتّبعه الناس في القتل؟ وترتب على ذلك أنه يحمل من آثام من تبعه إلى يوم القيامة، وإثم القتل عظيم، وانظر كم من أناس قُتلوا ظلمًا في الحروب بين الدول وداخليًّا والاغتيالات السياسية ولأغراض شخصية بين الأفراد وغير ذلك. فتفكر يا أخي، واحترس لكيلا تجد نفسك في مثل ما فيه ابن آدم الأول بذنب آخر (ولو كان الذنب من الصغائر، فبالاستمرارية تتراكم الذنوب).

وجاء الوعيد من الله في إضلال الناس عامة، والمؤمنين خاصة، في قوله {إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ} [البروج 10]. قال المفسرون إن هذه الآية نزلت في أصحاب الأُخدُود الذين حرقوا كل من آمن بالله، وخيَّروا المؤمنين أن يكفروا فلا يُقذفون فيها، وإلا إذا أصرّوا على إيمانهم فسيُقذفون في النار قهرًا. ولكن قد تُحمل هذه الآية عامةً أيضًا، لأن أصحاب الأخدود فتنوا المؤمنين عن دينهم بالتهديد بحرقهم في النار، وفتنة المؤمنين عن دينهم لها طُرُقٍ شتى، سواء بالترويع أم بالإغراء. فمن الترويع التهديد بالقتل، أو بالتعذيب دون القتل كالحبس أو الخنق أو الكي أو غير ذلك من الأساليب الإجرامية، وأما بالإغراء فيكون بمواعدتهم المال أو السلطة أو النساء مثلًا.

وأغلب هذه الأساليب لا تخفى على الناس إذ سمعوا عنها أو حتى رأوها، ولكن هناك أساليب لفتنة المؤمنين في الخفاء، كأن يُخَطَط لنشر الفرقة بين المسلمين، أو أن يمكر المتربصون ليُشحنوا مسلمًا ضد مسلم آخر حتى ينوي على أذيته، أو الطعن في الإسلام لإدخال الشك وزرع اعتقادات خاطئة عند ضعاف الإيمان والعلم. وذلك قد كثر في زمننا هذا حتى إنه ليُطَبَّق على مستوى الشعوب، فنرى كما رأينا في بعض الدول الإسلامية أن فئة من المسلمين يقتلون فئة من إخوانهم المسلمين في نفس المدينة، بل ونفس الحي حتى، ويتم رفع العلوم الإسلامية من المناهج التعليمية.

ومن الأساليب الخفية لفتنة المسلمين أيضًا أن ترى الرجل يبلغ من الدنيا ما بلغ، إما بتميزه في علوم الدنيا أو بالأموال الطائلة أو بالشهرة أو بالسلطة، ثُم يحث الناس (بعد ما ناله من مكانة عندهم وبينهم وتَمَكُّنَ وضعه) على فكرة شاردة عن الإسلام مع أنه مسلم (أو يَزعُم كذلك). فمثلًا يَحُث على معصية معينة، أو ترك صلاة الجماعة في المسجد، أو لفصل الدين عن السياسة، أو الانتقاص من آية أو حديث أو مبدأ أقرّه علماء الإسلام. ولو أن ذلك الشخص اقتصر فكره أو رأيه على نفسه ما كانت لتكون فتنة للمسلمين، ولكن مُصيبته أنه اغتر وأُعجب بنفسه حتى إنه جهر بتلك الفكرة المُفسدة، بل وحث الناس على اتّباعه كي يصلوا إلى ما هو عليه، وتلك هي الفتنة.

وهي فتنة لأن ليس كل المسلمين فقهاء في دينهم بدرجة عالية، وليس كلهم على درجة عالية من الإيمان، وهذا ما أشار إليه رب العزة في قوله تعالى {وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ} [البقرة 78] (أي عن عامة اليهود، لا يعرفون الكتاب حق معرفته وكانوا

يتّبعون ما يتلقونه من أحبارهم، الذي كان فيه تحاريف مدسوسة من الأحبار). ولكن الله قد حذرنا من فتنة دعاة الباطل المتمكنين في الأرض قائلًا {لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي الْبِلاَدِ (196) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ} [آل عمران 196-197].

فالحذر كل الحذر من أن تقع في هذا الفخ يا أخي، أن يفتنك من هو قد نجح في الدنيا وهو يجهل أو يتعاند في الدين، أو على الوجه الآخر أن تكون من الذين إذا مُكِّنوا من الدنيا أذاعوا بالفتن والذرائع، فأحدثوا الفرقة والشروخ والفساد في المجتمع الإسلامي. ويكفي تحذيرًا لنا من أن نكون ضالين لغيرنا في مَثَل إبليس، إذ إنه آمن بالله وحده، ولكن بسبب أنه تحدى حُكم الله فسعى بين الناس ليكفروا بالله وأضلهم بذلك، أصبحت عاقبته الخلود في النار مثل الكفار لأنه يحمل من كِفل كُفرهم بالله.

ظواهر شاذة في سلوك الناس والحيوانات والأرض، وتبعات المعاصى تظهر على غير العاصي حتى

قال تعالى {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الروم 41]. هذه ظاهرة تدعو للخجل، فبسببي وبسبب عصاة مثلي ظهر الفساد في البر والبحر، منها ما ذكره الرسول (صلى الله عليه وسلم) "نَزَلَ الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ مِنْ الْجَنَّةِ وَهُوَ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنْ اللَّبَنِ، فَسَوَّدَتْهُ خَطَايَا بَنِي آدَمَ"[1]. فالآية تدل على أن المعاصي لها أثر يتعدى مرتكبيها حتى يصل إلى الآخرين، فيظهر بسورة واضحة في ما حولنا.

وقد ذُكر سابقًا حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والذي فيه بعض الآثار المترتبة على معاصٍ مُحددة "يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ، لَمْ تَظْهَرْ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلا فَشَا فِيهِمْ الطَّاعُونُ وَالأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلافِهِمْ الَّذِينَ مَضَوْا، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمَئُونَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنْ السَّمَاءِ وَلَوْلا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا، وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ، وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلا جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ"[2].

فسبحان الله، قد رأينا كل هذا في زمننا هذا للأسف، وقد ظهر تلامس الرجل بالمرأة -بل الغلام بالغلامة- علنًا، إلى درجة الزنا الأكبر في مخابئ الطرق أحيانًا، فظهرت أمراض لم نعهدها ولم نجد لها علاجًا مثل نقص المناعة المكتسب (الإيدز). وكثر الغش في البيع والشراء حتى أصبحت

[1] سنن الترمذي 803.

[2] سنن ابن ماجه 4009.

عادة في بعض الأوضاع، مثل ما يحدث في بيع المنازل، فيتم إعلان مساحة على الأوراق أكبر من مساحة المنزل الفعلية. والنتيجة أننا نجد الرجل يعمل ليل نهار وبالكاد يجد ما يكفي عائلته، ويمر بأزمات مادية، لا يأخذ أجرًا ماديًّا يتناسب مع جهده الذي يبذله.

وتتعجب حين ترى السلطان يزداد غنًى ورخاءً على حساب قومه بالرغم من تدني حال القوم، بل ويستضعف طائفةً منهم ويضطهدهم. وكثر التهرب من الزكاة فأصبحت البهائم عند الله أعز منهم، فيُرزَق المانعين برزق البهائم. وبالنسبة إلى منع القطر، فقد ترى السحاب الغزير الممتلئ يمر فوقنا في مَوسِمه ولكن لا ينزل منه المطر (أو يكاد ينزل)، فيتعدانا وتُمطر في مناطق بعدنا، فقد فاتنا الخير الذي كان سائرًا في اتجاهنا بسبب معاصينا. وعلى الوجه الآخر، قد تأتي سنة ينزل فيه المطر بغزارةٍ حتى تحدث سيول تتسبب في خسائر ومعانات.

ونُقض عهد الله ورسوله فلا تنصر الدول الإسلامية بعضها بعضًا ضد العدو، حتى دخلت بلادنا دول تسرق البترول وموارد أُخرى، وتتحكم في الأسعار والنظام الاقتصادي، وتملي علينا القوانين وتبطش بنا باستخدام مصادرنا، فأصبحنا كالرعية لهم وهم يسوقونا في أوطاننا. والطامة الكبرى في ظهور كثيرٍ من الذين يقال عليهم من مُثقفي المجتمع ويُطالبون بفصل الدين عن السياسة، فيُطالبون بحُرقةٍ أن تكون الدولة حُكمها ديمقراطيًّا أو مدنيًّا أو ليبراليًّا أو غير ذلك، فأي شيءٍ مقبول إلا أن تكون دولة إسلامية، والعياذ بالله مما يقولون وندعو بالعافية مما هم فيه.

وذلك التخاذل منهم لدين الله أدى إلى أن الرجل يقتل أخاه وبالجموع، فهأنا في مصر قد رأيت ما يُفطر القلب أن المسلم يقتل المسلم، وفي سوريا المسلم يقتل المسلم، وفي ليبيا المسلم يقتل المسلم، وكذلك في اليَمَن والعراق وغيرهم، حتى بلغت هذه الظاهرة بلاد الحرمين الشريفين –منبع الرسالة وموطن الرسول (صلى الله عليه وسلم). هذا بينما يزدهر أعداء الإسلام من اليهود وهم بيننا ولا يُحارَبون... فقولوا لي كيف تقوى الأمة الإسلامية ونتصدى للدول المعادية للإسلام ونحن نقتتل فيما بيننا والأمراض فينا داخليًّا؟

وهذا لأن فئة كبيرة من المجتمع تخاذلت أو حتى عارضت أحكام شرع الله في البلاد، فحدث ما حذرنا منه الله بأن التبس علينا الحق من الباطل، فأصبحت الأمة شيعًا، تُذيق الفرقة منهم الفرقة الأُخرى بأسها {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ} [الأنعام 65]. فما ظنك بنا يا رسول الله (صلى الله عليك وسلم) إذا رأيت حال الأمة الإسلامية على ما هي عليه في هذا العصر؟ إنا لله وإنا إليه راجعون.

ثم دون شك، إن أثر المعصية تُضَر بها الحيوانات والنباتات التي لا علاقة لها بالإنسان، فقد يهلك الله قومًا لا يحملون على الظالم كما جاء عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) في الحديث "إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ"[1]. وهذا قد يحدث حتى وفي القوم أُناس صالحون كما دل حديثٌ آخر "إِذَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِقَوْمٍ عَذَابًا أَصَابَ الْعَذَابُ مَنْ كَانَ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ، ثُمَّ يَبْعَثُهُمْ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى أَعْمَالِهِمْ، كَذَا فِي الْكِتَابِ"[2]. والأدلة على هذا النحو كثيرة، مثل قرية قوم لوط عندما رُفعت إلى السماء سمع الملائكةُ نباح الكلاب، ثم قُلبت عاليها سافلها، فهلكت حيوانات القرية.

والعكس صحيح، فإن طاعة الله والاستكثار من الاستغفار والنهي عن المنكر يدفعون عذاب الله من النزول، ويزيدون الرزق والبركة. جاء في كتاب الله {وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} [الأنفال 33]، وعن سيدنا نوح (عليه السلام) {فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (10) يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (11) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا} [نوح 10–12]. ومن السنّة النبوية جاء عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "مَنْ لَزِمَ الاسْتِغْفَارَ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا، وَمِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ"[3].

إضافةً، تشير آية سورة الروم –التي تتكلم عن ظهور الفساد في البر والبحر– إلى أن الله قد يعاقب قوم لسببٍ أهم، وهو لصلاح حالهم، فالعقاب يجعل الإنسان ضعيفًا منكسرًا ويتذكر ربه، فقد يرجع إلى الله تائبًا منيبًا. وتدل هذه الآية أيضًا أن ما يصيبني من ضراء فهو بما تسببت يديّ، فلا ألومن إلا نفسي. ومن أكبر الأدلة على أن السيئة يظهر أثرها على غير العاصي هو انتشار البلاء على قوم فيهم الصالحون، ولا يعني هذا أن هناك ظُلمًا من الله قد وقع على أبرياء، فإنفاذًا للعدل يجعل الله ما يُصيب الصالحين من تعميم البلاء (بسبب فساد القوم) تكفيرًا لسيئاتهم، ويُعوَّضون برفع درجاتهم في الآخرة، وهذه سُنَّة الله التي وضعها في الأرض، وهو يفعل ما يشاء دون أن يُسأل.

وظهور آثار المعاصي على غير العاصي ليس ظُلمًا لهم إذا نظرنا إلى الصورة الكاملة، لأنهم بهذا لهم حقوق عند العصاة، وسيستردون حقوقهم منهم في الآخرة بالحسنات والسيئات. وما وقع هذا البلاء إلا كتوابع لأفعال العاصي، وأنها تؤثر على غيره سلبًا، وذلك سببٌ آخرٌ على تحريمها في المقام الأول. وفي تحقيق ذلك مكرٌ بالعاصي إذ يتراكم عليه حقوق من الذين حوله وهو لا يشعر ولا يدري، إلى أن تُقتص منه يوم القيامة!

---

[1] سنن الترمذي 2094.

[2] مسند أحمد 5930.

[3] سنن أبي داود 1297.

ومن تلك الظواهر: انحدار في أخلاقيات المجتمع، وشيوع أفعال مُنكَرة ليس فقط بحسب أحكام الدين، بل وفي عُرف العادات والتقاليد الاجتماعية أيضًا، بعدما ظن المنسلخون عن الإسلام بسذاجة أن التقدم 'الحضاري' وحده سيحول عن تفشي انحدار الأخلاق بعد التخلي عن الدين. وانحدار الأخلاق مع ظهور سلوكيات عجيبة تطال جميع فئات المجتمع، حتى تدخل معاقل المسلمين مثل المساجد، فيتأثر أهل المساجد، فتسمع النغمات فيه عن طريق الهواتف مثلًا، ويتشاجر – وللأسف– المصلون مع بعضهم في قلب المسجد، بالصياح وربما السباب أيضًا.

بل وأحيانًا يتشاجر إمام مسجدٍ مع عُمَّال المسجد، أو مدير المسجد مع موظفي المسجد أو حتى بعض المُصلين، قد أصابتهم الفتن وتأثروا بسلوك من ليسوا من أهل المساجد. وسبب ذكري لهذه الحقائق المؤلمة والمُخجلة هي لمصارحة أنفسنا بالمرض للتمكن من علاجه، فإن ظن المسلمون أن بقعودهم سلبيين أمام الظالمين وتَجَنُّبهم للمُفسدين دون الإنكار عليهم وصدِّهم أنهم سيبقون سالمين منهم، فإن الظُلم والفساد سيُلاحقهم. وسيظلان يتفشيان حتى يدخلا عقر معاقلهم: المساجد، ويُضطهد العلماء المخلصون، فلا شخص ولا مكان يُوَقَّر فينجو.

ومن تلك الظواهر، بعد انحدار القيم والمبادئ والأخلاق المجتمعية، وتفشي الرذيلة، أشياء أخرى قد يتعجب من أسباب حدوثها المبتعدين عن الإسلام. فمثل ذلك هو تمكُّن الظالم من الاستيلاء على السلطة رغم أنف أغلبية الناس الكارهين والرافضين له.

وتظهر أيضًا أمراض وآفات وطفيليات واضطرابات في الأرض والبحر والجو، وإعجاب كثير من الناس بفكرة نبذ الدين عن جوانب الحياة وعدم تمكينه، والتمادي في تكشف المرأة لجسدها في الأماكن العامة، وانتشار الفتن التي تجعل كثيرًا من الناس يمرقون عن دينهم والعياذ بالله. فلماذا إذا جلب كل تلك الدواهي على أنفسنا بمعاصينا لله، ألسنا في غنًى عن كل تلك المشكلات؟

ولا شك أن البلد الممتلئة بالعصاة تكون لها معيشة ضنك بائسة، ومن ضمن الظواهر للمعيشة الضنك هو أن الثمار، مثل الفاكهة، تخرج معلولة أو فاسدة، فتجد كثيرًا من الفاكهة فيها نقرة فاسدة مثلًا. وهذا مدلول عليه في قوله تعالى {وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ} [الأعراف 58] (نَكِدًا هو العُسر الممتنع عن إعطاء الخير).

فكما أن الناس أغضبوا الله عليهم، جعل الله لهم في معيشتهم ما يُغضبهم ويغمُّهم، جزاءً من جنس العمل، والتقي هو الذي يتألم لرؤية مثل تلك الظواهر لأنها تُذكره أن الله ليس براضٍ على القوم. والنتيجة هي أن القوم يسعون في إيجاد علاج لما يُفسد ثمراتهم، بحسب تقدمهم في الدنيا واجتهادهم، وقد يُعالجونه ولكن بجهد ومصاريف كثيرة، ولو أنهم بذلوا جهدهم وأموالهم في إرضاء الله

لعالجوا هذه المُشكلة أيضًا، فالجُهد لا بد منه ولكن يبقى اختيار المسار: طاعة الله أم مُعالجة الابتلاءات. وعلى هذا النحو يكون في شتى المجالات، مثل المياة والصناعة ودرجات حرارة الجو والخ.

ومثالٌ آخر للظواهر الغريبة (خاصة في الدول الغربية) هو جموع الحيتان التي تخرج من البحر إلى الشاطئ فتموت. ومع أن تلك الظاهرة دُرست ووجد لها أسباب علمية، ما بين مُناخية –تغير درجات الحرارة مثلًا– وما بين صناعية –مثل الموجات الصوتية المستعملة في السُفُن–، إلا أنه لم يُنظر إلى الأسباب المعنوية، أن معاصي بني ءادم سبب في ذلك. وإجابةً على المجادلين عن أن معاصي الإنسان ليس لها دور في هذه الظاهرة فلنضرب مثلًا، إن الجندي في الجيش قد يريد أن يفعل أمرًا ولكن قائده يمنعه، فيلتزم الجندي بأمر قائده ولا يفعل ما كان يريد فعله، وإن لم يمنعه قائده من ذلك لفعل الجندي ما أراد فعله.

ولله المثل الأعلى، فإن مخلوقات الله تشعر بمعاصي ابن آدم، فمع المعاصي إذا تعرضوا إلى سببٍ من تلك الأسباب العلمية (تغير المناخ أو الموجات الصوتية من السُفُن) التي تجعلهم يرتبكون، تظهر تلك الظاهرة بنزوحهم من الماء إلى البر فيموتون. ويا له من أمرٍ عجيب شاذ أن تخرج الحيتان من الماء! ولكن، إذا وُجد سبب من الأسباب العلمية لنزوحها من الماء ولكن كان الناس يتقون الله، فإن الله يأمرهم ويمنعهم من النزوح من الماء، فتلتزم الحيتان بأمر الله ولا تخرج، وهذا هو الفارق بين وقوع تلك الظاهرة من عدمها مع وجود أسباب حدوثها، هو مسألة وجود تقوى الله بين الناس أم لا.

والدليل على هذا الكلام موجود بين طيات سطور الواقعة الواعظة التي يرويه لنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، قائلًا "بَيْنَا رَجُلٌ بِفَلاةٍ مِنَ الأَرْضِ فَسَمِعَ صَوْتًا فِي سَحَابَةٍ: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلانٍ، فَتَنَحَّى ذَلِكَ السَّحَابُ فَأَفْرَغَ مَاءَهُ فِي حَرَّةٍ، فَإِذَا شَرْجَةٌ مِنْ تِلْكَ الشِّرَاجِ قَدْ اسْتَوْعَبَتْ ذَلِكَ الْمَاءَ كُلَّهُ، فَتَتَبَّعَ الْمَاءَ فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ فِي حَدِيقَتِهِ يُحَوِّلُ الْمَاءَ بِمِسْحَاتِهِ، فَقَالَ لَهُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ مَا اسْمُكَ؟ قَالَ فُلانٌ –لِلاسْمِ الَّذِي سَمِعَ فِي السَّحَابَةِ–، فَقَالَ لَهُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ لِمَ تَسْأَلُنِي عَنْ اسْمِي؟ فَقَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ صَوْتًا فِي السَّحَابِ الَّذِي هَذَا مَاؤُهُ يَقُولُ: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلانٍ –لاسْمِكَ–، فَمَا تَصْنَعُ فِيهَا؟ قَالَ: أَمَّا إِذْ قُلْتَ هَذَا فَإِنِّي أَنْظُرُ إِلَى مَا يَخْرُجُ مِنْهَا فَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثِه، وَآكُلُ أَنَا وَعِيَالِي ثُلُثًا، وَأَرُدُّ فِيهَا ثُلُثَهُ"[1] (بِفَلاةٍ هي الأرض الواسعة أو الصحراء؛ حَرَّةٍ هي أَرض مُلَبَّسَة حِجَارَة سُودًا؛ شَرْجَةٌ هي مسيل الماء؛ بِمِسْحَاتِهِ هي المجرفة). ففي الحديث دلالة أن الله يأمر مخلوقاته تسخيرًا للتقيّ، وبالمنطق كما أن الله يأمر مخلوقاته بالخير للصالحين فإنه ينهاهم عن الشرود للصالحين.

---

[1] صحيح مسلم 5299.

ومما يشير إلى أن الحيوانات تتأثر بمعاصي ابن آدم هو ما جاء في جزء من حديثٍ ذكرناه قريبًا "وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إلا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنْ السَّمَاءِ، وَلَوْلا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا"[1]، فالحديث يدل على أن المطر يُخَفَّض بسبب ذنوب الإنسان، وهذا يؤثر على الحيوانات. وقد روي أن سيدنا أبو هريرة (رضي الله عنه) سمع رجلًا يقول: إنَّ الظالمَ لا يضُرُّ إلا نفسَه، فالتفت إليه أبو هريرةَ وقال: بلى والله، حتى إن الحَبَارى لتموت في وكرها هزالًا بظُلم الظالم[2] (الحبارى هو طائر طويل العنق؛ هزالًا هو تدهور تدريجي بأن تنحُف وتضعف حتى تموت).

وقال مجاهد: إن البهائم تلعن عصاة بني آدم إذا اشتدت السنة، وأُمسك المطر، وتقول: هذا بشؤم معصية ابن آدم. وقال عكرمة: دواب الأرض وهوامها، حتى الخنافس والعقارب يقولون: مُنعنا القطر بذنوب بني آدم[3]. فلا نتعجب، في مجتمعٍ يكثر فيه الخبث، عندما نرى أن الكلاب الضالة تتهجم على الناس أكثر، أو أنَّ نعيق الغربان زاد، أو انتشار الشذوذ بين القطط، أو عصيان الدواب لراكبها فتُتعبه، فمثل ذلك كله مما يناله ذلك المجتمع. ولعل عاملًا آخر هو أن الحيوانات تتطبع بطباع أفراد المجتمع الفاسد.

ومن تلك التأثيرات غير المباشرة هو ضعف حال الأمة الإسلامية، بالرغم من وجود أفراد فيها يكونون قمةً في التُّقى والصلاح. فبالرغم من أن هؤلاء المُصلحين يؤدون المسؤولية التي عليهم من تكاليف الإسلام بدرجة عالية، فإن كثرة المُفسدين تطغى على سمة المجتمع ويكونون عبئًا عليه، فيجلبون الذُل والضعف على المُصلحين، لأن المسلمين نسيجٌ واحد، وجسدٌ واحد. فمعصية مسلم تؤثر على المجتمع الإسلامي، وإن طفت المعاصي أدت إلى عدم التمكين في الأرض، بل وقد تجلب الأذى المباشر على إخوانه، وإلا لم يكن الرسول (صلى الله عليه وسلم) ليُصاب يوم غزوة أُحد عندما عصاه عامة رماة المسلمين وتركوا مواقعهم. وفيما يختص بحالة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، فإنه لم يعصِ الله قط، فإصاباته وما عاناه في الدنيا ليس تكفيرًا لذنوبه كما هو حالنا، إنما هو ارتقاء لدرجاته في الآخرة.

والدليل على ذلك هو أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان يتألم في مرض موته أكثر من عامة البشر، كما لاحظ سيدنا عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ لَتُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا، قَالَ (صلى الله عليه وسلم) "أَجَلْ، إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلانِ مِنْكُمْ"[4] (يُوعَكُ أي يتألم من الحُمَّى وغيرها). ولاحظ سيدنا أبو سعيد الخدري (رضي الله عنه) ذلك أيضًا فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا

---

[1] سنن ابن ماجه 4009.

[2] تفسير ابن كثير 578/4.

[3] الجواب الكافي لابن القيم 58.

[4] صحيح البخاري 5216.

أَشَدَّهَا عَلَيْكَ! قَالَ (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّا كَذَلِكَ، يُضَعَّفُ لَنَا الْبَلاءُ وَيُضَعَّفُ لَنَا الأَجْرُ"[1] (إِنَّا كَذَلِكَ أي هذا هو حال الرُسُل والأنبياء).

وظاهرة أخرى خطيرة هي انحرافات في سلوك كثير من علماء الدين، فقد ترى أن كثيرًا منهم أصابهم اليأس أو الخوف فيتركون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر -الذي يضبط أخلاق المجتمع إلى حدٍ كبير-، وكثرة ظهور علماء السلطة الذين يتملقون لمن معه السلطة، فيلوون الفتاوى والتفاسير حتى تواكب رغبة السلطان. ويُحزن المرء أيضًا عندما يرى من الفقيه أو الإمام أو الفرد الملتزم، الذين هم رموز تطبيق الإسلام، سلوكيات غريبة كان يُتوقع منهم أنهم ينأون ويتنزهون عن فعل مثل تلك الأمور، أفعال تحط من مكانتهم عند الناس وتُدني من توقيرهم عند غير الملتزمين، فيُحبط ما بقي من عزيمة غير الملتزمين في الالتزام، أو ربما يضعف إيمان الناس لما يرونه منهم. فمثلًا قد تجد العالم الذي يتودد لفاسقٍ، أو الشيخ الذي يعتاد التدخين أو يجلس في المقاهي، أو إمام المسجد الذي يُعامل الناس بفظاظة وغلظة، أو الرجل الذي يعتاد المساجد قد يسيل لسانه باللعن والسباب القبيح عند الغضب، فيا للحسرة.

ومن الظواهر البارزة نتيجة كثرة معاصي أفراد المجتمع هي سيادة المُفسدين والفسقة، أي ترؤسهم المناصب المهمة أو الاهتمام بهم في الإعلام. فتراهم في المجتمع يُعلنون آراءهم المنحرفة، ويقترحون أمورًا سفيهة، ويتربّحون شخصيًّا من مناصبهم العامة (أي يُقدمون منافعهم على حساب مصالح الرعيَّة)، ويأخذون قرارات تؤدي إلى تفشي الرذيلة واتِّساع البغضاء داخل المجتمع، مما يؤدي إلى انقسامات، يقودون المجتمع إلى الهلاك عامةً. هؤلاء فيهم الذين يستبيحون المُحرمات، والداعون إلى نبذ الدين بدعوى أنه يعيق تقدم المجتمع، أو تقييد الدين في إطار أماكن مثل المساجد وأوقات مُحددة مثل رمضان، دون تمكينه من جوانب حياة وتصرفات الفرد.

ويظهر مثل هؤلاء على الساحة حتى تجرأ أحدهم في وسائل الإعلام وطلب أن يُمنع المسلمين من صلاة الفجر في المساجد، لما يرى أن ذلك سيجلب الأمن للمجتمع، لأن في وجهة نظره أن ذلك الميعاد يجتمع فيه من يتمنى أن الناس تُحكِّم الشريعة الإسلامية في جميع جوانب حياتهم، فيخشى أن يتوحَّدوا! فظهرت مثل تلك الآفات في المجتمع التي لا يسع للمؤمن إلا أن يتعجب منها ويتساءل: كيف بلغ مثل هذا الرجل تلك المرحلة من الضلال، وكيف سُمح له أن يُعرض رأيه علنًا على المجتمع، وكيف لم يُعاقب على مقالته؟!

وفيهم من رموز الطرف والغناء والممثلون الذين روَّجوا للشهوات، وجعلوا والعُري مألوفًا، والتجرد من الدين والقيم والمبادي منهجًا. فعندما يسمح لهم المناخ -بكثرة معاصي أفراد المجتمع-،

---

[1] سنن ابن ماجه 4014.

يُعلنون بما يُسِرّونه ومما تشتهيه شريحة من أفراد المجتمع، مثل الرغبة في إباحة العلاقات الجنسية خارج الزواج. وبهذا يجترئون فيعتدون على حدود الأمة الإسلامية، متمثلًا في أنهم يتجاهلون أحكام الله، ويقدحون حياء المجتمع، ويكسرون حواجز العادات والقيم الصالحة، ويجُرُّون مبادئ وأخلاق المجتمع إلى المستنقع.

والمصيبة الكبرى فوق ذلك كله أنك تجد أناسًا يلتفون حول دعواهم، فتكون لهم عزة مع أنهم أراذل المجتمع، ويكون لهم التمكين واليد العليا في المجتمع، فما يُقررونه يسير على الأفراد جبرًا. ومقابل ذلك يكون نصيب العلماء الذين يقولون كلمة الحق هو التهميش، أو الإخفاء، أو التجاهل، أو حتى الاضطهاد، بينما هم شرف المجتمع وسبيل عِزّته. وكل هذا جلبه المجتمع على نفسه بسبب كثرة إقباله على الفواحش اختيارًا، وتقييد الناهين عن المنكر عن النهي، فحينئذ يُفرض عليهم رؤية الفواحش جبرًا عليهم ولا يستطيعون ردعه. يُضاف إلى هذا أمرٌ خطير من جهة أخرى، وهو أن تلك من أواخر الإنذارات من الله على أنه إذا استمر المجتمع على ذلك الحال، فإنه يوشك أن يتبع هذا عقابٌ مُهلكٌ من الله.

ظهور فتن كقطع الليل المظلم

لا شك أن كثرة معصية الله تجلب العقاب من الله، منها تفشي الأمراض وذلةٌ أمام الأمم الأخرى ورفع البركة والأمان وغير ذلك، ولكن كل تلك من البلاءات التي فقط تُصَعِّب على المرء حياته. أما على الصعيد الآخر، فهناك عقاب من الله يكون في هيئة فتن للمرء عن دينه، مثل انتشار إراقة دماء المسلمين بينهم. وفتن مثل تلك قد تفضي بالمرء إلى أن يخلد في النار، كما جاء في قول الله تعالى {وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا} [النساء 93]. فهناك فتنٌ قد تقلب المؤمن كافرًا، نعوذ بالله أن نكون ضحية لإحداها، ولا أستطيع أن أقول نسأل الله ألا نُدركها لأنها قد بدأت بالفعل، ولكن نسأله العون والعفو والعافية والسلامة منها، والثبوت على كلمة الحق، والتمييز بين الحق والباطل مع القوة على التمسك بالحق.

فقد قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) "بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنْ الدُّنْيَا"[1]. وفي الحديث دلالة أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) يحثنا على المبادرة بالعمل الصالح كي لا تظهر تلك الفتن، وأنها إن ظهرت فالأعمال الصالحة تُساعد المرء على الوقاية من الوقوع فيها. ومعنى هذا أيضًا أن معصية الله تجلب تلك الفتن، وذاك ما يحدث عندما يتخلى عامة الناس عن شريعة الله فيَعُمّ الفساد، فتظهر تلك الفتن. وكثير من الناس لا يعرفون الصواب من الخطأ، مما يزيد الوضع سوءًا، فترى أناسًا

[1] صحيح مسلم 169.

يُؤيدون القاتل ظانين أنه مُصلحٌ والعياذ بالله، فسبحان الله على تحقيق كلامه بطرق لم نتخيلها، وبالله الاستعانة في تلك الطامات.

ومن بين تلك الفتن التي قد تفتن المرء عن الإسلام، أُشدد ثانيةً على فتنة استباحة دماء الناس عامة والمسلمين خاصة، لأنه ليس هناك ما هو أقبح وأفدح من ذلك بين الناس وبعضهم، ولما نراه من انتشاره بفظاظة في بعض الدول الإسلامية بالرغم من داهيتها، ويا للحسرة. وهذا كله يُضاف إلى توعَّد الله لمرتكبيه بالعذاب الشديد واللعن والخلود في النار، كما هو مذكور في آية سورة النساء. ولكن بالرغم من ذلك كله، يستخف أناس بوعيد الله في ذلك، وبما يتسببه سفك الدماء من فساد في الأرض فيُقبلون على قتل المسلمين. أو بطريقة أخرى، ينظرون إلى إخوانهم يُقَتّلون في دول مجاورة ويتجاهلونهم. بل وفيهم من يشمت في المسلمين الذين يُقتلون، وهذا كله نتيجة ابتعادنا عن التفقه في ديننا، وعن التمسك به وتفعيله.

وهذا مما حذَّر الرسول (صلى الله عليه وسلم) من وقوعه إذا تأخرنا في عملنا، فقد حدد بعضًا من الفتن رأينا أغلبها، إن لم يكن جميعها، بسبب تقصيرنا مع الله. فقد جاء عنه (صلى الله عليه وسلم) "بادِرُوا بِالأعمالِ خِصالًا سِتًّا: إِمْرَةَ السُّفهاءِ، وكَثْرَةَ الشُّرَطِ، وقَطِيعَةَ الرَّحِمِ، وبَيْعَ الحُكْمِ، واستخفافًا بِالدَّمِ، ونَشْوًا يَتَّخِذُونَ القرآنَ مَزَامِيرَ، يُقَدِّمُونَ الرجلَ ليس بأفقهِهِمْ ولاَ أعْلَمِهِمْ، ما يُقَدِّمُونَهُ إلا لِيُغَنِّيَهُمْ"[1]. إِمْرَةَ السُّفهاءِ أي تولي مسؤولية مصالح القوم من هو ناقص العقل، فلا يُحسن الإمارة، أو تولي المُتَّبِع لهواه شؤون القوم؛ وكَثْرَةَ الشُّرَطِ أي كثرة رجال الأمن والمُراقبين، ليُعينوا السلطان على فرض ظُلمه؛ وبَيْعَ الحُكْمِ أي أخذ القاضي للرشوة من أجل إصدار حُكمٍ مُحدد أو لتمرير قانونٍ ما؛ واستخفافًا بِالدَّمِ أي قتل الناس على أمور يسيرة، وقيل عدم الاقتصاص من القاتل، وهما عادة مرتبطان إذ يؤدي أحدهما إلى الآخر؛ يُقَدِّمُونَ الرجلَ أي للإمامة في الصلاة فقط لأنه يتغنى بالقرآن، مع أن الأولى بالإمامة أقرأهم (أي أكثرهم حفظًا للقرآن بأحكام تلاوته) وليس من صوته أجمل.

وفيما يختص بموضوع إمارة السفهاء تحديدًا، قد بيَّن لنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) عنهم أكثر في دعائه لكعب بن عُجرة (رضي الله عنه) "أَعَاذَكَ اللَّهُ مِنْ إِمَارَةِ السُّفَهَاءِ". فقَالَ كعب: وَمَا إِمَارَةُ السُّفَهَاءِ؟ قَالَ "أُمَرَاءُ يَكُونُونَ بَعْدِي لَا يَقْتَدُونَ بِهَدْيِي وَلَا يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِي، فَمَنْ صَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ فَأُولَئِكَ لَيْسُوا مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُمْ وَلَا يَرِدُوا عَلَيَّ حَوْضِي، وَمَنْ لَمْ يُصَدِّقْهُمْ بِكَذِبِهِمْ وَلَمْ يُعِنْهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ فَأُولَئِكَ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ وَسَيَرِدُوا عَلَيَّ حَوْضِي. يَا كَعْبُ بْنَ عُجْرَةَ: الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ، وَالصَّلَاةُ قُرْبَانٌ (أَوْ قَالَ بُرْهَانٌ). يَا كَعْبُ بْنَ عُجْرَةَ، إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ لَحْمٌ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ، النَّارُ أَوْلَى بِهِ. يَا كَعْبُ بْنَ عُجْرَةَ، النَّاسُ غَادِيَانِ، فَمُبْتَاعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا وَبَائِعٌ نَفْسَهُ

[1] السلسلة الصحيحة للألباني 979.

فَمُوبِقُهَا"[1] (يَرِدُوا أي يمروا؛ جُنَّةٌ أي حاجز يمنع المرء من المعاصي؛ سُحْتٍ أي حرامٌ كسبه فيُذهب البركة؛ غَادِيَانِ هو الخروج أول النهار، والمعنى هو السعي؛ فَمُبْتَاعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا وَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُوبِقُهَا أي منهم بائعها لله فينجو، ومنهم بائعها للشيطان وللهوى فيُهلكها). فما أكثر الأمراء الآن الذين يظلمون رعيَّتهم بالقتل، ويُغرِّرون فئة لقتل فئة.

إن حرمة الدماء قد ذكره الله في كتابه الكريم، وقد استفاض الرسول (صلى الله عليه وسلم) في الأحاديث التي تُبين مدى مصيبة استباحة دم المسلم، فمنها "كُلُّ ذَنْبٍ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَهُ إلا الرَّجُلُ يَقْتُلُ الْمُؤْمِنَ مُتَعَمِّدًا، أَوْ الرَّجُلُ يَمُوتُ كَافِرًا"[2]. وقال "لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ"[3]، مما يعني أن حرمة دم المسلم أعظم من حرمة بيت الله الحرام! وأكد (صلى الله عليه وسلم) ذلك عندما كان يَطُوف بالكعبة ويقول "مَا أَطْيَبَكِ وَأَطْيَبَ رِيحَكِ، مَا أَعْظَمَكِ وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَحُرْمَةُ الْمُؤْمِنِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ حُرْمَةً مِنْكِ، مَالِهِ وَدَمِهِ وَأَنْ نَظُنَّ بِهِ إلا خَيْرًا"[4]. فمن يتفادى قتل مسلمٍ، خصوصًا مع حدوث الفتن وعدم وضوح الحق، هو من يكون أقرب للنجاة كما نبأنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) "وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدْ اقْتَرَبَ، أَفْلَحَ مَنْ كَفَّ يَدَهُ"[5] (أي عن قتل الناس ظُلمًا).

قتل النفس بغير حق جاء ذكره كذنب من سبع ذنوب مُهلكة، لما يسبب من ضياع وهلاك المُرتكب، وإفسادٍ في الأرض، وهذا التشديد في التحريم يدل على مدى سوئه عند الله ودرجة داهية تأثيره على العبد. قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ"، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ؟ قَالَ "الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ"[6] (الْمُوبِقَاتِ أي المُهلكات، وهي من كبائر الذنوب، ولكن ليست الكبائر محصورة فيها، إذ إن عقوق الوالدين مثلًا من الكبائر أيضًا ولم يتم ذكره في هذا الحديث؛ وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ أي التهرب من مواجهة العدو في الحرب؛ وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ أي اتهام النساء العفيفات بالزنا، البعيدات عن دواعي الفاحشة مثل المتزوجة، الغافلات عن الزنا وما يُفترى عليهن). فينبغي للمسلم، الذي يحرص على نجاته، أن يتجنب الوقوع في أحد هذه السبع الذنوب بأي ثمن.

ثم إن هناك واقعة واعظة تبين مدى عِظَم جُرم قتل من يقول ’لا إله إلا الله‘ عند الله. يروي لنا سيدنا عمران بن حصين: شَهِدْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ بَعَثَ جَيْشًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ

[1] مسند أحمد 13919.

[2] سنن النسائي 3919.

[3] سنن الترمذي 1315.

[4] سنن ابن ماجه 3922.

[5] سنن أبي داود 3708.

[6] صحيح البخاري 2560.

إِلَى الْمُشْرِكِينَ، فَلَمَّا لَقُوهُمْ قَاتَلُوهُمْ قِتَالًا شَدِيدًا فَمَنَحُوهُمْ أَكْتَافَهُمْ [أي بدأوا بالفرار]، فَحَمَلَ رَجُلٌ مِنْ لُحْمَتِي [أي صفّي] عَلَى رَجُلٍ مِنْ الْمُشْرِكِينَ بِالرُّمْحِ، فَلَمَّا غَشِيَهُ قَالَ [رجل ممن كان في صفوف المشركين] 'أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، إِنِّي مُسْلِمٌ'، فَطَعَنَهُ فَقَتَلَهُ. فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلَكْتُ! قَالَ "وَمَا الَّذِي صَنَعْتَ؟" مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ، فَأَخْبَرَهُ بِالَّذِي صَنَعَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "فَهَلَّا شَقَقْتَ عَنْ بَطْنِهِ فَعَلِمْتَ مَا فِي قَلْبِهِ؟"، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ شَقَقْتُ بَطْنَهُ لَكُنْتُ أَعْلَمُ مَا فِي قَلْبِهِ؛ قَالَ "فَلَا أَنْتَ قَبِلْتَ مَا تَكَلَّمَ بِهِ وَلَا أَنْتَ تَعْلَمُ مَا فِي قَلْبِهِ"، فَسَكَتَ عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَلَمْ يَلْبَثْ إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى مَاتَ فَدَفَنَّاهُ، فَأَصْبَحَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ [أي وجدوه على سطح الأرض كأنه لم يُدفن] فَقَالُوا: لَعَلَّ عَدُوًّا نَبَشَهُ. فَدَفَنَّاهُ ثُمَّ أَمَرْنَا غِلْمَانَنَا يَحْرُسُونَهُ، فَأَصْبَحَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ فَقُلْنَا: لَعَلَّ الْغِلْمَانَ نَعَسُوا. فَدَفَنَّاهُ ثُمَّ حَرَسْنَاهُ بِأَنْفُسِنَا، فَأَصْبَحَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ، فَأَلْقَيْنَاهُ فِي بَعْضِ تِلْكَ الشِّعَابِ. فَأُخْبِرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ "إِنَّ الْأَرْضَ لَتَقْبَلُ مَنْ هُوَ شَرٌّ مِنْهُ، وَلَكِنَّ اللَّهَ أَحَبَّ أَنْ يُرِيَكُمْ تَعْظِيمَ حُرْمَةِ 'لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ'"[1].

وقتل النفس بغير حق بلغ من القبح والظلم عند الله إلى حد أنه جعله أول ما يُقضى ويُقتص فيه بين العباد، وذلك كما نبأنا (صلى الله عليه وسلم) قائلًا "أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الدِّمَاءِ"[2]. هذا يبين مدى عظم ذلك الحق عند الله، إذ جعله أول حق للعبد على العباد يُقضى فيه، فتم إقرانه –من جهة الفئة– بأول حق لله على العباد يُقضى فيه: الصلاة، كما تم توضيحه في رواية أخرى عنه (صلى الله عليه وسلم) "أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ الصَّلَاةُ، وَأَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ فِي الدِّمَاءِ"[3]. فإلى ذلك الحد تم التشديد على داهيته.

وفي حديثٍ مؤثر يتبين لنا منه مدى تشديده (صلى الله عليه وسلم) على حرمة دماء المسلم، ومصيبة قتل الرجل لأخيه المسلم. جاء عن نفيع ابن الحارث (وكنيته أبو بكرة، رضي الله عنه): خَطَبَنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ النَّحْرِ، قَالَ "أَتَدْرُونَ أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟"، قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، قَالَ "أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ؟"، قُلْنَا: بَلَى، قَالَ "أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟"، قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، فَقَالَ "أَلَيْسَ ذُو الْحَجَّةِ؟"، قُلْنَا: بَلَى، قَالَ "أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟"، قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، قَالَ "أَلَيْسَتْ بِالْبَلْدَةِ الْحَرَامِ؟"، قُلْنَا: بَلَى، قَالَ "فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا إِلَى يَوْمِ تَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟"، قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ "اللَّهُمَّ اشْهَدْ، فَلْيُبَلِّغْ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ، فَلَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ"[4]. ومن

---

[1] سنن ابن ماجه 3920.

[2] صحيح مسلم 3178.

[3] سنن النسائي 3926.

[4] صحيح البخاري 1625.

الحديث أيضًا يتضح لنا مدى حُرقة الرسول (صلى الله عليه وسلم) من وقوع ذلك، ومدى تَبَرُّئِهِ منه عندما يقع إذ يقول "اللَّهُمَّ اشْهَدْ".

وقال أيضًا (صلى الله عليه وسلم) "لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا"[1]. ومعنى "فُسْحَةٍ" أي سعة في أن تُقبل توبته بعد خطئه، إلا أن يصيب دمًا حرامًا فيضيق عليه باب المغفرة، إذ إنه لا يمكن أن يستكمل شروط التوبة برد الروح في جسد المقتول. فقد أورط القاتل نفسه وقلَّص على نفسه السعة التي منحها الله للمرء. فليس هناك ذنبٌ أغلظ من قتل رجل مؤمن إلا الشرك بالله، ومع هذا يقع فيه كثير من المسلمين مع ظهور الفتن، حتى بإعانة القاتل على التمكين في الأرض ونُصرته، أو حتى إعانته على القتل ولو بجزء كلمة، فإن المُعين على القتل يبوء بذنب القاتل أيضًا كما قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) "مَنْ أَعَانَ عَلَى قَتْلِ مُؤْمِنٍ بِشَطْرِ كَلِمَةٍ لَقِيَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ: آيِسٌ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ"[2]. والمخزي أن لم يقف كثيرٌ من الناس عند عون القاتل فحسب، بل يُمجدّونه حتى يصبح رمزا يُوَقَّر ويتقلَّد المناصب، فسبحان الله.

وهناك حديث يبين، بكلمات وجيزة، مدى عظمة جُرم قتل المؤمن عند الله. هذا عندما قال (صلى الله عليه وسلم) "لَوْ أَنَّ أَهْلَ السَّمَاءِ وَأَهْلَ الْأَرْضِ اشْتَرَكُوا فِي دَمِ مُؤْمِنٍ، لَأَكَبَّهُمْ اللَّهُ فِي النَّارِ"[3]. فهذا يدل على مدى هوان جميع مخلوقاته عند الله إذا قتلوا مؤمنًا واحدًا، أنه ليس بعزيز على الله أن يُدخلهم جميعًا النار!

وأريد التنبيه على أن عامة المسلمين لا يزالون يبتعدون عن الله حتى يتفشى ويتوحش القتل أكثر مما نحن فيه الآن، بين من ينتسبون للإسلام (ما بين مسلم حقيقة، ومنافق، ومبتدع مفارق للجماعة، ومسلمٍ أصبح كافرًا). فانتبهوا ولنتثبت بديننا أكثر إذ إن الأمر يتفلت، لعلنا نُعادل كثرة من يتراخون عن دينهم فنؤخر مجيء ذلك اليوم، وإن جاء نكون قد برَّأنا أنفسنا أمام الله ممن أوصلوا الأمة الإسلامية إلى ذلك الحال.

فالله المستعان إذ نسير تدريجيًا نحو يومٍ ينحدر فيه الوضع إلى ما نبأنا به الرسول (صلى الله عليه وسلم) "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا تَذْهَبُ الدُّنْيَا حَتَّى يَأْتِيَ عَلَى النَّاسِ يَوْمٌ لَا يَدْرِي الْقَاتِلُ فِيمَ قَتَلَ وَلَا الْمَقْتُولُ فِيمَ قُتِلَ"، فَقِيلَ: كَيْفَ يَكُونُ ذَلِكَ؟ قَالَ "الْهَرْجُ، الْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ"[4]. الْهَرْجُ أي القتل، ويشير اللفظ إلى أنه يكون بإفراط. والظاهر من جملة "الْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ" هو القاتل الظالم والمقتول الذي أقبل وكان حريصًا على قتل أخيه المُسلم بغير حق أيضًا ولكنه فشل، كما بيَّن

---

[1] صحيح البخاري 6355.

[2] سنن ابن ماجه 2610.

[3] سنن الترمذي 1318.

[4] صحيح مسلم 5178.

حديث آخر "إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ"، فسُئل: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا الْقَاتِلُ فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ؟ قَالَ "إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ"[1]. والنيّة في هذا الوضع تختلف عن من جائه معتدٍ فأراد أن يُدافع عن نفسه بالسلاح، والله أعلم.

وختامًا لقضية قتل المسلم، أنقل كلمة عظة لكل قارئ حتى يحترس ويُراجع نفسه آلاف المرات قبل أن يقتل نفسًا بظلمٍ. هذه الكلمة قد قالها الرسول (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ الْمَقْتُولَ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُتَعَلِّقًا رَأْسَهُ بِيَمِينِهِ (أَوْ قَالَ بِشِمَالِهِ، شك الراوي)، آخِذًا صَاحِبَهُ بِيَدِهِ الْأُخْرَى، تَشْخَبُ أَوْدَاجُهُ دَمًا فِي قُبُلِ عَرْشِ الرَّحْمَنِ فَيَقُولُ: رَبِّ سَلْ هَذَا فِيمَ قَتَلَنِي"[2] (تَشْخَبُ أَوْدَاجُهُ أي يسيل الدم من العروق التي في رقبته؛ فِي قُبُلِ أي في وجه أو أمام). والمعنى هو أن المقتول يحمل رأسه التي قُطعت في يده، وبيده الأخرى مُتشبّث بقاتله، فيُصدِّر القاتل للقصاص أمام الله مباشرةً.

وفي حديث آخر جاء "يَجِيءُ الرَّجُلُ آخِذًا بِيَدِ الرَّجُلِ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ هَذَا قَتَلَنِي؛ فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: لِمَ قَتَلْتَهُ؟ فَيَقُولُ: قَتَلْتُهُ لِتَكُونَ الْعِزَّةُ لَكَ؛ فَيَقُولُ: فَإِنَّهَا لِي. وَيَجِيءُ الرَّجُلُ آخِذًا بِيَدِ الرَّجُلِ فَيَقُولُ: إِنَّ هَذَا قَتَلَنِي؛ فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: لِمَ قَتَلْتَهُ؟ فَيَقُولُ: لِتَكُونَ الْعِزَّةُ لِفُلَانٍ؛ فَيَقُولُ: إِنَّهَا لَيْسَتْ لِفُلَانٍ؛ فَيَبُوءُ بِإِثْمِهِ"[3] (الظاهر أن القاتل الأول كان يُجاهد في سبيل الله وقتل كافرًا مثلًا فلا يُعاقَب، والله أعلم، ولكن لننتبه أنه ما زال يُسأل لماذا قَتَل، وأما الثاني فإنه قَتَل لأنه يريد العزة لمخلوقٍ آخر وليس لله، فهذا يُعاقَب). فكفى بكلمته (صلى الله عليه سلم) هذه فزعًا وزجرًا لقلب المسلم السليم عن الإقدام على قتل أي نفسٍ بظلم. فحتى قتل مخلوقٍ صغيرٍ بظلم يكون بالحِمل الثقيل يوم القيامة، كما جاء عنه (صلى الله عليه وسلم) "مَنْ قَتَلَ عُصْفُورًا عَبَثًا، عَجَّ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُولُ: يَا رَبِّ إِنَّ فُلَانًا قَتَلَنِي عَبَثًا وَلَمْ يَقْتُلْنِي لِمَنْفَعَةٍ"[4] (عَبَثًا أي لهوًا أو دون حاجة؛ عَجَّ أي رفع صوته).

رجوعًا إلى موضوع الفتن عامةً، فإن تلك الفتن العصيبة المُهلكة تجعل المؤمن يخشى أن يُفتتن بها ويخسر دينه ومن ثمَّ نفسه فيهلك، أو على الأقل تُحتِّم عليه دخول النار قبل الجنة. ومن شدة خشية المؤمن لما يراه من فتن عصيبة متتالية، كما جاء في جزء من الحديث "إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَإِنَّ أُمَّتَكُمْ هَذِهِ جُعِلَ عَافِيَتُهَا فِي أَوَّلِهَا، وَسَيُصِيبُ آخِرَهَا بَلَاءٌ وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا، وَتَجِيءُ فِتْنَةٌ فَيُرَقِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ مُهْلِكَتِي، ثُمَّ تَنْكَشِفُ وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ هَذِهِ! فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنْ النَّارِ وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلْيَأْتِ

---

[1] صحيح البخاري 30.

[2] مسند أحمد 2551.

[3] سنن النسائي 3932.

[4] سنن النسائي 4370.

إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ"[1] (وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ أي ألا يفعل المرء مع الناس إلا ما يُحب أن يفعلوه معه). وانظر أخي، أن الفتنة السبَّاقة تكون شديدة لدرجة أن المؤمن يخشى أن تُغريه فيهلك، ولكن تأتي التي بعدها فتجعل السابقة تبدو هيّنة وسهلة النجاة منها بالمُقارنة!

تصل هذه الفتن مرحلة أن المؤمن لا يَعُد يتحمل الضغوط والقلق من أن يُفتن، فيتمنى الموت. وذلك كما قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) "لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ بِقَبْرِ الرَّجُلِ فَيَقُولُ: يَا لَيْتَنِي مَكَانَهُ"[2]، وهذا إنما هو إشارة على داهية تلك الفتن.

ومن تلك الفتن ما نراه منتشرًا في زمننا هذا، وهو ظهور الحاكم الظالم في الدول الإسلامية فيتولى شؤون المسلمين. وتزداد الفتنة إذا وصل ذلك الحاكم للحكم بقوة البطش، وتزداد أكثر إذا لم يكن حاكمًا مُتغلِّبًا –وصف المُتغلِّب يتحقق إذا كان منصب الحاكم خاليًا بأن يُتوفَّى أو يستقيل الحاكم الحالي مثلًا، ويتم الاقتتال تنافسًا على الحُكم حتى يَغلِب أحدهم–، بل أزاح الحاكم الحالي المُستَحِق ونصَّب نفسه حاكمًا. وتزداد أكثر وأكثر إن كان يهدم من شعائر الإسلام، ويتحالف مع أعداء المسلمين، فكل حالة من تلك الحالات لها قواعدها في التعامل بحسب الشرع الإسلامي. ولكن يلتبس ذلك على من ليسوا بعلماء، فلا يدري الكثير من المسلمين ما الذي ينبغي لهم فعله، ففرقة في التفريط بأن يظلوا سلبيّين أو يتخبَّطون بأن يفعلوا ما لا يُفيد، وفرقة في الإفراط لا يدرون حدودهم فيقترفون المصائب ظنًّا أنهم يقومون بواجبهم الإسلامي في مدافعة الحاكم الظالم، مثل بقتل من الرعية عشوائيًّا للضغط على الحاكم المُغتصب، فيزيدون من الفتنة.

وهذا يحدث لأن الناس الذين يجهلون الشريعة يستفتون قلوبهم فيُخطئون، أو أنهم يلجأون إلى عالمٍ منافق أو مُتعبِّد جاهل في الرأي، وهذا بدلًا من استشارة واتِّباع العلماء الصادقين. يقول سُفيان الثوري (رحمه الله): تعوَّذوا بالله مِن فتنة العابد الجاهل، وفتنة العالم الفاجر، فإنَّ فتنتهما فتنة كلِّ مفتون[3]. فهذه في حد ذاتِها فتنة، أي العالِم المنافق والمُتعبِّد الجاهل، حيث إن الناس يُخدعون في أنهم أهل للثقة والرأي الصائب، يريدون أن يخرجوا من الفتنة فيستشيرون أولئك المُضلين؛ فتنٌ فوق فتنٍ، وفتنٌ داخل فتنٍ.

وقد طُرحت وتَبَين أن مثل تلك الإشكاليات كانت تحدث قديمًا، مثل في أثناء مجلس لعبد الله بن عمرو بن العاص وهو يروي حديثًا عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، الذي ذكرنا جزءًا منه قريبًا على أن الفتن تُرقق بعضها بعضًا. بقيّة الحديث هي "وَمَنْ بَايَعَ إِمَامًا فَأَعْطَاهُ صَفْقَةَ يَدِهِ وَثَمَرَةَ

---

[1] صحيح مسلم 3431؛ جزء من الحديث.

[2] صحيح البخاري 6582.

[3] شعب الإيمان للبيهقي 308/2.

قَلْبِهِ فَلْيُطِعْهُ إِنْ اسْتَطَاعَ، فَإِنْ جَاءَ آخَرُ يُنَازِعُهُ فَاضْرِبُوا عُنُقَ الْآخَرِ"، فقال عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة: فَدَنَوْتُ مِنْهُ فَقُلْتُ لَهُ: أَنْشُدُكَ اللَّهَ، آنْتَ سَمِعْتَ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَأَهْوَى إِلَى أُذُنَيْهِ وَقَلْبِهِ بِيَدَيْهِ وَقَالَ: سَمِعَتْهُ أُذُنَايَ وَوَعَاهُ قَلْبِي؛ فَقُلْتُ لَهُ: هَذَا ابْنُ عَمِّكَ مُعَاوِيَةُ يَأْمُرُنَا أَنْ نَأْكُلَ أَمْوَالَنَا بَيْنَنَا بِالْبَاطِلِ وَنَقْتُلَ أَنْفُسَنَا، وَاللَّهُ يَقُولُ {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا}، قَالَ: فَسَكَتَ سَاعَةً (أي برهة من الوقت، وهذا يدل على أنه أصبح مهموما وأن القضية شائكة مُستعصية) ثُمَّ قَالَ: أَطِعْهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَاعْصِهِ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ[1].

جاء في شرح النووي (رحمه الله): (فَإِنْ جَاءَ آخَر يُنَازِعهُ فَاضْرِبُوا عُنُق الْآخَر) مَعْنَاهُ: اِدْفَعُوا الثَّانِي، فَإِنَّهُ خَارِج عَلَى الْإِمَام، فَإِنْ لَمْ يَنْدَفِع إِلَّا بِحَرْبٍ وَقِتَال فَقَاتِلُوهُ، فَإِنْ دَعَتْ الْمُقَاتَلَة إِلَى قَتْله جَازَ قَتْله وَلَا ضَمَان فِيهِ، لِأَنَّهُ ظَالِم مُتَعَدٍّ فِي قِتَاله. قَوْله: (فَقُلْت لَهُ: هَذَا اِبْن عَمّك مُعَاوِيَة يَأْمُرنَا أَنْ نَأْكُل أَمْوَالنَا بَيْننَا بِالْبَاطِلِ وَنَقْتُل أَنْفُسنَا وَاَللَّه تَعَالَى يَقُول: {وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالكُمْ بَيْنكُمْ بِالْبَاطِلِ...} إِلَى آخِره) الْمَقْصُود بِهَذَا الْكَلَام: أَنَّ هَذَا الْقَائِل لَمَّا سَمِعَ كَلَام عَبْد اللَّه بْن عَمْرو بْن الْعَاص، وَذَكَرَ الْحَدِيث فِي تَحْرِيم مُنَازَعَة الْخَلِيفَة الْأَوَّل، وَأَنَّ الثَّانِي يُقْتَل، فَاعْتَقَدَ هَذَا الْقَائِل هَذَا الْوَصْف فِي مُعَاوِيَة لِمُنَازَعَتِهِ عَلِيًّا -رَضِيَ اللَّه عَنْهُ-، وَكَانَتْ قَدْ سَبَقَتْ بَيْعَة عَلِيّ فَرَأَى هَذَا أَنَّ نَفَقَة مُعَاوِيَة عَلَى أَجْنَاده وَأَتْبَاعه فِي حَرْب عَلِيّ وَمُنَازَعَته وَمُقَاتَلَته إِيَّاهُ، مِنْ أَكْل الْمَال بِالْبَاطِلِ، وَمِنْ قَتْل النَّفْس، لِأَنَّهُ قِتَال بِغَيْرِ حَقّ، فَلَا يَسْتَحِقّ أَحَد مَالًا فِي مُقَاتَلَته. قَوْله: (أَطِعْهُ فِي طَاعَة اللَّه وَاعْصِهِ فِي مَعْصِيَة اللَّه) هَذَا فِيهِ: دَلِيل لِوُجُوبِ طَاعَة الْمُتَوَلِّينَ لِلْإِمَامَةِ بِالْقَهْرِ مِنْ غَيْر إِجْمَاع وَلَا عَهْد [أي إن لم تكن الأمة اتفقت على توليه الحكم أو لم يُعاهدوه على الطاعة]. انتهى.

فوجب طاعة الولي ما دام تم بيعته، فلا يجوز الخروج عليه حتى إن كان ظالمًا في بعض الجوانب، ولكن لا يُطاع في معصية الله، ولا يُعان على ظُلم الناس، وإن تمكن المرء من قول كلمة الحق له فيُبين له ظُلمه فليفعل. أما الذي يُنازع الحاكم المُبايَع من الأمة، فهذا الذي يجب مقاومته ولو بالقتال.

بالنسبة إلى قضية الحاكم المُتغلب، وهو الذي يُقاتل من أجل الوصول إلى الحُكم في أثناء عدم وجود حاكم مُبايَع على الأمة، فينتصر ويصل إلى الحُكم، فهذا وضعه مُختلف. وبالرغم من أن القتال من أجل الحكم هي فتنة كبيرة في هذه الحالة، فإنه لا ينبغي مقاتلته بعد أن يتغلب، درءًا لاستمرار الفتنة وتوسعها بين المسلمين، فتتحول لفتنة أكبر، وهذا عملًا بالقاعدة الفقهية: درء المفسدة مُقدمٌ على جلب المنفعة. وهنا يجب طاعته في مصالح المسلمين، مع أن كثيرًا من المسلمين قد يكونون كارهين ولكن هذا هو حُكم الله (كما بيَّن النوويّ)، وينبغي التحلي بالصبر واليقين أن هذه

[1] صحيح مسلم 3431، جزء من الحديث.

فتنةٌ (وصوله إلى الحُكم بالإكراه) نزلت عقابًا لنا، فإن ذهبنا ندفع عقوبة الله بعصيانه بدلًا من طاعته، يوشك الله أن يُنزل عقابًا أشد في صورة فتنة أكبر ولو بعد تمكُّن الناس من إزالة الحاكم المُتغلب.

ولكن في كل الحالات، إذا كان الحاكم يُحارب دين الله أو يعين أعداء الإسلام على المسلمين، فيجوز الخروج عليه وقتاله، وإن كان حاكمًا مُبايعًا. هذا يتبين فيما يرويه سيدنا عُبادة بن الصامت (رضي الله عنه) في أثناء مُبايعة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، فيها أحكام مهمة، إذ قال: فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا، وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا، وَأَثَرَةً عَلَيْنَا، وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنْ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ[1]. 'وَأَثَرَةً عَلَيْنَا' أي وإن كان الوالي يطلب حقوقه ولا يعطيهم حقوقهم، فليست طاعتهم له مربوطة بأخذ حقوقهم؛ 'وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ' أي لا يُنازع الحاكم على المُلك والإمارة. 'كُفْرًا بَوَاحًا' أي كفرًا ظاهرًا صريحًا مُذاعًا، والبواح هو الإعلان والإفشاء؛ 'عِنْدَكُمْ مِنْ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ' أي نَصّ آية أو خبر صحيح لا يحتمل التأويل.

مثال على الكفر البواح الذي للمسلين من الله فيه برهان هو إذا كان الحاكم تاركًا للصلاة ويثبت عليه هذا، كما دل حديث سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) "سَتَكُونُ أُمَرَاءُ فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ، فَمَنْ عَرَفَ بَرِئَ وَمَنْ أَنْكَرَ سَلِمَ، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ"، قَالُوا: أَفَلَا نُقَاتِلُهُمْ؟ قال "لَا، مَا صَلَّوْا"[2] (فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُون أي من أفعالهم، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ أي رضي بالمُنكر وأطاع الأمراء فيه). ففي حالة أن الحاكم يأمر بالمنكر، فلا طاعة له في ذلك بالرغم من وجوب طاعة الحاكم عامةً، كما دلت رواية ابن حبان الصحيحة "اسمَعْ وأطِعْ في عُسرِكَ ويُسرِكَ ومَكرَهِكَ وأثَرةٍ عليك، وإنْ أكَلوا مالَكَ وضرَبوا ظهرَكَ، إلَّا أنْ تكونَ معصيةً للهِ بوَاحًا"[3]. وقد يتحقق وضع الكُفر البواح في حالة تعمد الحاكم الترويج ونشر عصيان الله، ولكن يفصل في هذا العلماء الصادقين وليس عامة الناس، خاصةً أنه ينبغي ألا يكون هناك مجال للشك أن هذا يُنسَب للحاكم، وأنه لا يوجد عُذر له.

فلا يجوز الخروج على الحاكم ومنازعته على الولاية، لما في هذا من أضرارٍ شديدةٍ، إلا عند الشروط التي يذكرها الشرع. ويجب إدراك أن هناك فرقًا بين منازعة الحاكم في مَنصِبه وبين عدم طاعته في معصية الله، فهناك فرق كبير ومهم، وينبغي مراعاة هذا في أثناء قراءة الأحكام الشرعية في كل وضع.

ومن الفتن التابعة لفتنة الحاكم الذي يوالي أعداء الإسلام هي أن هناك أناس يُفتنون به، يُصدِّقونه ويأمنون له فيقفون في صفِّه ويمتثلون به. وهذا ظاهرٌ بوضوح الآن في حُكّام لدول إسلامية يضعون أيديهم في يد اليهود القتلة لإخواننا في فلسطين، ويؤيدون أن تكون لهم دولة وحق

---

[1] صحيح البخاري 6532.

[2] صحيح مسلم 3445.

[3] صحيح بن حبان 4566.

السكن بينما هو فعليًّا احتلالٌ واغتصابٌ لأراضي المسلمين، مما أدى إلى أن أناسًا ينتسبون للإسلام يلتبس عليهم الحق من الباطل. وينضم إليهم المُنافقون ويمشون جميعًا وراء جموع المستكبرين –الذي منهم الحاكم–، فيؤيدون (بل ومنهم من يدعو الله أن ينصر) اليهود القتلة، بينما ينتقصون وينتقدون المُجاهدين في فلسطين، بل ويكيدون بهم ويشمتون بما يُصيبهم من بلاء ومشقة. هذا في أثناء أنه من الثابت شرعًا، أن من يُعين أو حتى يؤيد غير المسلم على قتل مسلم، مُدركًا فعلته ومُتعمدًا، فقد خرج عن ملة الإسلام وأصبح كافرًا دون خلاف ولا شك، إذ إنه يمحو كلمة الإسلام من على وجه الأرض هكذا، لأن المُسلم هو حجارةٌ من بُنيان الإسلام التطبيقي.

فلماذا إذًا نجلب على أنفسنا فتنًا نحن لسنا بصددها، فإنما هو الجزاء من جنس العمل إذ ترك المسلمون العلم والعمل بالإسلام، فكان حقًّا لله عليهم أن يبتليهم بما يُميز العالم من الجاهل، والصادق من الكاذب، والمؤمن من المنافق. وفيما يتعلق بهذه النقطة، قال الحسن البصري (رحمه الله): اسْتَوَى النَّاسُ في العافية، فإذا نَزَلَ البَلاءُ تَبَايَنُوا (أي اختلفوا وتميَّزوا، أو تتبين حقيقتهم)[1]. وهذه المقولة عن البلاء تنطبق سواء على الفتن في الدين أو على الفتن في الدنيا مثل العُسر في الرزق والصحة، فعندما يكون أخذ الرشوة مألوفًا، بل ومحثوثًا عليه، ويكون ذلك هو العادة في المجتمع حتى إنه لا يُتوارى عنه في أثناء فعله. ويُبرِّر المرتشي أخذها بقوله إنه لا يجد ما يكفيه، أو إن المؤسسة لا تعطيه حقه، فيتبين من كل فرد هل يلجأ إلى الحرام أم لا؟ أفلا نمارس تعاليم ديننا الذي هو نعمة لنا ونُمكِّنه من كل جوانب حياتنا كي نُحافظ عليه ويُحافظ علينا؟

ومن الفتن المهلكة التي تتفشى هي انتشار علماء السلاطين الذين يفتون بما يناسب الحاكم، وذلك كما دل حديث لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ"[2]. هؤلاء يُحرِّفون تفسير الآيات، أو يذكرون آيات في ظاهرها تؤيد زعمهم بينما يُخفون الآيات الأخرى التي تُبطل افتراءهم، أو يذكرون جزءًا من حديث ويتجنبون ذكر بَقيَّته التي تُبطل رأيهم، كي يثبتوا ما تملي عليهم شهواتهم ويُلبُّوا رغبات السلطان.

والعجيب أن منهم من قد يبلغ مرحلة الشرك، إذ يُبيح للحاكم ما حرّمه الله –مثل الربا وقتل النفس التي حرَّم الله–، ويُحرِّم على الناس بعض ما أحلّه الله، بل وربما ما وصَّى به الله مثل الاعتكاف في المساجد أو حتى الصلاة في جماعة. ذلك من شدة حُب ذلك العالم للحاكم (أو من يكون في منصب الحاكم حقيقةً) وسعيه في إرضائه والتقرب إليه، أو خوفًا منه أكثر مما يخاف الله. فأصبح هؤلاء يشبهون الذين قال عنهم الله ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَادا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ

[1] صيد الخاطر لابن الجوزي، فصل صراع اليقين مع أحداث الحياة، ص 269.

[2] سنن الدارمي 2155.

الْعَذَابِ} [البقرة 165]، وهم مثل الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، ولكن الحُكّام هم أحبارهم ورهبانهم.

فأصبح الحاكم يُلَمِّح ما يريد تشريعه إلى العالم المُنافق، والعالم المُنافق بالدور يُحلل للحاكم، بل وربما يبحث ليستدل من القرآن والسُنَّة بعد تحريف المعنى، باطلٌ على باطل وتلطيخٌ على تلطيخ. ولكن لا يدرك كلا الطرفين أنهما جعلا أنفسهما عبدين لإلهٍ أمكر منهما، ألا وهو الشيطان. وذلك ما دلت عليه الآيات {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (40) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ} [سبأ 40-41]، فقد قال المفسرون إن هؤلاء كانوا يُطيعون الشياطين في أن يتجهوا إلى عبادة الملائكة. وهذا -تقديم طاعة الجن على أوامر الله- حقيقةً عبادة للجن.

ويكثر من صنف هؤلاء (العالم المُنافق المُحَلِّل) عبر الزمن حتى يُصبحوا الأغلبية، فتقع المصائب كما أشار الرسول (صلى الله عليه وسلم) "يَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ رِجَالٌ يَخْتِلُونَ الدُّنْيَا بِالدِّينِ، يَلْبَسُونَ لِلنَّاسِ جُلُودَ الضَّأْنِ مِنْ اللِّينِ، أَلْسِنَتُهُمْ أَحلَى مِنْ السُّكَّرِ وَقُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الذِّئَابِ، يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَبِي يَغْتَرُّونَ، أَمْ عَلَيَّ يَجْتَرِئُونَ؟ فَبِي حَلَفْتُ لأَبْعَثَنَّ عَلَى أُولَئِكَ مِنْهُمْ فِتْنَةً تَدَعُ الْحَلِيمَ مِنْهُمْ حَيْرَانًا"[1] (يَخْتِلُونَ أي يطلبون). فمثل هؤلاء فتنة ترعرعوا بسبب فساد عامة الناس، وفوق ذلك فإن هؤلاء يجلبون فتنًا من الله كعقاب مُضاعَّفٍ، فهي فتنٌ تموج في فتنٍ.

وفي حديث يوقظنا من الغفلة، يرويه لنا سيدنا حذيفة بن اليمان (رضي الله عنه) قال: كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ الْخَيْرِ وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنْ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ، فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ "نَعَمْ"، قُلْتُ: وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ "نَعَمْ، وَفِيهِ دَخَنٌ" قُلْتُ: وَمَا دَخَنُهُ؟ قَالَ "قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ"، قُلْتُ: فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ "نَعَمْ، دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا"، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا، قَالَ "هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا"، قُلْتُ: فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ "تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ"، قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلا إِمَامٌ؟ قَالَ "فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ"[2] (دَخَنٌ أي شوائب ونواقص واختلاف؛ تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ أي من أعمالهم ما هو صالح وما هو مُنكَر؛ وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ هي كناية عن تحمل المشقة، وهي مشقة الصبر على هذا الحال -اعتزال الفِرق والتمسك بكتاب الله وسُنَّته صلى الله عليه وسلم- حتى يموت سالمًا).

[1] سنن الترمذي 2328.
[2] صحيح البخاري 6557.

واستفاضةً في معلومات هذا الحديث، استنادًا إلى كتاب فتح الباري بشرح صحيح البخاري، فالمقصد من "وَفِيهِ دَخَنٌ" أن الخير الذي يأتي من بعد الشر لا يكون خالصًا، بل في كدرٌ من الشر في هيئة فسادٍ في قلوب أناس، وَقَالَ أَبُو عُبَيْد: يُفَسِّر الْمُرَاد بِهَذَا الْحَدِيث الْحَدِيث الآخَر "لا تَرْجِع قُلُوب قَوْم عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ"، فَكَأَنَّ الْمَعْنَى أَنَّ قُلُوبهمْ لا يَصْفُو بَعْضهَا لِبَعْضٍ. ومع أن تلك الموجات من الشر والخير قد بدأت فعليًّا بفتنة مقتل سيدنا عثمان وما بعدها، إلا أن المبدأ عام والدوائر تتكرر، وأردت الإشارة إلى أن تلك الفترات من الشر والفتن إنما نجلبها على أنفسنا بابتعادنا عن منهج الله وكثرة معصيته. حتى إن كُشفت الفتنة في النهاية بعد أن تكون قد أخذت مجراها في الناس فهلك فيها من هلك، فلن تعود قلوب الناس كما كانت قبل وقوع الفتنة بسبب آثارها إلا أن يعودوا بحق إلى منهج الله، وذلك جزاء من الله بما أحدثنا.

وانحدار صفاء قلوب عامة الناس سلبية أكبر مما نحسبها، منها أن أناس قد تقسو قلوبهم لأقصى الدرجات، والذي يترتب عليه ما يترتب من إفساد في الأرض. أو أن يكون في القلوب شحناء وحقد بين فئات من المسلمين، أو غير هذا مما قد يظهر واقعيًّا بعد أمدٍ متمثلًا في تجدد الاقتتال بعد أجيال. ومنها أن أناسًا يكون في قلوبهم فسادٌ من جهة تطبيق الإسلام، فيخلطون العمل الصالح بالعمل الفاسد، فلا نملك إلا أن نتقي الله ونصبر وندعو أن نخرج من تلك الفتن سالمين بديننا.

وقوله "قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ" تتضح أكثر برواية أبي الأَسْوَد "يَكُون بَعْدِي أَئِمَّة يَهْتَدُونَ بِهُدَايَ وَلا يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِي". وقوله "تَعْرِف مِنْهُمْ وَتُنْكِر" يعني من أعمالهم، وفي حديث أُمّ سَلَمَة عند مُسلِم "فَمَنْ أَنْكَرَ بَرِئَ وَمَنْ كَرِهَ سَلِمَ". وقوله "هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا" أي من قومنا ومن أهل لساننا ومِلَّتِنَا، وفيه إشارة إلى أنهم من العرب؛ وقال الْقَابِسِيّ: معناه أنهم في الظاهر على مِلَّتِنَا وفي البَاطِن مُخَالِفُونَ؛ ووقع في رواية أبي الأَسْوَد "فِيهِمْ رِجَال قُلُوبهمْ قُلُوب الشَّيَاطِين فِي جُثْمَان إِنْس". وما أكثر مثل هؤلاء قد رأيناهم بيننا، فمنهم من يطالب بفصل الدين عن نظام الدولة، ومنهم من يدعو إلى تنصل المرأة من أحكام الإسلام، ومنهم من يرغب في الباطل بحرية الاختلاط والمعاشرة بين الرجال والنساء، ومنهم من يدعون إلى مقاتلة فئة من المسلمين وموالاة -أو حتى الاستعانة- بغير المسلمين على فئة من المسلمين.

ومنهم أيضًا من يرضخ لغير المسلمين ويستعظمهم نظرًا لأنهم ناجحون في فروع العلوم والصناعات والاقتصاد، فيدور يدعو للامتثال بمنهج الذين قد نبذوا دينهم كي يصلوا إلى دنياهم. والمقصد من "وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ" أي إذا لم يكن في الأرض خَلِيفَة فعليك بالعُزْلَة والصبر على تحمُّل شدة الزمان، وَعَضّ أَصْل الشَّجَرَة كناية عن مُكَابَدَة الْمَشَقَّة كقولهم: فُلان يَعَضّ الْحِجَارَة من شدة الألم، أو المُراد اللزوم كقوله في الحديث الآخر "عَضُّوا

عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ". فلماذا ندعو فتنًا على أنفسنا (بمعاصينا) تحمل بين طيَّاتها بلايا مثل التي ذُكرت في هذا الحديث؟!

ولعل من أكبر تلك الفتن إتلافًا وفاقة على المسلمين هي ظهور البدع، لأنها تُحرِّف مسار من أراد الاعتصام بمنهج هذا الدين، فتأخذه حتى قد تُلقيه خارج الإسلام كُليًّا! ذلك بالإضافة إلى أن البدعة تُكمن في صميمها، كجزءٍ أساسي من تكوينها، هجومًا على هذا الدين بمحاولتها تحريف سُنَّة فيه. ولذلك هي من أخطر الفتن التي تصيب الناس، لأن فتنة الدين أدهى إذ إن الدين هو مصدر العلوم العقائدية والتشريعية لكل الناس، ويُبين لنا الحق من الباطل فنُميّزهما عن بعض، فكيف إذا التبس هو عند المرء فامتزج الباطل بالحق؟!

ووالله، إن الناس لا يزالون يبتعدون عن علوم هذا الدين حتى تكون البدع أحب إليهم من السُنن. وكلامي هذا مستند إلى كلام سيدنا حذيفة بن اليمان (رضي الله عنه)، الذي هو أدرى بالمنافقين في المدينة إذ إن الرسول (صلى الله عليه وسلم) نبّأه بأسمائهم، ومن ثمَّ فإنه عليم بكيفية انحراف الناس عن المسار إذ كان يلاحظ سلوكياتهم. فيُروى عنه (رضي الله عنه) أنه أخذ حجرين فوضع أحدهما على الآخر، ثم قال لأصحابه: هل ترون ما بين هذين الحجرين من النور؟ قالوا: يا أبا عبد الله، ما نرى بينهما من النور إلا قليلًا، قال: والذي نفسي بيده، لتظهرن البدع حتى لا يرى من الحق إلا قدر ما بين هذين الحجرين من النور، والله لتَفشُوَنّ البدع حتى إذا ترك منها شيء قالوا: تُرِكَتِ السُّنَّةُ![1].

فلا حول ولا قوة إلا بالله... وجاء عن عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) أنه قال: كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا لَبِسَتْكُمْ فِتْنَةٌ، يَهْرَمُ فِيهَا الْكَبِيرُ، وَيَرْبُو فِيهَا الصَّغِيرُ، إِذَا تُرِكَ مِنْهَا شَيْءٌ قِيلَ: تُرِكَتْ السُّنَّةُ؟! قَالُوا: وَمَتَى ذَاكَ؟ قَالَ: إِذَا ذَهَبَتْ عُلَمَاؤُكُمْ وَكَثُرَتْ جُهَلاؤُكُمْ، وَكَثُرَتْ قُرَّاؤُكُمْ وَقَلَّتْ فُقَهَاؤُكُمْ، وَكَثُرَتْ أُمَرَاؤُكُمْ وَقَلَّتْ أُمَنَاؤُكُمْ، وَالْتُمِسَتْ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الآخِرَةِ وَتُفُقِّهَ لِغَيْرِ الدِّينِ[2] (وَيَرْبُو أي ينشأ ويكبر؛ وَالْتُمِسَتْ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الآخِرَةِ أي يُسعى إلى أمور الدنيا بأعمال المُفترض أن العبد يعملها ابتغاء أجر الآخرة، وضرب مثلًا بالذي يتفقَّه لغير إقامة الدين، فربما يتفقه الرجل ليُقال عليه فقيه عالم، أو لينال منصبًا بمؤهلاته).

فتلك ظاهرة -إشراب البدعة وجهل السُنَّة- من ظواهر انقلاب موازين الحق والباطل الذي ناقشناه سابقًا، ولعلها أشدهم، وهي نتيجة سوء عمل ابن آدم. ويجب أن نُقدِّر فوائد الصحابة والعلماء علينا، فإنهم يجتهدون في تحصيل العلم كما يجتهد النحل في جمع رحيق الزهور، وكلامهم فيه خلاصة المواعظ كالعسل السائغ، وهو نتاج تحصيل كم كبير من العلم مع صدقٍ النيات ووعيٍ

[1] الاعتصام لأبي إسحاق الشاطبي 106/1.

[2] سنن الدارمي 188.

وبصيرة لحقائق الأمور مع الخبرة من المرور بالشدائد، فيعطونا الخلاصة في هيئة فوائد ومواعظ مُختصرة.

يكون الشيطان ولي من أسرف في المعاصي يوم القيامة

إن من أسرف في المعاصي يكون قد اتبع تسويلات وأوامر الشيطان، وبما أن الجزاء يكون من جنس العمل يوم القيامة، يجعل الله الشيطان ولي ذاك العاصي فيُمثله. ومن منا يريد أن يكون وَجهَتُه الشيطان، يتكلم بالنيابة عنه أمام الله يوم القيامة، فيكون المسؤول عنه وعن نجاته؟! قال تعالى {تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [النحل 63]. هذا فخ ينصبه الشيطان لبني آدم، بأن يَعِده ويُمنيه النعيم في الدنيا والنجاة في الآخرة معًا، وقد وقع فيه كثير منهم وسيقع فيه كثير غيرهم، إلا من عافاه الله من ذلك.

وللأسف، هناك نوع من الناس أخذته العزة والكبر، إضافة إلى مكوثه على ذلك الحال أمدًا من الزمن، إلى أنه يرى المحاسن في قبيح الأعمال، وذلك من إضلال الله له أكثر بعد أن أضل ذاك الشخص نفسه، ويُزين الشيطان المُحرّمات لذلك الشخص أيضًا دون أن يَقِيَه الله شره. فيترتب على هذا، بعد أن لزم عملًا فاسدًا أمدًا من الزمن، أنه يعتاد ويألف ما يفعله حتى تُزين له نفسه أنه صالحٌ، وقد قال تعالى {أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ} [فاطر 8]. ثم يزداد ضلالًا بأن يريد الناس اتباعه ظنًّا منه أنهم لا يرون محاسن تلك المخالفة كما يراها هو، فيتحمس ويبذل في أن يتَّبعه الناس، بل وقد يتعجب إن قاوموه!

ومثل هذا الشخص تكون له معيشة بائسة ضنكًا، كلها همّ وغمّ ومشقة وعناء، وإن كان دخله المادي مرتفعًا جدًّا، فإنه يجد نفسه يصرفه على أشياء غالية ولا يزال غير مُشَبَّعٍ، لأنه لا يرضى بما معه وإن أحاط نفسه بكل زينةٍ من زِيَنِ الدنيا، فإنه بداخله يُعاني نفسيًّا من الاضطرابات والأزمات. هذا بالطبع بالإضافة إلى ما هو مُدَّخرُ له في الآخرة، فقد قال الله {ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ} [الحج 9] (ثَانِيَ عِطْفِهِ أي يُلوي رقبته تكبرًا مُعرِضًا عن سبيل الله).

وترتفع احتمالية الوقوع في ذلك الفخ –استحسان رأيه الباطل واتباعه– أضعافًا إذا كان المرء جاهلًا عن أمور دينه الفقهية، فيأخذ كمنهج له وشريعته ما يستحسنه مما تُمليه عليه نفسه ونظرته القاصرة للحياة، وكما قال الله تعالى في ذلك {وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا} [النجم 28]. وبغروره يتخذ منطِقه كمَرجِعَه، الذي هو مُرتكزٌ على جهلٍ وظنٍ وهوى، فيكون بالنسبة إليه الأساس والصواب، حتى إنه يُنكر ما يُخالف منطقه ولو كان من كتاب الله

أو ما اتَّفق عليه العلماء، فقد خالف مبدأ النجاة الذي وضعه الله لنا {فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ} [النحل 43].

فالحذر كل الحذر من الوقوع في ذلك الفخ، لأنه يستدرج المرء إلى معصية الله وانتهاك محارمه، بل وأكثر من ذلك بأن يستحل المرء الحرام، وإذا تمادى أعلن عصيانه لله أمام الناس، ويدعوهم غرورًا إلى التمثل به. وللأسف أكثر أن هناك طوائف من الناس من قد يتبعونه، إما عن جهلٍ، أو لتعظيمه، أو لغرضٍ ما عند المُتَّبِعين مثل لتحصيل أمر من ماديات الدنيا أو نيل إعجاب ذلك الشخص أو لتلبية شهواتهم. وكل هذا من الفتن، أعاننا الله عليها وسلّمنا منها.

وكما دلت آية سورة النحل، فإن من اتبع أحدًا في الدنيا ويُؤثره على كل الثوابت، أي أن رأي هذا الداعي بالباطل يُقَدَّم على شرع الله وسُنَّة الرسول صلى الله عليه وسلم، يُصبح ذلك المُتَّبَع وليًّا وأتباعه يَلزَمونه في الآخرة. فهذا مبدأ عامٌ يسري يوم القيامة كما جاء عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في جزء من حديثٍ له "يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ثُمَّ يَطَّلِعُ عَلَيْهِمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ فَيَقُولُ: أَلا يَتْبَعُ كُلُّ إِنْسَانٍ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَهُ؛ فَيُمَثَّلُ لِصَاحِبِ الصَّلِيبِ صَلِيبُهُ، وَلِصَاحِبِ التَّصَاوِيرِ تَصَاوِيرُهُ، وَلِصَاحِبِ النَّارِ نَارُهُ، فَيَتْبَعُونَ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ وَيَبْقَى الْمُسْلِمُونَ"[1] (التَّصَاوِيرِ ما يُصوِّرونه ويُجسِّدونه، وهي التماثيل).

وكما تم بيانه من قبل، من يُقدّم تشريع مخلوق في الحلال والحرام على تشريع الخالق يُصبح عبدًا لذلك المخلوق، لأن حق تشريع الحلال والحرام يكون لمن يَخلُق. يُضاف إلى هذا أن العبادة تنتج عن طاعة من يأمر باتّبَاعِه، فمثلًا، إن المرء يسمع أن الله أمر بالصلاة، فيتعلم كيفية الصلاة من سُنَّة الرسول صلى الله عليه وسلم ثم يُصلِّي، فالطاعة بالسعي في تعلم تنفيذ الصلاة في حد ذاتها عبادة، والصلاة عبادة أخرى، يأخذ المرء أجرًا على كل صنف من العبادة. ولإزالة الالتباس، فإن طاعة المخلوقات، مثل طاعة الوالدين وطاعة الحاكم وغير ذلك، إنما تكون تحت غطاء طاعة الله التي أمر الله بها، فيكون عابدًا لله وليس عابدًا للمخلوقات بناء على نيّته، والفيصل في هذا هو أنه إذا أمره أحد المخلوقات بمعصية الله فإن ذاك العبد يعصي المخلوق ويُقدِّم طاعة الله فيما أمره.

فالذين كانوا يعبدون الشيطان –بتلبية توجيهاته– يتَّبعونه يوم القيامة، فيكون قائدهم ومُمثلهم. وهذا قياسًا بما نبأنا به الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن الله يأمر يوم القيامة قائلًا "مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتَّبِعْهُ، فَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ، وَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الْقَمَرَ، وَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ"[2] (الطاغوت هو اسم لكل ما يُطغى الإنسان، كالأصنام والأوثان والشيطان، أي كل ما عُبِد من دون الله)، فما توقعنا للمكان الذي سيقودهم إليه الشيطان عمدًا؟ {كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ

---

[1] سنن الترمذي 2480.

[2] صحيح البخاري 6088، جزء من الحديث.

يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ} [الحج 4]. فنحن، والحمد لله، نعمد أن يكون الرسول (صلى الله عليه وسلم) هو ولينا في الآخرة، كي يشهد لنا أننا نعبد الله وحده، وليسقينا من حوضه، ويشفع لنا عند الله، ويدعو لمن تفلت منه أمته إلى النار، وغير ذلك من المنافع. وأما من اتبع فلانًا أو علانًا من الإنس أو الجن فإنه وليّه يوم القيامة، وما وزنهم يوم القيامة عند الله؟!

فيجب أن أُصارح نفسي، من الذي أرغب فيه أن يكون وليّي؟ أشيطان تمكن مني ليست غايته إلا هلاكي قدر المستطاع، ثم يغدر بي ويخذُلني وهو سعيدٌ مُتعمدٌ؟ أم إنسيُ اتخذته قدوة بالرغم من سفاهته لأنه جاهل في الإسلام، أو اغتر بهواه فساقه إلى السفاهة، فهو لا يملك لنفسه نجاةً فضلًا عن نجاتي؟ أم أَتَّخذ ما هو خير من ذلك كله، من قدّم سلامتي فوق سلامته في الدنيا، إضافةً إلى حرصه عليَّ يوم القيامة، ولا يرتاح باله ولا ينقطع عن مناجاة ربه حتى يخرج كل أتباعه من النار، وهو الرسول (صلى الله عليه وسلم)؟ {لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} [التوبة 128]. ألم يأن لي أن أستوعب مدى قيمة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فأتبعه حق الاتباع بطاعة الله وتجنب معصية الله؟ فإن تحقيق أن يكون هو (صلى الله عليه وسلم) وليي يوم القيامة يكون بالعمل والبرهان، وليس فقط بالكلام والمشاعر!

المعاصي قد تُبطل من الأعمال الصالحة التي أتمها العبد

قال تعالى {مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ} [إبراهيم 18]. قد جاء في أكثر من موضع في القرآن ما يدل على إحباط الأعمال يوم القيامة في أوضاع مُحددة، ولا يقتصر هذا فقط على الكافر، بل قد يُبطل المسلم عمله بالمنّ أو الأذى أو الرياء أو سوء النية مثلًا. وكذلك المعاصي، فإنها قد تُبطل آثار وأجر الأعمال الصالحة إن كثرت أو كبرت.

ولا شك أن المرء ارتكب من المعاصي أكثر مما هو يحسبه، لأن المرء بطبعه يتناسى أعماله السيئة ويتذكر أعماله الصالحة، فيرى أنه على خير. والدليل على هذا هو أن كثيرًا من الفجار لا يرون أنهم هالكون، لأنهم إذا توطد في أنفسهم ذلك لتوقفوا عما يرتكبونه. فالحذر من المعاصي لأنها تتسرب إلى أعمال العبد الصالحة وهو لا يشعر، حتى تُبطلها.

وقال تعالى {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُورًا} [الفرقان 23]، فاللهم سلّم سلّم. يوم القيامة يبطل الله أعمال الذين لا يؤمنون به، فترى أعمال الجاحد من إنجازات واختراعات واكتشافات علمية عظيمة في الدنيا، كانت تنفع الناس نفعًا بالغًا وكانوا يُعظمونها تعظيمًا كبيرًا، تُهدَم قيمتها في الآخرة، يجعلها الله هباءً منثورًا. حينئذٍ ترى المرء المشهور الناجح في الدنيا، ولكنه لم

يؤمن بالله، فيُصبح من أسفل السافلين يوم القيامة لأن حبط عمله وإنجازاته التي كانت كالجبال ويتعجب الناس منها.

وهذا ما شملته الآية {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (104) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا} [الكهف 103-105]. وقد قال (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، اقْرَءُوا {فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا}"[1]، وذلك لمن حاد عن صراط الله.

فقد يكون مثل ذلك الشخص ممن أصبحت لهم سمعة وهيبة، وبلغ من الدنيا ما يبلغ من مالٍ أو نَسَبٍ أو سلطةٍ أو علوم الدنيا أو مهارةٍ، حتى إن كثيرًا من الناس يُعَظِّمونه ويصبح محل محادثاتهم إعجابًا به، وهو عند الله مَهين إذ لم يُقدِّم من الأعمال ما يُثقل ميزانه. فمثل هؤلاء لا تكون لهم قيمة يوم القيامة، قد تبدلت المعايير يوم القامة عما كان يضعها الناس في الدنيا، فتتبدل مراكزهم على إثرها. بعد أن كان له وزن في الدنيا ويُوضع له ألف اعتبار بين الناس يصبح لا وزن له يوم القيامة، قد أخذ وضع الذين كان يحتقرهم في الدنيا فيُصبح هو المُحتَقَر من الناس. بل وقد يُحشر الرجل الثري الشهير ذو السلطة مثل الذَّرّ بسبب كِبَرِه، فيدهسه الناس بأقدامهم يوم القيامة لأنهم لا يرونه ولا يكترثون لأمره. أفلا يدعو كل هذا إلى التعجب والتأمل؟

وفي ذلك عظة لمن آمن بالله أيضًا، لأن إحباط العمل قد يحدث للمسلم أيضًا ولو في بعضٍ من عمله، كما تدل على ذلك الآية {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ} [محمد 33]. وهذه الآية نزلت حين ظن بعض الصحابة أنه لا يضر من ذنب ما دام العبد على "لا إله إلا الله"، فأعلمهم الله أن بعض الأفعال قد تُبطل أعمال المسلم الصالحة.

فمن الواضح أن قبول الله لعمل العبد ليس مضمونًا، والأكثر أن ما قُبل من عمل قد يُبطَل بالذنوب، فأنى يطمئن المرء؟! وقد دل القرآن أن الله يُحب العبد الذي يُقدم عملًا إلى الله وهو يخشى ألا يُقبل، كما في الآية {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ} [المؤمنون 60]، وهؤلاء أولى بقبول العمل منهم أكثر من الذين لا يخشون رفض العمل الصالح، وذلك لأنهم تواضعوا لله وسلّموا له الأمر. فالسؤال المنطقي هو: أفمن يخشى بصدق ألا يُقبل عمله الصالح، هل يستخف بالمعصية التي قد تُبطل العمل بعدما قُبِل؟

ويكفي علمًا أن المعاصي تُعادل الحسنات عند الحساب يوم القيامة، فكفى بذلك تأثير إبطالٍ، فما بالنا بالمعاصي التي تمحو الحسنات من الأساس، مثل الذي يتصدق ثم يَمُنّ على المُتصَدَّق

---

[1] صحيح البخاري 4360.

عليه؟ فإنه كأنما لم يتصدق لأنك كأنه يُرائي ويتباهى بما أخرجه من مال، إضافة إلى العلل التي في مفاهيمه أن هذا المال من فضله على الفقير بدلًا من أن يُدرك أنه من فضل الله على كليهما، وربما يزيد عليه وزر أذية المُتصدَّق عليه.

وقد يبلغ المرء بالمعاصي مرحلة أن ذنوبه تُبطل كُل أعماله الصالحة المقبولة، والتي تعب وبذل من وقته فيها، ويكأنه وهبها لغيره. اختبر سيدنا عُمَر الصحابةَ في سبب نزول الآية {أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ}، فأجاب سيدنا ابن عباس أنها ضُربَت كمثلٍ لعملٍ، قائلًا: لِرَجُلٍ غَنِيٍّ يَعْمَلُ بِطَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ بَعَثَ اللَّهُ لَهُ الشَّيْطَانَ، فَعَمِلَ بِالْمَعَاصِي حَتَّى أَغْرَقَ أَعْمَالَهُ[1]. بل قد يبلغ العبد مرحلة أن ذنوبه لا تُلغي أعماله الصالحة فحسب، فقد تطفو عليها حتى تُفضي به إلى النار، وهو الشخص المُفلِس بوصف الرسول (صلى الله عليه وسلم) كما سيأتي ذِكره قريبًا إن شاء الله، فأي خسارة تلك؟

الصدمات في شتى مراحل الآخرة

قد يُفاجأ المرء أن ذنوبه كثرت وكبرت إلى درجة أنه لا يُعد يُحسب من أتباع الرسول (صلى الله عليه وسلم)، بل ممن فسق أو ابتدع أو حرَّف أو تحوَّل عن الإسلام وهو قد لا يدرك. وفي هذه الحالة، يعمد للشرب من حوضه (صلى الله عليه وسلم) ولكنه يجد نفسه يُحال بينه وبين الحوض، ثُم يُصرف عنه بعيدًا، بينما يناله ويسعد به من اتبع الرسول (صلى الله عليه وسلم) حق الاتباع.

يروي لنا سيدنا أنسٍ (رضي الله عنه) قائلًا: بَيْنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ بَيْنَ أَظْهُرِنَا إِذْ أَغْفَى إِغْفَاءَةً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مُتَبَسِّمًا فَقُلْنَا: مَا أَضْحَكَكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ "أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفًا سُورَةٌ"، فَقَرَأَ {بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ}، ثُمَّ قَالَ "أَتَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ؟" فَقُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ؛ قَالَ "فَإِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ، هُوَ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، آنِيَتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ، فَيُخْتَلَجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ فَأَقُولُ: رَبِّ إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي! فَيَقُولُ: مَا تَدْرِي مَا أَحْدَثَتْ بَعْدَكَ"[2]. آنِيَتُهُ هي ما يُحمل الشراب فيهن؛ فَيُخْتَلَجُ أي أن يُنتزع ويُقتطع من بين أتباعه صلى الله عليه وسلم بالملائكة. فمثل هذه المواقف قد تحدث للعاصي.

وقد تكلمنا أن العبد قد يصل إلى مرحلة أنه يكون مُضلًّا بسبب عشقه للمعاصي والترويج لها، وينتج عن ذلك أن وقت المحاسبة يُفاجأ أن هناك عددًا كبيرًا من السيئات تُوضع عليه نتيجة

---

[1] صحيح البخاري 4174.

[2] صحيح مسلم 607.

لمعاصٍ، بينما لم يرتكبها هو بنفسه طوال فترة حياته، وربما يجد أنها ارتُكبت بعد مماته حتى. هذه الذنوب الخفية عنه تكون مثلًا تبعات لم يقصدها لمعاصٍ ارتكبها -مثل أن يسرق أحدًا فيعمد ذلك المسروق إلى أن يرتشي ليُعوّض المال الذي فقده-، وإما ذنوب الذين امتثلوا به فقلَّدوا معصيته، أو اغتروا بجُرأته على حدود الله فأقبلوا على معاصٍ أخرى.

ثم إذا شاء الله ليسألن ذلك العاصي المُضل عن كل تلك الذنوب إضافةً إلى ذنوبه، ذنبًا ذنبًا، وعلى كل ذنب يُسأل كيف وأين ومتى ولماذا وماذا كان يخطر في باله وما الذي كان يُريد إخفاءه. قال تعالى {وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ} [العنكبوت 13]. هذا مصير من دعى إلى الكفر أو الضلال أو ما في ذلك السياق (مثل المُجاهرة بالمعصية)، وذلك ما وضَّحه لنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) في قوله "أَيُّمَا دَاعٍ دَعَا إِلَى ضَلالَةٍ فَاتُّبِعَ فَإِنَّ لَهُ مِثْلَ أَوْزَارِ مَنْ اتَّبَعَهُ، وَلا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئًا، وَأَيُّمَا دَاعٍ دَعَا إِلَى هُدًى فَاتُّبِعَ فَإِنَّ لَهُ مِثْلَ أُجُورِ مَنْ اتَّبَعَهُ، وَلا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا"[1].

فإياك أخي الجهر بمعصية أو دعوة الغير إلى معصية، فهناك فرق كبير بين إنكار أن أمرًا ما معصية وبين الإقرار بأنه معصية مع ارتكابها. فالأولى تُحسب كإفساد في الأرض ومعاندة الدين، ولكن الثانية تُحسب كضعف النفس -أي زلة النفس- الذي يقع فيه الجميع بين الحين والآخر، مع علمك أنك على خطأ فتستتر. والأولى تجلب الهلاك ولكن الأخرى تجلب ستر الله وتدع مجالًا لرحمة الله والنجاة. فيا أخي، لا تُضعف هيبة ووقار الإسلام بين الناس بالجهر بالمعصية، أو بإنكار أن معصية ما عليها وزرٌ، محاولًا النجاة بنفسك أو لنيل مصلحة لك.

ولا تأخذ هذا الدين سترًا لك كي تنجو، فيقع الضرر على سمعة الإسلام وعليك وعامة المسلمين بدلًا من أن يقع عليك وحدك، ولكن تحمَّل عواقب أعمالك وواجه عواقب اختياراتك بمسؤولية ومُروءةٍ بدلًا من إلقائها على غيرك أو الإسلام. ولعل الله أن يغفر لك بذلك -إقرارك بأنك أخطأت-، فمن رمى عواقب أفعاله على الإسلام فقد خان العهد وقلّص احتمالية المغفرة له عن ذلك الذنب، وسيقع عليه ما حاول أن يتفاداه لا محالة. هذه النصيحة ليست لك وحدك أيها القارئ، بل هي لي أيضًا.

أما بالنسبة إلى المحاسبة، فيجب أن تُدرك معنى وأبعاد أنك تُناقَش في أعمالك من الله، حيث يُعرض عليك ذنب ذنب وتُسأل عن تفاصيل كل واحدٍ منها، وتُضطَّر للخوض فيهم بكل استفاضة، ففي ذلك وحده عذاب مُهلك للمرء. وهذا كما نبأنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) "مَنْ حُوسِبَ عُذِّبَ"، قَالَتْ السيدة عَائِشَةُ (رضي الله عنها) استفسارًا: أَوَلَيْسَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى {فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا}؟

---

[1] سنن ابن ماجه 201.

فَقَالَ "إِنَّمَا ذَلِكِ الْعَرْضُ، وَلَكِنْ مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَهْلِكْ"[1]. فافعل ما بوسعك أيها العامل كي تتفادى أن يكون حسابك نقاشًا، ويكون فقط عرضًا.

وعند الحساب قد يَلقى مَن سَخِط الله عليه، بسبب كثرة معاصيه التي تُبرز تفاوتًا بين أفعاله وبين قوله إنه يؤمن بالحساب، الفضح والإحراج والقهر والترويع والقطع في الحُجَّة، وكل هذا في موقف واحد. هذا ما نبأنا به سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) عندما يُحاسِب اللهُ عباده "فَيَلْقَى الْعَبْدَ فَيَقُولُ: أَيْ فُلْ، أَلَمْ أُكْرِمْكَ وَأُسَوِّدْكَ وَأُزَوِّجْكَ وَأُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ؟ فَيَقُولُ: بَلَى؛ فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ؟ فَيَقُولُ: لَا؛ فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي. ثُمَّ يَلْقَى الثَّانِيَ فَيَقُولُ: أَيْ فُلْ، أَلَمْ أُكْرِمْكَ وَأُسَوِّدْكَ وَأُزَوِّجْكَ وَأُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ؟ فَيَقُولُ: بَلَى أَيْ رَبِّ؛ فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ؟ فَيَقُولُ: لَا؛ فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي. ثُمَّ يَلْقَى الثَّالِثَ فَيَقُولُ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ آمَنْتُ بِكَ وَبِكِتَابِكَ وَبِرُسُلِكَ وَصَلَّيْتُ وَصُمْتُ وَتَصَدَّقْتُ، وَيُثْنِي بِخَيْرٍ مَا اسْتَطَاعَ؛ فَيَقُولُ: هَاهُنَا إِذًا. ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: الْآنَ نَبْعَثُ شَاهِدَنَا عَلَيْكَ. وَيَتَفَكَّرُ فِي نَفْسِهِ: مَنْ ذَا الَّذِي يَشْهَدُ عَلَيَّ؟ فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ وَيُقَالُ لِفَخِذِهِ وَلَحْمِهِ وَعِظَامِهِ: انْطِقِي؛ فَتَنْطِقُ فَخِذُهُ وَلَحْمُهُ وَعِظَامُهُ بِعَمَلِهِ، وَذَلِكَ لِيُعْذِرَ مِنْ نَفْسِهِ، وَذَلِكَ الْمُنَافِقُ، وَذَلِكَ الَّذِي يَسْخَطُ اللَّهُ عَلَيْهِ"[2] (فُلْ أي فُلان؛ وَأُسَوِّدْكَ أي جعلتك سيدًا على غيرك؛ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ أي تصبح رئيسًا على غيرك وتكون مُطاعًا، وفي هذا كله إشارة على أن الله أنعم عليه كثيرًا إلى أنه عاش في سعَة؛ هَاهُنَا إِذًا أي قف هاهنا حتى تشهد عليك جوارحك إذ قد أنكرت، على أساس أنه أنكر نعم الله عليه عمليًّا بعصيان الله، بل وطغى فلم يعترف بذنوبه).

وصدمة أخرى قد تحدث للمرء يوم القيامة هو أنه يدخل النار بدلًا من الجنة، بالرغم من أنه قدَّم لله أعمالًا كثيرة وعظيمة، بل وقد قَبِلها الله. كيف؟ قال سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) "أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟"، قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لا دِرْهَمَ لَهُ وَلا مَتَاعَ، فَقَالَ "إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ"[3]. فذلك يحدث مع الذي ظلم الناس في عصيانه لله.

ومن الأمثلة على المُفاجآت التي قد تحدث مع من أسرف في المعاصي حتى أصبح يُعدّ مع المنافقين، أنه يُحال بينه وبين المؤمنين يوم القيامة بعدما كان في مجموعتهم. قال تعالى {يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُواْ انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُواْ وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُواْ نُورا فَضُرِبَ

---

[1] صحيح البخاري 100.

[2] صحيح مسلم 5270.

[3] صحيح مسلم 4678.

بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَاب (13) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (14) فَالْيَوْمَ لاَ يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلاَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاَكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [الحديد 13-15]. فيُمنع ذاك العاصي من المُضي مع المؤمنين إلى الجنة، بل ويتم إخباره بأن مأواه النار وأنها مولاه ذاك اليوم، وذلك بدلًا من الجنة التي كان يتوقعها.

وإذا أسرف العبد في المعاصي فإنه قد يصير بمنزلة من نسي الله ولقاءه للحساب، وقد قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) في هذا الشأن "يُؤْتَى بِالْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: أَلَمْ أَجْعَلْ لَكَ سَمْعًا وَبَصَرًا وَمَالًا وَوَلَدًا وَسَخَّرْتُ لَكَ الأَنْعَامَ وَالْحَرْثَ وَتَرَكْتُكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ، فَكُنْتَ تَظُنُّ أَنَّكَ مُلاقِي يَوْمَكَ هَذَا؟ فَيَقُولُ: لا، فَيَقُولُ لَهُ: الْيَوْمَ أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي"[1] (الْيَوْمَ أَنْسَاكَ بمعنى أن الْيَوْمَ أَتْرُكُكَ فِي الْعَذَابِ). ومع أن المقصودين أساسًا بهذا الحديث والآية الكريمة {الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ} [الأعراف 51] هم من كفروا بالله، إلا أن ذلك قد يكون له مجال مع الذين أسرفوا في المعاصي مع إسلامهم، فهو بمنزلة من نسي -أي تجاهل وتغافل ولم يكترث إلى- حدود الله والحساب. فهذه عظة شاملة لمن نسي وتناسى ربه ويوم الحساب، فعمل للدنيا وأجَّل مُحاسبة نفسه على عواقب أفعاله إلى الآخرة.

ويجب أن أُحاسب نفسي بموضوعية دون تَدَخُّل مشاعري في تقييمي لنفسي، وذلك عن طريق النظر إلى المؤشرات، وهي أعمالي، دون الاحتجاج بالنيات والمُبررات، فأُحصيها (الصالح والفاسد من الأعمال) وأنظر إلى الصورة المُجملة. آنذاك أستطيع أن أرى وأحكم على نفسي: ءإني ممن نسي يوم الحساب أم أنا ممن يرعى ملاقاة ربي ذلك اليوم؟ ثم يجب أن أُواجه نفسي، بعد أن أنعم الله عليَّ، ءأُعرض عنه بأن أتناسى لقاءه وأترك منهجه؟! الله الذي خلقني وصورني في أحسن هيئة ورزقني، ثم أمرني أن أعبده ولا أعصيه، أيحق لي بعد هذا أن أعصيه كما أشتهي؟ وهل هناك من ضائع أَضيَع ممن نسيه الله (أي تخلى عنه)؟ هل هناك خسران أدهى من هذا؟

خيانة كل أنسابه وأقاربه وأصدقائه من الدنيا كي ينجو من عذاب الآخرة

قال تعالى {وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ} [الزمر 47]. هذا مما يحدث يوم القيامة من شدة الأهوال، أن الظالم يفتدي بكل ما لديه كي ينجو، حتى إنه يفتدي بصديقه الحميم وبأبويه وزوجته وأولاده للنجاة. أي عذابٍ هذا الذي يجعل الفرد يتخلى عن كل شيء، بل ويغدر بهم؟! هو العذاب الذي يجعل المرء، من شدة يأسه، يتشبث بأي سرابٍ يُشبه فرصة نجاة.

[1] سنن الترمذي 2352.

والمرعب أكثر في هذه القضية هو قوله تعالى "وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ"، فمهما حاولنا أن نتخيل ما الله بفاعل بمن غضب عليهم فلن يخطر ببالنا، كما لا يخطر ببالنا ما في الجنة من ثواب، وهذا هو كلام الله الذي يتحقق لا محالة. هذه الآية تُنذر كل التنذير بأن الله قد مكر بهم وسيُنَكِّل بهم بما لا يتوقعونه، وهذا أسوأ المكر والعذاب للذين غضب الله عليهم.

فلماذا المخاطرة بأن أجد نفسي في هذه الورطة وأنا لا أشعر عن طريق معصية الله، فرُب عاص معصيته أعظم مما كان يظن، أو يقع في معصية وراء معصية بسبب تهاونه، وذاك قد يفتح على العبد بابًا هو ليس بصدده من الله، فإن شاء الله مكر به، وإن شاء عفا عنه. لماذا أُوَرِّط نفسي في وضعٍ سيئ مثل ذلك وأنا أستطيع أن أقي نفسي منه بطاعة ربي؟ من منا ليس في غنًى عن ذلك الموقف؟ هل العاقل إذا خاطر يُخاطر بمصيره في الآخرة؟!

ومنها أيضًا أن المرء يخون صديقه السوء في الدنيا، إذ يريد أخذ منه مظالمه (أي يأخذ من حسناته)، إضافةً إلى رمي اللوم عليه وتحميله الأوزار على ما تعاونوا عليه من سوء أعمالٍ، فقد قال تعالى {ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ} [الزمر 30-31]. جاء في تفسير ابن كثير لهذه الآية: قال الزبير رضي الله عنه في قوله تعالى {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ}: أي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أَيُكَرَّرُ عَلَيْنَا مَا كَانَ بَيْنَنَا فِي الدُّنْيَا مَعَ خَوَاصِّ الذُّنُوبِ؟ قَالَ "نَعَمْ، لَيُكَرَّرَنَّ عَلَيْكُمْ حَتَّى يُؤَدَّى إِلَى كُلِّ ذِي حَقٍّ حَقُّهُ"، فَقَالَ الزُّبَيْرُ: وَاللَّهِ إِنَّ الأَمْرَ لَشَدِيدٌ[1] (انتهى).

فليس أمر الحساب ولا رد الحقوق بالشيء الذي يؤخذ ببساطة، ويجب أن يكون عملي دالًّا على أني أؤمن بهذا وأحمله على محمل الجد إذ إنه يومٌ عصيب. أما ظلم الناس والمعاصي، لأن كثيرًا ما تكون معصية الله مقرونة بمظلمةٍ لشخصٍ أيضًا -كالسرقة مثلًا-، فيُناقضان إيماني بذلك.

افتراق الأصدقاء المُقرَّبين، بل ونيل معاداتهم واضطهادهم، إن كانوا مع المرء على السوء

في الباب السابق تكلمنا كيف أن العاصي يغدر بكل من كانوا قريبين منه، وأما في هذا الباب فسنتداول كيف سيشعر المرء عندما يكون هو الطرف الآخر، وهو أن يتم الافتداء به ممَن كان يحسبة أعز صديق له في الدنيا. قال تعالى {الأَخِلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلا الْمُتَّقِينَ} [الزخرف 67]، فوالله إنه ليوم رهيب الذي فيه يتعادى أخلاء السوء، الذين كانوا يترابطون مع بعض حتى يستطيعوا أن يُتمموا الباطل. تخيلوا معي، الأصدقاء الذين يحفظون طباع بعض، ويتشوّقون لمُقابلة

---

[1] مسند أحمد 1357.

بعض باستمرار، يأكلون ويشربون ويلهون ويُلازمون بعض، ويُدافعون بضراوة عن بعضهم، آل بهم الحال إلى أنهم يتخاصمون بهذا الشكل يوم القيامة فيتلاومون.

يومئذ تظهر منهم جوانب لم تظهر من قبل فيما بينهم، فيفتنون على بعض، بعد أن كان صديقه الذي يستره في الدنيا ويدافع عنه ولو كان ظالمًا مُخطئًا، أن فلان هو الذي حرضهم على المعصية حتى يُورِّطوه وينجوا هم، وفلان فعل مصيبة كذا وكذا، وفلان منعهم عن عبادة الله، وفلان قال كذا وكذا. يفتنون على بعض أملًا أن يرمي كل واحد وزره على الآخر، سعيًا أن ينفذ كل واحد بنفسه ولو بفداء صديقه الذي يُحبه أكثر من أخيه، ولا مانع عندهم أن يكذبوا أمام الله لتلفيق التهمة ظلمًا لواحد منهم، الذي قد يكون أنا.

أفلا يجب أن أعمل لمثل ذاك اليوم، وأختار أصدقائي الذين يعينوني على الطاعة ويمنعوني من المعصية، وتكون شهاداتهم لي رفعًا لمنزلتي أمام الله ولا يُخاصمونني يوم القيامة؟ ألن يكون جميلًا أن أصحابي المقربون يُشاركوني الفرحة وأنا أُشاركهم فرحة أننا بلغنا الجنة ومعًا؟ ألن يكون جميلًا أن نتكلم ونتفاعل ونستأنس ببعض ونتمتع بمتاع الجنة معًا، بدلًا من أن أجد نفسي دون أصدقاء لأنهم قد غدروا بي وأورطوني في العذاب محاولةً منهم أن ينجو بأنفسهم؟

احتمالية احتداد ثِقَلَ المعاصي على العاصي يوم القيامة إلى حد تخاصم الجسد مع نفسه

معلوم أن الناس يتخاصمون يوم القيامة من شدة أهوال ذلك اليوم وما يحمله من عذاب، كلٌ يريد إلقاء اللوم على غيره، بالرغم من أنه هو الذي ارتكبها، ليحمل الآخر جزاء الذنوب وينجو العاصي بنفسه، حتى لو وصل الأمر إلى أن ينجو هو وحده على حساب جميع المخلوقات. فمهما كثر الذين يحتاج أن يُضَحِّي بهم لينجو، ومهما قويت روابطه معهم، فذلك لن يُعيقه عن الافتداء بهم.

ففي ذلك اليوم يتخاصم أصحاب السوء، ويتخاصم الأهل والعشيرة حتى إن الأم تُضحّي بابنها، والحبيب يُضحي بحبيبة عمره ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا (10) يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (11) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (12) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (13) وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ [المعارج 10-14]. ولكن هل هذه ذروة التخاصم والخيانة اللتين تحدثان يوم القيامة من شدة العذاب المُرتقب؟ الإجابة هي: لا.

قال تعالى ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (19) حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (20) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (21) وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ

سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيرا مِمَّا تَعْمَلُونَ (22) وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنْ الْخَاسِرِينَ} [فصلت 19-23].

الآن جاء الحق، دون مجال للجدل، فإن التخاصم والخيانة يبلغان وقت الحساب إلى حد أن جسد العاصي ليتخاصم منه، فلقد بلغت آثام ذاك العاصي إلى درجة أن حتى أعضاء جسده نفرت وتتبرأ منه، لا إله إلا الله! إذًا لماذا أنا أرتكب المعصية دون أن أحترس وأتجنب أن أجد نفسي في هذه الحالة، فإن ارتكبت معصية بيديّ ثم أنكرتها يوم القيامة، قد تشهدان عليَّ حتى لا يتركوا لي مجالًا للمجادلة أو الكذب؟!

وقد استفاض الرسول (صلى الله عليه وسلم) في هذه النقطة، فيما يرويه لنا سيدنا أَنَس بن مَالِك (رضي الله عنه) قائلًا: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَضَحِكَ، فَقَالَ "هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟" قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ "مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ يَقُولُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنْ الظُّلْمِ؟ يَقُولُ: بَلَى، فَيَقُولُ: فَإِنِّي لا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلا شَاهِدًا مِنِّي! فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا؛ فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ فَيُقَالُ لأَرْكَانِهِ: انْطِقِي، فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ، ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلامِ فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا، فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ"[1] (فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ أي على فَمِهِ فلا يستطيع التكلم؛ أُنَاضِلُ أي أُجادل وأُدافع).

اللهم لا تجعلنا من هؤلاء، وعافنا من هذا. ربي، كيف سيكون حالي عندما أعصيك من أجل أن يستمتع جسدي في الدنيا، ثم يوم القيامة يشهد عليَّ جسدي بالحق، فيُقر أمامك بما ارتكبته من معاصٍ؟ فالحق أُقِرُّ به، أنه من أعرض عن الله من أجل معصية، فمن الطبيعي والمنطقي أن يعرِض عنه ويبغضه كل شيء حتى أعضاء جسده، لأن كل شيء مِلكٌ لله. هذا الحديث يبين مدى ثقل وهول يوم القيامة، وشدة رعب الإنسان من العذاب، أنه ليس فقط يفتدي المرء بأخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه وصديقه الحميم، بل إن العضو في الجسد ليفر من العضو الآخر، والأعضاء تبيع صاحبها! بل إن الجسد والروح ليختصمان من شدة ذلك اليوم.

فمن رد نعم الله بالمعاصي، حُقّ عليه أن ترد عليه أركان جسده بالاستنكار والعصيان، فأي يوم عصيب ذاك! اللهم إنا لا ندري كيف سنجتاز يوم القيامة، ولكنك كتبته علينا لا محالة، ولا حول لنا ولا قوة في هذا، فاللهم إنا نسألك الرحمة والرأفة والتيسير والتخفيف والسلامة والنجاة، وأن تكون معنا لا علينا بما قدمنها من العمل اليسير الذي لا يوفِّي حقك، بل وأنت الذي وفّقتنا عليه.

فما فائدة المعصية إذًا غير لحظةٍ عابرةٍ من المُتعة، تسيل بعدها أنهار من العواقب؟ إنما هي شهوة ومتعة اللحظة في أثناء المعصية هي التي تحول بيني وبين عقلي، بأن أبحث عن أي حجة

---

[1] صحيح مسلم 5271.

لإخماد عقلي وضميري. أليسا عقلي وضميري جُزءًا مني، فلماذا أحاربهما كي أُتم المعصية؟ أليس بهذا أكون أنا الذي بادرت بمُخاصمة جسدي، فكيف يحق لي أن أتعجب وأستنكر عندما يُخاصمني جسدي يوم القيامة؟ وكيف أنعم وأكون مستقرًّا غير متضررٍ بأي أمراض نفسية إن كنت أحارب وأقاوم أجزاء من كيان نفسي اللواتي على الحق؟ إن كل من يُحارب نفسه أو له أفكار متناقضة يكون غير مطمئن ولا مستقر عقليًّا ونفسيًّا، لأن بداخله صراعات مستمرة.

فلماذا أجلب كل تلك المعانات والمشكلات لعقلي ونفسي؟ أمِن أجل لحظات سريعة من السعادة، تذهب وتنقضي كأن لم تكن في خلال بعض الأيام بالأكثر، لأن مصيرها حتمًا إلى نسياني لها، يلتحق بي بعدها أذًى في الدنيا والآخرة؟ لماذا لا أزن ما لي وما عليَّ من معصية الله، فهل من أجل لحظة سريعة تمر من السعادة أجلب آثار ضرر المعصية في الدنيا وحساب ربٍ غضبان على يوم الحساب؟ كم أنا ضعيف الإرادة... ومتخلى عن عزةِ نفسي لأرتكب معصية الله، فقد كرمني الله بعقل مفكر يزن أضرار المعصية أمام منفعة تجنبها، فما أنا فاعل بعقلي؟! أُطيعه أم أُهمِّشه؟

ومن أدلة تلك الآيات أيضًا، التي من صورة فصلت، أنها تدل على شيء لا يراه كثير من الناس، وهو أن كل شيء حي. وليس هذا مقصورًا على أركاني، بل وعلى كل شيء خلقه الله، كالصخر والمعادن وغيرهم، واستدلالًا بقول الله عز وجل {وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [البقرة 74، جزء من الآية]. فالحجارة تؤمن وتُعظِّم الله وصفاته، وكذلك كل ما خلقه الله، والأدلة على ذلك كثيرة مثل قول الله عز وجل {إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا} [الأحزاب 72]، {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} [الإسراء 44].

وفي واقعة يرويها لنا سيدنا عَلِيّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ (رضي الله عنه) قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَكَّةَ فَخَرَجْنَا مَعَهُ فِي بَعْضِ نَوَاحِيهَا فَمَرَرْنَا بَيْنَ الْجِبَالِ وَالشَّجَرِ، فَلَمْ نَمُرَّ بِشَجَرَةٍ وَلا جَبَلٍ إلا قَالَ: السَّلامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ[1]. فهذا الحديث زيادة في الدلالة على ما جاء في القرآن أن الجماد -من الأرض والجبال والصخور وغير ذلك- والأحياء -من الدواب والأشجار والطيور وغيرهم مما نظنهم لا يعقلون- أنهم يعيون ويدركون أنه لا إله إلا الله ووجبت طاعته.

فمخلوقات الكون، سواء جمادٌ أو أحياءٌ، كانوا يتفاعلون مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وقد أكَّد كلام سيدنا أنس بن مالك (رضي الله عنه) ذلك في قوله: لَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي دَخَلَ

[1] سنن الدارمي 21.

فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ أَضَاءَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي مَاتَ فِيهِ أَظْلَمَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ، وَمَا نَفَضْنَا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأَيْدِيَ حَتَّى أَنْكَرْنَا قُلُوبَنَا"[1]. وَمَا نَفَضْنَا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأَيْدِيَ حَتَّى أَنْكَرْنَا قُلُوبَنَا أي التراب عنهم في أثناء دفنه صلى الله عليه وسلم، حزنًا أن قلوبهم لم تصبح على نفس الصفاء والألفة كما كانت حين كان الرسول صلى الله عليه وسلم بينهم، نظرًا لانقطاع الوحي وإرشاده لهم.

فإن كانت المخلوقات تتفاعل مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، فمن المنطقي أنها تتفاعل مع عامة الإنس أيضًا، ولكن ليست بنفس الدرجة الواضحة فلا نستطيع ملاحظة ذلك. وهناك أحاديث تشير إلى ذلك مثل جزء من قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) "وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ، حَتَّى الْحِيتَانُ فِي الْمَاءِ"[2]، فالصالحين تتفاعل معه المخلوقات بطريقة إيجابية. على الوجه الآخر، إن كانت كل الأشياء لها حياة وتسير في طاعة الله –إلا فئة من الإنس والجن–، وأنها تتجاوب مع الإنسان، فهذا يعني أنها تتفاعل مع العاصي بالنفور والذم والتوبيخ، وربما حتى اللعن إن كان ذاك الشخص بالغ الفجور. ومن ثمَّ، فإنهن جميعًا يتخاصمون مع الفاجر يوم القيامة، خاصةً أن آثار معاصيه تقع عليهن.

وبعد أن علمنا أن كل شيء يُيقن بوجود الله ويؤمن بصفاته وينصاع لحُكمه، فإن ذلك يعني أن جسدي ليس كجزء واحد، بل أن دمي له كيان، وعظمي له كيان، وكل عضو له كيان. بل وبداخل كل كيان كيانات أخرى، مثل خلايا الدم وخلايا العظم وخلايا الجلد وغير ذلك، وبداخل الخلايا جزيئات مستقلة، لكن يتحكم في كل شيء العقل (سواء إراديًا أو تلقائيًا) بقدرة الله التي وهبنا إياها مؤقتًا.

كن معي أيها القارئ وافعل ما أطلبه منك، مُد قدميك أبعد ما يكون من جسدك، واختر أي اصبع من قدميك، ثم حركه سريعًا ثم بطيئًا. هل تمعنت فيما حدث؟ ألا تتأمل في أنك حركت شيئًا من جسدك بهذا البعد من رأسك دون أن تُحرك سائر جسدك... كيف؟ هذا الإصبع البعيد عن مركز التحكم (العقل) قد حركته بقرار من عقلك قد تُرجم إلى حركة، عن طريق تفاعلات كيميائية وفيزيائية شرحها يخرج عن نطاق هذا الكتاب، في هذا الإصبع البعيد عن بصرك. فإنك قد آثرت حركة في مكان بعيد باستعمال عقلك فحسب.

بعد تلك التجربة، هل يدّعي أي إنسان أنه هو الذي أعطى نفسه القدرة على تحريك جزء من جسده؟! وإن كان هناك من يؤمن أنه هو الذي يملك هذه القدرة، فليشرح تفصيليًا كيف تمت عملية الحركة من بداية التفكير في الحركة، ثم العزم على إحداثها، مرورًا بأي أعصاب كي تصل إلى أي عضلات تحديدًا، وما التغييرات الكيميائية التي احتاج أن يُحدثها في جسده حتى يُحرِّك إصبعه، وما

---

[1] سنن ابن ماجه 1621.

[2] سنن الترمذي 2606.

المواد البنائية لهذه المواد الكيميائية. وإن استطاع أن يشرح، فليدَّعِ أنه أعد في جسده المواد الكيماوية والخلاية مُسبقًا وإراديًا! وإن عَلم تفاصيل النظام الحركي وجادل أن قضية الحركة محصورة في إرادته الشخصية وليس لأي أحدٍ تأثير على حركته، فهل يُنكر أنه إذا أصابه مرض أو حادثة تُسبب الشلل لن يستطيع أن يُحرك نفسه معهما بلغت إرادته؟ فذاك دليل آخر أن قدرة الحركة هبة من الله.

أفلا ترون، أنما قدرتنا على تحريك شيء بذلك البعد (أو أقرب) هبة من الله تعالى، وهي نعمة عظيمة مَنَّ الله بها علينا اعتادها كثير من الناس فأخذوها على أنها مُسَلَّمَة، إذ إننا نُحرك أجسادنا وبطرق معقدة ودقيقة من قبل أن نعلم كيف! وما توصل إليه العلم لا يجاوب على كل الأسئلة، ما يؤكد على أن الله هو الذي وهبنا هذا الجسد، وأعطانا القدرة على التحكم في جانب من حركاته، ولم نُعطَ قدرة السيطرة على كل حركاته، بل هناك ما لا يمكننا التحكم فيه كضربات القلب وسير الأمعاء، حفاظًا على حياة المرء. بناءً على إدراكنا لهذا، أفلا ينبغي أن نتورع عن استخدام هذه النعمة فيما يُعرّضنا أن تُسلب منا في حياتنا: المعصية؟ بل وأفلا ينبغي أن نحذر ونستعد ليومٍ تُسلب منا هذه النعمة على سواء: الموت؟

ثم هناك مسألة أدق متعلقة بعنوان هذا الجزء، ألا وهي مدى التخاصم الذي يحدث يوم القيامة بين جوانب الجسد. قد ذكرنا كيف أن السمع والبصر والجلود وغيرهم يشهدون على صاحبهم، وذلك لأنهم اجتمعوا على باطل معصية الله فحق عليهم أن يتفرَّقوا عند حق الجزاء، ولكن أعضاء الجسد ليسوا المُتآمر الوحيد على المعصية. طبيعة الوضع هو أن الروح تُسوّل، والقلب يميل بهواه – وهو أساس توجيه العبد إلى الحق أو الباطل–، والعقل هو الذي يُدبر ويُخطط –والذي قد يتجاوب أو يرفض–، ثم يأمر الجسد فيُنَفِّذ –والذي يشتهي المعصية–. والمُحصِّلة أن جميعها مشترك في العصيان، وجميعها يستمتعون بالمعصية، فجميعها استحقوا العذاب في الآخرة.

والسؤال هو: كيف يتمثل هذا الكلام على أرض الواقع غير ما جاء أن أعضاء الجسد تتخاصم؟ والإجابة هي أنه بعد أن يعصي العبد ربه يكون قد استمتع الجسد بالمعصية ومعه الروح، ولكن باطنًا قد كره الجسدُ الروحَ ويتشاحن تجاهها، لأنها تسببت في توجيهه إلى عصيان الله، ومن ثمَّ توريطه في حمل السيئات، بالإضافة إلى أن للمعصية أضرارًا على الجسد. وعلى الصعيد الآخر، فإن الروح تكره الجسد لأنه هو الذي له شهوة يريد تلبيتها، والروح استجابت لتستمتع مع الجسد فوسوست (وربما أَلَحَّت) على ارتكاب المعصية للجسد؛ قد أورطها الجسد بشهوته الكامنة. وهذه نتيجة أي معصية، خلل في نفس الإنسان بين الروح والجسد، والروح مع كيانها، والجسد مع كيانه، إذ قد أورَّط كل واحد منهما جانبه والجانب الآخَر في معصية الله، ولكن التشاحن قد لا يظهر جليًّا إلا وقت الحساب.

فإني أريد أن أبين أن المعصية لا تؤدي إلى انشقاق فقط بين الأمة والأمة، ولا المجتمع والمجتمع، ولا الدولة والدولة، ولا القرية والقرية، ولا الحي مع الحي، ولا الجيران مع الجيران، ولا الفرد مع الفرد، بل ما هو أكثر من ذلك، أن المعصية تؤدي إلى الانشقاق بين الجسد والروح أيضًا!

قد جاء في تفسير ابن كثير للآية {ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ} [الزمر 32]: وَقَدْ رَوَى ابْنُ مَنْدَهْ فِي كِتَابِ "الرُّوحِ"، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: يَخْتَصِمُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى تَخْتَصِمَ الرُّوحُ مَعَ الْجَسَدِ، فَتَقُولُ الرُّوحُ لِلْجَسَدِ: أَنْتَ فَعَلْتَ؛ وَيَقُولُ الْجَسَدُ لِلرُّوحِ: أَنْتِ أَمَرْتِ وَأَنْتِ سَوَّلْتِ. فَيَبْعَثُ اللَّهُ مَلَكًا يَفْصِلُ بَيْنَهُمَا، فَيَقُولُ [لَهُمَا]: إِنْ مَثَلَكُمَا كَمَثَلِ رَجُلٍ مُقْعَدٍ بَصِيرٍ وَالْآخَرُ ضَرِيرٌ [أي أعمى]، دَخَلا بُسْتَانًا فَقَالَ الْمُقْعَدُ لِلضَّرِيرِ: إِنِّي أَرَى هَاهُنَا ثِمَارًا وَلَكِنْ لا أَصِلُ إِلَيْهَا؛ فَقَالَ لَهُ الضَّرِيرُ: ارْكَبْنِي فَتَنَاوَلْهَا؛ فَرَكِبَهُ فَتَنَاوَلَهَا، فَأَيُّهُمَا الْمُعْتَدِي؟ فَيَقُولانِ: كِلاهُمَا؛ فَيَقُولُ لَهُمَا الْمَلَكُ: فَإِنَّكُمَا قَدْ حَكَمْتُمَا عَلَى أَنْفُسِكُمَا. يَعْنِي: أَنَّ الْجَسَدَ لِلرُّوحِ كَالْمَطِيَّةِ، وَهُوَ رَاكِبُهُ[1].

وهذا التخاصم يحدث لأن النفس والجسد يرغب كل منهما النجاة ولو على حساب الآخر من شدة العذاب، فيشهد أحدهما على الآخر كي يُلقي اللوم عليه ويُحمّله الذنب، أملًا يائسًا في أن الصدق مع الله (بالاعتراف على الطرف الآخر) آنذاك قد يُنجيه. فمن شدة الخوف من الله، يتعامل كل عنصر مع الآخر كما يتعامل كل صديق سوء مع الآخر: كالأعداء يفتدون ببعض! فأصبح ذاك الشخص، التابع جسده لإملاءات روحه، وروحه التابعة لشهوات جسده، كالأنعام كما في الآية {وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ} [محمد 12، جزء من الآية]. فما هذا اليوم الذي يتخاصم فيه الروح من الجسد والجسد من الروح؟! اللهم سلّم سلّم.

وعلى ذلك المبدأ أتحاور مع نفسي، إن أردت أن أعصي الله فلأنظر إلى العروق التي في ظهر يدي وأتفكر، عندما يكرهني دمي (بعد أن يُغذي جسدي، ثم أستعمل جسدي في معصية الله) هل يرغب في أن يستمر في السريان داخل جسدي؟ إنما يجري الدم في عروقي بأمر من الله، حتى إن كنت على معصية، فإن الله يسيّره في عروقي، فهل أنا أملك هذا الدم كي أضمن أنه سيجري، أم أني اتخذت عند الله عهدًا أن يُسيره في كل حالاتي؟ فالعجب كل العجب أني أحتاج إلى نِعَم الله وحفظه كي أعصيه!

فإن الدم يجري (وإن كان كارهًا لذلك لأني أعصي الله، فإنه لا يستطيع أن يتوقف برغبته إلا إذا أذن الله له بذلك) حتى يأذن الله له أن يتوقف، وقد يتوقف في أثناء المعصية فتكون الطامة الكبرى. فالحمد لله على صبره علينا، ولا أحد يُتوجه إليه الإساءة منا أكثر من الله، ولا أحد أصبر على

[1] تفسير ابن كثير 98/7.

الأذى من الله، وحديث النبي (صلى الله عليه وسلم) يوضح ذلك أكثر "مَا أَحَدٌ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى سَمِعَهُ مِنْ اللَّهِ، يَدَّعُونَ لَهُ الْوَلَدَ ثُمَّ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ"[1].

وتشبيهًا آخر لطبيعة الوضع، للتوضيح، هو أنه عندما يعصي العبد ربه، يسوق قلبه كل شيء في جسده إلى المعصية، فالجسد كالطفل والقلب كالأب. فقد يقود الأب ابنه إلى طريق فيه ضرر للابن، مثل أن يُقنع الأب ابنه بفعل أمر ما يراه الأب فيه مصلحة (في الدنيا مثلًا) مع أن الابن يراه خطأ، والمُحصلة أن الابن قد يطيع الأب ولكن سيأخذ في نفسه من أبيه في النهاية عندما تسوء الأمور. وقياسًا على ذلك أتساءل: كيف حال يدي التي عصيتُ الله بها، ما ظنها بي؟ فلا نهاية لهذه الأسئلة، ولا إجابة ليست بمخزية.

قسوة القلب، قسوة القلب، قسوة القلب

إن العاصي ليقسو قلبه بإعراضه عن جوانب للإسلام وبإقباله على المعاصي، وذلك لعدة أسباب، منها أن العاصي يُخمد أنين ضميره حتى يخفت، فلا يستحيي من ارتكاب القبائح إذ لا يمنعه وازعه الديني ولا ضميره المقهور. ثُم إن غايته في تحصيل الدنيا تدهس أهمية تحريه عن سبيل تلك المتعة -كانت عن طريق الحلال أم الحرام-، فإن عنده مبدأ الغاية تُبرر الوسيلة راسخٌ في سلوكه. وقد يجعله ذلك يدهس من هو أضعف منه تحت تبرير البقاء للأقوى كما كان في الجاهلية قبل الإسلام، فقد كان القوي يأكل الضعيف. ومنها أنه ببُعده عن الله وعن الإسلام يجعل الله ينزع من قلبه الرحمة، فيقسو قلبه جزاءً من جنس عمله بالإعراض عن الله (إذ إن الصلة مع الله هو ما يُحيي القلب)، فينفر من مجالس العلم مثلًا ويهجر القرآن وذكر الله عامةً. ثم تصبح لقسوة قلبه تبعات تكون عليه وبالًا وزيادة في الأحمال يوم القيامة، منها أنها تزيده إعراضًا عن الله فينتكس أكثر.

وإن قسوة القلب لهي من المصائب التي يُستخف بتبعاتها ومدى مصيبتها، لأنها لا تجعل المرء يُعرض عن الله فحسب، بل يبدأ بظُلم عباد الله وكأنه ليس عبدًا مثلهم. فتجده لا يعطف على المسكين أو الفقير أو الأرملة أو الطفل والمُسِن، بل وإذا رأى شدةً على رجلٍ لا يقتصر الأمر فقط على عدم اكتراثه لحال ذلك الرجل، بل قد يزيد عليه العبء والشدة إذا أراد أن يأخذ منه منفعة. ومثال على ذلك هو من يكون حاكمًا على الناس، فبسبب كثرتهم وسلبياتهم يُبرر لنفسه أنه لا يستطيع استيعاب مشكلات كل هؤلاء. فبدلًا من أن يصبر بأن يكُف عنهم وينتهي، أو يترك منصبه لمن سيُحاول (وربما ينجح في) حل مشكلاتهم بينما لا يستطيع هو حل العقبات، يذهب ويُحمِّل عليهم، فتجده يضغط على الناس بأن يُخصص لنفسه مالًا أكثر على حساب كدِّهم -بالضرائب وما شابه-، بالرغم من أن في رعيته كثيرًا من المُتعسرين والفقراء والمساكين والمرضى والأرامل والأيتام.

---

[1] صحيح البخاري 6830.

وقسوة القلب خاصةً على الغلابة، وأكثر تخصيصًا إذا كانوا رعيته لأنه مسؤول عنهم أمام الله، أكاد أُجزم أن عاقبة ذلك يكون تنكيلًا من الله بالقاسي قلبه عاجلًا أم آجلًا في الدنيا قبل الآخرة. وإذا كان لا يُدرك أحدنا مدى ضرر قسوة القلب وقدر مصيبتها فليتخيل نفسه عندما يلقى الله يوم القيامة، ثُم يرى من الله شدةً معه في الحساب بدلًا من رحمةٍ، ماذا يكون مصيره وكيف سيكون شعوره؟ هذا وقد قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) "الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمْ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا أَهْلَ الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ"[1].

جاء في كتاب الله {أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (22) اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاء وَمَن يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} [الزمر 22-23]. هاتان الآيتان تدلان على أن من اتبع أحكام الإسلام بحق يكون على نور من ربه، بخلاف من أعرض، سواء بالمبدأ أو بتنفيذ الأحكام، فإنه يقسو قلبه حتى لا يذكر الله.

ويأتي في الآية التالية تأكيد على هذا، أن المؤمن يشعر بالقرآن ويتوغل في معانيه، وتكون النتيجة الواضحة باللين إلى ذكر الله لأنه يتعايش مع القرآن، ولين قلبه يظهر على عباد الله أيضًا. فكل ذلك يُسلب مع ارتكاب المعاصي، فيجد المرء أنه لا يُحب الذكر ولا قراءة القرآن، وإن قرأه استثقله وكأنه يؤدي واجبًا، غير مُتمتعٍ بحلاوته وغير مستوعبٍ لعظمته، يريد الانتهاء بأسرع وقت. وبذلك يُفوت على نفسه حظه من استشعار القرآن، مُتمثلًا في قشعريرة جسده عند بعض الآيات لما يستيقن فيهن من مُعجزاتٍ، والبكاء عند آيات الرحمة أو الوعيد، وتلك هدايا يمُن بها الله على عباده الصالحين.

إنما أردت من هذا الكلام إبراز المؤشر، أن من أعرض عن المعصية وجد نفسه يسهل عليه ذكر الله وتذكُّر فعل الصالحات، أما من أقبل على المعصية فقد أعرض عن ذكر الله بالتبعية. هذا لأن المعاصي تُنسي ذكر الله، وإن تذكر ثقل عليه ذلك، وإن بدأ لعل الله يمنعه بسبب كثرة المعاصي بأن يقطع ذكر المرء لله ويُشغله بالدنيا، والعياذ بالله من مكر الله بنا هكذا، ولا يلومن المرء إلا نفسه، فإنما يحصد ما يزرع. فذِكر الله مؤشر من المؤشرات على قرب العبد لله والبعد عن عصيانه، فيجب أن أسأل نفسي كم من الذكر لله أقوم به في اليوم؟

ولقسوة القلب توابع كثيرة خطيرة على العبد، ولو أن أحدنا انتبه عما ذُكر في القرآن عما يكون القاسي قلبه عُرضة له لكفى بتلك التوابع. فقد ذكرنا كيف أن القاسي قلبه يكون عُرضة

[1] سنن أبي داود 4290.

لوساوس الشيطان ومكره {لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ} [الحج 53]. أيضًا يتزين له سوء عمله {فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأنعام 43]. ومن التبعات هو نُكران الحق {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ} [الحديد 16]. بل وقد يشترك في تحريف الدين –وإن لم يُدرك أو يتعمد، فقد يوالي من يسعون لتحريف الإسلام بينما يستخدمونه في هذا الغرض وهو غافلٌ– {فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ} [المائدة 13].

وهناك نماذج لأناس قست قلوبهم فكان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يزجرهم على ذلك، مثل الواقعة عندما قال أعرابيٌّ: تُقَبِّلُونَ الصِّبْيَانَ؟ فَمَا نُقَبِّلُهُمْ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم "أَوَأَمْلِكُ لَكَ أَنْ نَزَعَ اللَّهُ مِنْ قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ؟"[1]. وقد يتساءل البعض، ما الضير من قسوة القلب إذ إنها تجعل المرء مُنجزًا في مُهمَّاته وعادة ينال من الدنيا حظًّا وفيرًا؟ وببساطة فإن قسوة القلب تجعل المرء أكثر ظُلمًا للناس ولا يُبالي، أي يكون مُتكبرًا، وقد يصل ذلك إلى سلوكه مع الله. ولكن أسوأ عاقبة للقاسي قلبه هو أنه يُعامل بالمثل من قِبَلِ الله، وذلك مصداقًا لقول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "مَنْ لا يَرْحَمُ لا يُرْحَمُ"[2]، فكما لا يرحم ذاك الشخص فإن الله لن يرحمه عند المحاسبة! فأي عاقبة أهلك من ذلك، إذ إنه ليس هناك من يُدخله عمله الجنة، ولا حتى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كما نبأنا، ولكن يدخل المرء الجنة فقط إذا تغمده الله بالرحمة...

المعاصي تجلب التراخي في الدين حتى يلتحق بالمرء صفات المنافقين

كلما أكثر العبد من العصيان كلما اقترب من التقاط صفات المنافقين (العملية)، ولكن ينبغي التوضيح أنه في الأول يأخذ من صفاتهم مثل الكذب ونقض العهد والخيانة، وهذا ينشأ بطبيعة الحال ليستطيع ارتكاب المعصية أو لسترها عن الناس. هنا لا يزال العبد مُسلمًا ولكن بدأ يكون هناك مفارقة بين عقيدته وأعماله، فإذا استمر على العصيان توشك هذه المُفارقة أن تصل إلى عقيدته فيصبح مُنافقًا عقائديًا –الذي يُخرج العبد من دائرة الإسلام–، والذي هو موضوع باب "النفاق أو الشرك أو الكفر"، وفيه سيتم ذكر الفرق بين النفاق العملي (أو الأصغر، والذي لا يُخرج العبد من الإسلام) والنفاق العقائدي (أو الأكبر، الذي به يخرج العبد من الإسلام).

---

[1] صحيح البخاري 5539.

[2] صحيح البخاري 5554.

إن العاصي ليتشرب من الأجواء السلبية التي يضع نفسه فيها ويلقط من صفات أهل المعاصي رفقاءه حتى تظهر عليه صفات نمطية لأهل المعاصي، مثل خذلان الدين. وخذلان الدين لا يتمثل في التقاعس عن تطبيقه فحسب، كما ذكرنا من قبل، بل إنه قد يبلغ مرحلة أنه لا تُثار حميَّته عند انتقاده، ومن ثمَّ لا يُدافع عنه ولا يغضب له. فمثلًا، إذا تعرَّض أحد الكفار إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) بالكلام المُسيء فإن العاصي لا ينتفض فلا يعترض أو يزجر الكافر. وهذا ينتج بسبب عدة أمور، منها أن الفاجر يكتسب صفات سلبية مثل الغدر والجُبن وخمول الغيرة والذُل فلا يتصدى للتعدي على الإسلام، ومنها أنه يجهل خطورة الوضع الذي هو فيه –أن يُنتهك دينه أمامه فلا يفعل شيئًا– من أنه سيُحاسَب على تقصيره.

وسواء كان سبب عدم تعرُّضه للمُعتدي كان الخوف، أو لأنه يرى نفسه هيّنًا أمامهم أو لا يُريد أن يُسقط مكانته بين هؤلاء الكفار أو لعدم الاكتراث لشيء غير سُمعته الشخصية، فقد أصبح شريكًا في هذه الجريمة –الاعتداء على الدين– بمجرد سكوته، ووضع نفسه في خانة كأنه يوافقهم رأيهم خاصة أنه يُجالسهم. ومن أبسط رد الفعل في مثل هذا الموقف، للمغلوب عن التصدي، هو اعتزال المُعتدي كما أمرنا الله {وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا} [النساء 140]، فمن لم يفعل سيلتصق به من صفات الكفار والمُنافقين في أضعف الأحوال. فالحذر الحذر من المعاصي إذ تُدخل على العبد بعضًا من صفات المنافقين، ثم تجمع عليه جميع صفات النفاق العملية، ثم تُنقله إلى النفاق الحقيقي.

المعاصي تُقلل السيمات التي تُميز بين المؤمن والكافر

من يؤمن بالحساب ودقته يُحسن العمل ويترك المعاصي. قال تعالى {وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (10) قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (11) وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ} [السجدة 10-12]. هذه الآيات تتكلم عن الذين جحدوا بآيات الله، فبعد البعث يُقِرّون ويندمون، ولكن لماذا حينئذ؟ أبعد أن قضوا شهواتهم في الحياة الدنيا واستمتعوا بها وفعلوا ما يريدون؟ أبعد أن نسوا الله ولقاءه؟ ولكنهم طمعوا، أردوا المتعة في الدنيا والآخرة، وليس هذا بالحق! أبعد أن تحدوا الله وقالوا "أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ" لأنهم بلقاء ربهم كافرون، ثم رأوا أنه يقدر على كل شيء.

أيتحججون بأنهم أيقنوا الآن ("أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا") والله يعلم أن قلوبهم استيقنت البعث والحساب من قبل؟ وعلى الصعيد الآخر، فإن لسان حال المُفرط في المعاصي يواكب ما قاله هؤلاء

الجاحدين، إذ إن العاصي يتجاهل الحساب حتى يستطيع أن يستمتع بالمعاصي. فلماذا أتشابه بهؤلاء بارتكاب معصية الله؟ هل أريد أن أوضع في موقف مثلهم أو أن أُحشر معهم مؤقتًا إذ إن عملي تشابه معهم جُزئيًّا؟ إذًا لماذا العصيان؟ ألا أستيقن البعث والحساب أمام الله يوم القيامة، الذي نبأنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) عنه في الموقف العصيب "مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إلا سَيُكَلِّمُهُ اللَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلا يَرَى إلا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلا يَرَى إلا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلا يَرَى إلا النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، وَلَوْ بِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ"[1]؟ فكيف لي أن أعصى الله وأنا لا أجد حجة أقولها له؟

وقال الله تعالى {فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [السجدة 14]. يُنسون (أي يُهملون) كما نسوا الله والبعث والحساب، فسيذوقون عذاب الخلد الذي يستحقونه، وهذا للذين كفروا باليوم الآخر، أي كفروا بالبعث والحساب، فغرقوا في الشهوات والمعاصي. فما الحكم على من أسلم ولكن عمله في الدنيا يدل على أنه يتناسى الحساب، أليس قد تشبه بهم عملًا؟ هذا وقد قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) "مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ"[2]، فأقول هذا وأخشى أن أكون معهم وجزائي النار أيضًا حتى إن لم أُخلّد فيها، لأني إن كنت غارقًا في المعاصي والشهوات فذلك قد يعني أني لا أخاف البعث والحساب، لأن خشية الأمر يقتضي الاستعداد له، فيا للحسرة.

منطقيًا، كيف لي أن أقول إني أؤمن بالآخرة والحساب ثم أرتكب المعاصي وأنا أعلم أني سأحاسب عليها؟ أيليق أن من مواصفات خُلُقي كمسلم تكون أن قولي وعملي يناقضان بعضهما؟! إن قلت إني أؤمن ثم أعصي ربي فهذا يعني أني إما منافق، أو أني لا أؤمن بالآخرة، أو أني لا أخاف الآخرة، أو أني سفيه، أو مجموعة من تلك الصفات. في كل الأحوال، إن أصررت على معصيتي لربي فإني أستحق أن أُحشر مع هؤلاء في النار.

والعجيب أن هناك من المسلمين من يفتخر أنه يتشبه بغير المسلمين، إما بالقول أو في الفكر أو في المظهر. يجب على المؤمن ألا يأخذ من غير المسلمين إلا ما لا يتعارض مع شرائع الإسلام ويعود بالمنفعة على الأمة. ولكن يظل أناس يتشبهون بهم حتى يتفاقم الوضع إلى أن نجد في بعض المسلمين بعضًا من الصفات التي قد وصف الله بها المشركين! فمثلًا، إن قارون قال عن وفرة ما يملكه من كنوز {قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي} [القصص 78، جزء من الآية]، ونجد في الدنيا من المسلمين من ينسب نجاحه في الحياة إلى تميزه ومجهوده ومهاراته بدلًا من إرجاع الفضل لله أنه وَفَّقَه.

---

[1] صحيح مسلم 1688.

[2] سنن أبي داود 3512.

وجاء أيضًا {وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [يونس 12]، قال مفسرون إن المقصد من كلمة "الإِنسَانَ" هو الكافر. ولكن هذه صفة أُخرى نجدها في كثير من المسلمين خصوصًا المتكبرين منهم، فإن أصابته ضراء أو بلاء تضرع إلى الله وتوسل إليه أن يكشف عنه ما يَغُمه، ولا يسأم من الإلحاح في الدعاء إلى الله. فإذا انكشف عنه ما يكره قد لا يشكر الله ويمضي وكأنه لم يمر بلحظات ضعفٍ في حياته قط، بل وقد يعود إلى ما كان عليه حاله من قبل إما بالسرقة أو أخذ الرشوة أو الكذب أو ظُلم الناس. ومنهم من شدة فجورهم قد يسرق أو يقتل حتى إذا قُبض عليه دعا الله أن يُنجيه من أخذ ما يستحقه من العقوبة، يريد التملص من عواقب ما جلبه على نفسه، وقد تغافل هذا أن عقوبة الآخرة أشد وأدهى.

وهذا السلوك يبلغ قمَّته في الذين كفروا، إذ إن همَّهم هو الرخاء في الدنيا فحسب، حتى لو اضطروا للجوء إلى الله كي ينالوها ولا يستحيوا. وهذا الكلام مستدلٌ عليه بما جاء في كتاب الله عن قوم فرعون لما أصابهم الله بالطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدم {وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُواْ يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (134) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ} [الأعراف 134-135]. فهذه كلها صفات قد ذمَّها الله في الكافرين، فكيف يرضى بعض المسلمين أن يتَّصفوا بها، فالأحرى أن يُطهر المسلم نفسه من تلك الصفات ويُميز نفسه عن الكافر.

وقضية أن المسلم يجب أن يُميز نفسه عن غير المسلمين ليست بالشيء الهين، إذ يكفي لنا أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان يُشدد على أهمية مخالفتهم والتميز عنهم، وذلك في عدة مواضع مثل في حديثه "خَالِفُوا الْمُشْرِكِينَ، وَفِّرُوا اللِّحَى وَأَحْفُوا الشَّوَارِبَ"[1]، وقوله "خَالِفُوا الْيَهُودَ فَإِنَّهُمْ لا يُصَلُّونَ فِي نِعَالِهِمْ وَلا خِفَافِهِمْ"[2]. وبيَّن لنا (صلى الله عليه وسلم) أنه يُميزنا من بين ملايين الناس يوم القيامة بسيماتنا ويُصنِّفنا أننا من أُمته، ومن ثمَّ يشفع لنا، وهذا في بقوله "أَنْتُمْ الْغُرُّ الْمُحَجَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ إِسْبَاغِ الْوُضُوءِ، فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ فَلْيُطِلْ غُرَّتَهُ وَتَحْجِيلَهُ"[3] (الْغُرُّ هو البياض في الوجهة من أثر الوضوء؛ الْمُحَجَّلُونَ أي الذين يسطع النور من أيديهم وأرجلهم من أثر الوضوء).

وقالها (صلى الله عليه وسلم) بوضوح "إِنِّي لأَعْرِفُ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ بَيْنِ الأُمَمِ" قَالُوا (الصحابة): يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ تَعْرِفُ أُمَّتَكَ؟ قَالَ "أَعْرِفُهُمْ يُؤْتَوْنَ كُتُبَهُمْ بِأَيْمَانِهِمْ، وَأَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ، وَأَعْرِفُهُمْ بِنُورِهِمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ"[4]. وهذا يشير إلى أبعاد أهمية التميز

[1] صحيح البخاري 5442.

[2] سنن أبو داود 556.

[3] صحيح مسلم 362.

[4] مسند أحمد 20745. صححه السيوطي بينما ضعفه الأرناؤوط.

عن غير المسلمين في الفكر والقول والعمل، فلا تستهِن يا أخي أن تُميز نفسك عن غير المسلمين حتى في المظهر، لأنه سيعود عليك بالمنفعة يوم القيامة.

بداية طريق المعصية هكذا. اللجوء إلى المعصية يكون له مقدمات، منها التكاسل عن ذكر الله وعن الأعمال الصالحة، ومنها مرافقة أناس سوء (مثل شاربي الخمر أو المشركين، فتنتقل إليه بعض عاداتهم)؛ أي أن المرء يكون في مناخ يُسَهِّل عليه الإقبال على المعصية وتنخفض لديه الموانع من ارتكابها. فمثل تلك الأفعال مقدمات للمعصية، ينبغي للمرء تجنبها حتى يسهل عليه الإعراض عن المعصية. ولو أنه لم يحتَط فسيجد نفسه مُعرِضًا عن الله وكتابه، مُقبلًا على المعاصي، وقد يتشبه بعض الشيء بالكفار الذين قال عنهم الله {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمَىَ (124) قَالَ رَبّ لِمَ حَشَرْتَنِيَ أَعْمَىَ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (125) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَىَ (126) وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدّ وَأَبْقَى} [طه 124-127].

ويرجى ملاحظة قوله تعالى "وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ"، وأن تلك من السمات التي بسببها يحشرهم الله عُميًا يوم القيامة، إذ إن الإسراف في المعاصي يستلزم على الأقل تجاهل ما تتضمنه آيات الله وهجر العمل بها، وهو العمى الجُزئي عن آيات الله. وأما الكافر، فإنه يُكذِّبها وليس يتجاهلها فحسب، وهو العمى الكُلّي عن آيات الله. وفي تلك الحالة، أي استعمائه عن آيات الله، تبدأ حياته أن تكون بؤسًا ووبالًا عليه، يتخبط في الحياة ويكون ضائعًا تائهًا فيها كما لاحظ الذين أسلموا بعد معيشة الشرك {قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ} [الأنعام 71]، حتى قد يبلغ ما سيأتي في الفصل القادم.

نهاية طريق المعصية هكذا. قال الله تعالى {وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمّ صَوّرْنَاكُمْ ثُمّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُوَاْ إِلاّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مّنَ السّاجِدِينَ (11) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ} [الأعراف 11-12]، فقال إبليس إنه لا يسجد لآدم (عليه السلام) لأنه أفضل منه. وبهذه الفعلة قد أثبت إبليس آنذاك أن آدم (عليه السلام) أفضل منه لأن إبليس عصى الله عمدًا مُصرًّا معاندًا بسبب كبره؟! أما سيدنا آدم (عليه السلام) فلم يكن قد عصى أوامر الله بعد، ولاحقًا عندما عصى الله لم يكن بإصرار وعناد، والدليل على ذلك هو أنه تاب بعدها لأنها كانت زلة لحظة.

حينئذ أصبح إبليس في أرذل الأرذلين ومن الملعونين، وأصبح أبغض مخلوق عند الله بعدما عصى الخالق. فلماذا أعصي ربي بعد أن رأيت أن المعصية قد تفيض إلى هلاك صاحبها بهذا الشكل؟! فقد تصل المعصية إلى حد أنها تجلب لعنة الله للعبد! وبداية طريق آخره لعنة من الله يكون اجتنابه من الحكمة والورع... مهما ظننت أني قادر على أن أنتهي عند حد معين في هذا الطريق ولا أبلغ اللعنة، فالمجازفة سفاهة في شيء كهذا! ومن ذا الذي يكون له حياة أو أهمية في هذه الدنيا إن كانت عليه لعنة الله!

أما في الآخرة، فإن من أسرف في المعاصي يدخل النار جزاءً لسوء عمله، فيُحشر مع زمرة المشركين الذين قال تعالى عنهم ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ [الزمر 32]. والذي كذَب على الله هو الذي ادعى على الله كلامًا باطلًا، مثل من جعل مع الله آلهة أخرى، أو ادّعى أن سيدنا عيسى (عليه السلام) ابن الله، أو أن الملائكة بنات الله. هؤلاء جاءوا ببهتان عظيمٍ وافتروا على الله كذبًا، فارتكبوا المظلمة الكبرى التي لا مظلمة بعدها، وما لا يوازيه بهتان وافتراء آخر، فكان جزاؤهم جهنم. فهل يرضى مسلم أن تكون عاقبته في الآخرة مع هؤلاء في جهنم، وأن يحشر مع من قال إن لله شركاء، ولو لفترة وجيزة؟

النفاق أو الشرك أو الكفر

في الباب السابق تكلمنا كيف أن عصيان الله يُبهت الفرق بين المسلم والكافر، وفي هذا الباب نُناقش كيف أن المرء إذا تمادى فإنه قد يخرج من ملَّة الإسلام بأفعال فيْصَلية تُناقض عقيدة ’لا إله إلا الله‘، فيتحول إلى أحد الفئات: مُنافق عقائدي أو مُشرك أو كافر. نستعيذ بالله من أن يصيبنا هذا، وبه نستعين، وندعوه أن يقينا من أن نصبح منهم، وأن يَحُول بيننا وبين حدوث ذلك، وأنه إن كانت أعمالنا تقودنا إلى ذلك أن يُبيّن لنا ويقودنا إلى الهدى ويعيننا على إصلاح حالنا.

إن المرء إذا عصى الله ثم استغفر، ثم عصى ثم استغفر، ثم عصى ثم استغفر، لا بأس عليه ما دام صادقًا وعازمًا في استغفاره وتوبته كل مرة، وإن وقع في نفس المعصية مرارًا وتكرارًا. ذلك لأن الأهم هو عدم إصراره على لزوم المعصية، وأنه يندم بعد فعلته. لكن، المشكلة تنتقل إلى مستوى آخر عندما لا يستغفر المرء لمعاصيه، أو يستغفر ولكن يكون مستخِفًا بها بأن ينوي ارتكاب المعصية ثانيةً، لأن ذلك يفتح عليه باب الإكثار من المعاصي أو حتى الانتقال إلى معصية أقبح، إضافة إلى أن توبته لا تكون صادقة.

ولا يزال حال المُصرّ يتفاقم حتى يقول قولًا أو يفعل فعلًا يُخرجه من دائرة توحيد الله، مثل أن يقول إن بعض قوانين الإسلام أصبحت غير مناسبة للتطبيق مع تطور الإنسان فلا حاجة إليها في

الحياة العملية. أو بأن يُعين غير المسلمين على غزو المسلمين لتكون لهم السيطرة إذ إنهم أكثر أموالًا وتقدمًا في الدنيا، وللأسف ما أكثر رؤيتنا لتلك النماذج مع تقدم الزمن.

ومن هؤلاء من قد ختم الله على قلوبهم من شدة قبح صنيعهم، فلا يريد الله لهم أن يهتدوا وينجوا {وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [المائدة 41، جزء من الآية]. وأصل المثل في الآية عن أناس حرَّفوا ما أنزله الله في التوراة كي يبلغوا مُرادهم، فنبأ اللهُ الرسول (صلى الله عليه وسلم) أنه لا يملك لهم نفعًا إذ قد أبى الله أن يُطهّرهم بالهداية. ولكن، هذا العقاب قد يُنزله الله لمعاصٍ أخرى أيضًا، إذ إن القاعدة الفقهية المتعلقة بالسياق القرآني: العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب.

ومن ثمَّ، هؤلاء لا يستطيعون الرجوع إلى الهدى وإن عزموا على ذلك ما دام الله لم يأذن لهم، وإن اجتمع جميع الناس لهدايتهم. هذا وقد ضلوا الطريق لدرجة أنهم يُعاندون كل الأدلة المشيرة إلى أنهم على الخطأ. بل ويُبررون أفكارهم الشاذة وإفسادهم في الأرض أمام كل دليل يُعرض عليهم، على أساس أن حالتهم هي الاستثناء في كل دليل، أو أن هذا الدليل لا ينطبق على وضعهم. وذلك بدلًا من الإقرار بالحق بعد أن رأوه، ومهما عُرضت عليهم من الأدلة فلا تُثمر معهم {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ (96) وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ} [يونس 96-97]. فهم، والعياذ بالله، يعشقون عيشتهم بالرغم من تيهتهم وتخبطِّهم فيها، وذلك من عمق توغلهم في الضلال واندماجهم مع الباطل {لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ} [الحجر 72]، عافانا الله من أن نصبح مثلهم.

وهناك عدة أدلة على أن كثرة المعاصي تفيض بالمرء إلى النفاق العقائدي، أو الشرك بأن يعشق حبيبًا فيُطيعه ولو كان مُخالفًا لأوامر الله، أو الكفر بأن يضعف إيمانه بالله واليوم الآخر إلى درجة أن الإسلام يهون عليه فيُلحد. فمن أبرز هذه الأدلة هي الآية التي توضِّح السبب المفضي بأُناسٍ إلى التكذيب بالآخرة {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [المطففين 14]. وجاء أن من السلف من قال: الْمَعَاصِي بَرِيدُ الْكُفْرِ[1] (بريد أي مقدمات وتسوق إلي)؛ ووضَّح ذلك ابن القيم (رحمه الله) قائلًا: الْمَعَاصِي بَرِيدُ الْكُفْرِ، كَمَا أَنَّ الْقُبْلَةَ بَرِيدُ الْجِمَاعِ، وَالْغِنَاءُ بَرِيدُ الزِّنَا، وَالنَّظَرُ بَرِيدُ الْعِشْقِ، وَالْمَرَضُ بَرِيدُ الْمَوْتِ[2]. وتلك أدنى منزلة ينحدر إليها المرء بسبب معاصيه وذلك آخر الطريق، إذ إنه لا هلاك أعظم من النفاق العقائدي، إذ إن المنافق العقائدي مصيره الدرك الأسفل من النار.

وعلى محور النفاق، يُفضَّل أن يُدرك المرء ما هي صفات المنافق حتى يحترس، لئلا يكون قد تسلل إليه النفاق وهو لم يشعر بذلك أو لا يعي بتحقيق ذلك معه. ولا ينبغي أن يستبعد أحدنا عن

---

[1] مجموع فتاوى ابن تيمية 494/7.

[2] الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي لابن قيم الجوزية 50.

نفسه النفاق، إذ كان الصحابة (رضي الله عنهم) يخشون أن يصيبهم، ولأن علماء ثقال قالوا إنه لا يأمن مِن النفاق إلا منافق! ولكن ما ينبغي فعله هو أن يبحث المرء منا في نفسه: هل فيه صفة من تلك الصفات؟ فإن وجد صفة مطابقة، فليقصوها من نفسه ويُعلِّي إيمانه، مع مراجعة نفسه بين الحين والآخر ومواجهتها ومساءلتها. قال ابن جريج في تعريف المنافق عامةً: المنافق يخالف قوله فعله، وسِرّه علانيته، ومدخله مخرجه، ومشهده مغيَبه [أي عندما يُشاهده الناس يكون أفضل عما وهو وحده مُستورًا].

ولكن قبل ذكر صفات المنافقين، ينبغي أولًا معرفة الفرق بين النفاق العقائدي وبين العملي، فالنفاق أنواع ودرجات. فهناك النفاق الأكبر (العقيدة) وهو الشخص الذي يُعلن الإسلام ولكن يُبطن دينًا آخر، وهناك النفاق الأصغر (الأعمال) وهو الذي يُبطن الإسلام ويُظهِره ولكن يخفق عند التنفيذ، فلا يعمل بما أمر به الله ورسوله (صلى الله عليه وسلم). وفي كل نوع منهما درجات، بمعنى أن هناك عبدًا قد يتَّصف ببعض صفات النفاق بينما هناك آخر يتَّصف بكل صفات المنافق. وتصنيف النفاق الأكبر، والذي هو في الحقيقة كفر ولكن صاحبه يُظهر الإسلام للمؤمنين، يثبت بوجود إحدى هذه التسع محاور:

1. تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم، أو تكذيب بعض ما جاء به.
2. بُغض الرسول صلى الله عليه وسلم، أو بغض ما جاء به.
3. المسرّة بانخفاض دين الرسول صلى الله عليه وسلم، أو الكراهية بانتصار دين الرسول صلى الله عليه وسلم.
4. عدم اعتقاد وجوب تصديقه فيما أخبر.
5. عدم اعتقاد وجوب طاعته فيما أمر، ولكن يُراءون المسلمين بتلك الأعمال.
6. أذية الرسول صلى الله عليه وسلم أو عيبه ولمزه.
7. مظاهرة الكافرين ومناصرتهم على المؤمنين، أو مجالستهم في أثناء تكلمهم بالكفر بآيات الله.
8. الاستهزاء والسخرية بالمؤمنين لأجل إيمانهم وطاعتهم لله ولرسوله.
9. التولي والإعراض عن حكم الله وحكم رسوله صلى الله عليه وسلم[1].

---

[1] نواقض الإيمان الاعتقادية لمحمد بن عبد الله بن علي الوهيبي 253؛ مع التعديل.

أما عن أمثلة لصفات المنفاق، والتي قد تتواجد عند المنافق (العقائدي وحده أو العملي وحده، أو كليهما)، فهي متعددة. نذكر بعضها:

- ترك صلاة الجُمعة دون عذر، وصلوات الجماعة في المسجد خاصةً العشاء والفجر إذ إنهما أثقل صلاتين على المنافق. قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْكِتَابَ وَاللَّبَنَ"، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا بَالُ الْكِتَابِ؟ قَالَ "يَتَعَلَّمُهُ الْمُنَافِقُونَ ثُمَّ يُجَادِلُونَ بِهِ الَّذِينَ آمَنُوا"، فَقِيلَ: وَمَا بَالُ اللَّبَنِ؟ قَالَ "أُنَاسٌ يُحِبُّونَ اللَّبَنَ فَيَخْرُجُونَ مِنْ الْجَمَاعَاتِ وَيَتْرُكُونَ الْجُمُعَاتِ"[1] (فَيَخْرُجُونَ مِنْ الْجَمَاعَاتِ وَيَتْرُكُونَ الْجُمُعَاتِ أي يذهبون إلى البادية ليرعوا الدواب التي تُنتج اللبن، ثم لا يعودون للصلاة في جماعة المسجد ولا حتى صلاة الجُمعة).

- التكاسل عن الصلاة وقلة ذكر الله. قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن من يؤخر صلاة العصر إلى قبيل المغرب "تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ، يَجْلِسُ يَرْقُبُ الشَّمْسَ حَتَّى إِذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرْنَيْ الشَّيْطَانِ قَامَ فَنَقَرَهَا أَرْبَعًا، لَا يَذْكُرُ اللَّهَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا"[2] (يَرْقُبُ أي ينتظر ويُتابع؛ نَقَرَ أي يخطف، وهو تشبيه سجود المنافق بنزول وطلوع الطيور سريعًا بمنقرها عندما تأكل من الأرض).

- أعماله تُحدث المفاسد على أرض الواقع وتُلحق الأضرار بالناس، وذلك إما عمدًا أو جهلًا. وربما حتى يُؤصِّل الفساد بين الناس وفيهم، فيكن مُفسدًا أيضًا وليس فاسدًا فحسب. {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (11) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ} [البقرة 11-12].

- التلون مع الناس بحسب الوضع، وذلك خوفًا منهم أو تملُّقًا لذي سلطانٍ أو جاهٍ أو مالٍ لمصلحة يبغيها. يُنبئنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "وَتَجِدُونَ شَرَّ النَّاسِ: ذَا الْوَجْهَيْنِ؛ الَّذِي يَأْتِي هَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ وَيَأْتِي هَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ"[3]؛ "إِنَّمَا مَثَلُ الْمُنَافِقِ مَثَلُ الشَّاةِ الْعَائِرَةِ بَيْنَ الْغَنَمَيْنِ، تَعِيرُ إِلَى هَذِهِ مَرَّةً وَإِلَى هَذِهِ مَرَّةً، لَا تَدْرِي أَيَّهُمَا تَتْبَعُ"[4] (الْعَائِرَةِ أي المترددة بين قطيعين؛ تَعِيرُ أي تذهب).

---

[1] مسند أحمد 16680.

[2] صحيح مسلم 987.

[3] صحيح البخاري 3234، جزء من الحديث.

[4] مسند أحمد 5528.

- اللَّعن والسبِّ والفُحش والبذاءة والقسوة والشُح. قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ الْحَيَاءَ وَالْعَفَافَ وَالْعِيَّ -عِيَّ اللِّسَانِ لَا عِيَّ الْقَلْبِ- وَالْفِقْهَ مِنْ الْإِيمَانِ، وَهُنَّ مِمَّا يَزِدْنَ فِي الْآخِرَةِ وَيُنْقِصْنَ مِنْ الدُّنْيَا، وَمَا يَزِدْنَ فِي الْآخِرَةِ أَكْثَرُ. وَإِنَّ الْبَذَاءَ وَالْجَفَاءَ وَالشُّحَّ مِنْ النِّفَاقِ، وَهُنَّ مِمَّا يَزِدْنَ فِي الدُّنْيَا وَيُنْقِصْنَ فِي الْآخِرَةِ، وَمَا يُنْقِصْنَ فِي الْآخِرَةِ أَكْثَرُ"[1]. عِيَّ اللِّسَانِ هو الضعف في النطق والتعبير، والعجز عن البيان؛ وَهُنَّ مِمَّا يَزِدْنَ فِي الْآخِرَةِ وَيُنْقِصْنَ مِنْ الدُّنْيَا، وَمَا يَزِدْنَ فِي الْآخِرَةِ أَكْثَرُ أي أنهم يُزدن من ثواب المرء في الآخرة ويُنقصن من نصيبه من الدنيا، ولكن زيادتهم من نصيب الآخرة يفوق انتقاصهم من نصيب الدنيا، ثم جاء أن العكس صحيح بالنسبة إلى الأخلاق الذميمة المذكورة. وَالْجَفَاءَ أي القسوة والغلظة، أو ترك البر والصِلة؛ وَالشُّح هو البخل مع الحرص على الجمع.

- خيانة الأمانة، والكذب، ونقض العهود، والتمادي بالظلم عند المُخاصمة. قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ"[2]. وهذه هي الصفات الأساسية التي قد يتَّصف بها المُسلم العاصي فيصبح بهن منافقًا عمليًا.

- عدم جهاد أعداء الله مع غياب نية جهاد العدو أصلًا. حذرنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) "مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ، مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ"[3].

- كره الإنفاق في سبيل الله بما يشمله، مثل للجهاد أو للتصدق أو لإطعام مسكين أو للإنفاق على اليتيم والأرملة أو لعون الغارمين الغارقين في الديون {وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ} [التوبة 54].

- حث الناس على المنكر وزجرهم عن المعروف {الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [التوبة 67] (وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ أي يُمسكون عن الإنفاق في الخير، حتى عن الواجب منها مثل الزكاة إن استطاعوا).

---

[1] سنن الدارمي 509.

[2] صحيح البخاري 33.

[3] صحيح مسلم 3533.

- نقض الوعد مع الله {فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ} [التوبة 77].

- الفرار من الجهاد واختلاق الأعذار لتجنبه {فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ} [التوبة 81]. بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ أي بجلوسهم في بيوتهم وترك الله ورسوله صلى الله عليه وسلم لهم في المدينة بينما ذهب المسلمون للجهاد، ومخالفين بذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنفير للجهاد.

فمن يجد منا في نفسه شيئًا من تلك الصفات، فليُعالجها بأن يُراجع ويُصَحّح نيَّته ويُسيطر على نفسه كي يرتقي في الإيمان. ومن أراد أن يتفقه عن أي تلك الصفات تنطبق على المنافق العقائدي أو المنافق العملي، فليراجع الكتب المتخصصة. فالمعاصي قد تسوق المرء إلى النفاق، سواء بطبيعتها أو بجلب مكر الله، وإن واظب المرء على الصلاة والصيام. هذا حتى إنه قد يدخل العبد في النفاق الأكبر فيخرج من الإسلام، كما دل حديث آخر لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) "آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ"[1]. فالحذر الحذر.

وحقيقة المنافق العقائدي ومصيره قد نبأنا الله بهما {يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاء أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ} [الحديد 14]. هذا رد المؤمنين على المنافقين يوم القيامة عندما يريدون أن ينتفعوا بنور المؤمنين ويُحسَبوا منهم. هذا ردٌ بالغٌ في التحليل والتعبير، ويستحق المنافقون هذا الرد القاسي يوم القيامة جزاء بما كانوا يريدونه من أذية المؤمنين في الدنيا. ذلك لأنهم ارتكبوا عدة أعمال كلها تُضعف شوكة المؤمنين وتُعَطِّل تفعيل هذا الدين في الأرض، إن لم تكن تهاجمهما.

فمنها أنهم فتنوا أنفسهم، أي اغتروا بالحياة الدنيا واتبعوا شهواتهم مما أدى إلى ترك واجبات هذا الدين، بالإضافة إلى انتهاك نواهيه. ومنها أنهم تربصّوا، أي أملوا أو حتى خططوا مكايد سوء تصيب النبي (صلى الله عليه وسلم) والمؤمنين. وكما نرى في زمننا هذا أناس لا يأتون فرائض هذا الدين ويعيشون في جهل عن منهجه، ويتربص (ويكأنه ينتظر ويراقب) بالمؤمن أن يُخطئ، ثم يقول بشماتة واستهزاء: هؤلاء هم المتدينون والملتزمون. مثل ذاك الشخص يتخذ أخطاء الملتزمين حُجةً

[1] صحيح مسلم 90.

كي يبقى على فُجرِه، بل وليهاجم الإسلام بطريقة غير مباشرة، إذ يريد قول أن من يُطبِّق الشرائع الإسلامية بحذافيرها ليس أفضل منه حالًا.

وقد ينتقص منهم أكثر بأن يقذف أن التزامهم إنما هو فقط مظهريٌ (تلميحًا إلى أنه هو يُطبق جوهره والذي هو الأهم)، مُجادلًا أن المُلتزم إذا تعرض لفتنة المال أو النساء -خاصةً في الخفاء- فإنه يتصرف بشهوته وليس بما يُمليه الشرع فيرتكب المعصية. بل وقد يظن المُتربص أنه أفضل منهم إذ إنه لا يُرائي أنه من الملتزمين، ويتجاهل أن هذا الملتزم -إن ارتكب ما يدَّعيه- يُمثل إنسانًا يُخطئ ويصيب ولكنه على الأقل يجتهد في تطبيق الشريعة. وهذه فتنة كبيرة تصدر من المُتربص، إذ إن ضرره على نفسه والمجتمع لا ينحصر في إهماله للواجبات الدينية، بل إنه يتعمد الضرر لمن كافح ويريد التثبت بمنهج الله، بأن يهاجم وينتقد من يريد أن يلتزم بأمور الدين الفرضية والسُنّية، وبهذا يكون أكثر إعاقة لتمكين هذا الدين في الأرض -بنشء الفتنة-.

ومنهم من يرتاب في دينه، أي أنه يمشي على منهج ولكن كل كلمة سلبية (شُبهة) تُهاجم هذا الدين تؤثر فيه أو يؤمن باحتمالية صِدقها، فهو ضعيف الإيمان حيث إن الكلام التعريضي قد يجعله يتشكك في صحة دينه والعياذ بالله. ومن أعمالهم أيضًا أنهم اغتروا بالأماني، أي خدعوا أنفسهم بأنهم صدّقوا أمنيتهم أن يصيب الرسول (صلى الله عليه وسلم) والمؤمنون الأضرار والمصاعب حتى يخمد هذا الدين وينطفئ نوره، أو أن يرتد المؤمن عن تمسكه بالإسلام ويكون مثلهم. وبينما المؤمنون في كدٍ وسجنٍ عن شهواتهم استعدادًا للموت، يستمتعون هم بالدنيا وأولويتهم هي تحصيلها.

وربما بعض منهم ينوون الانصلاح والتوبة قبل مماتهم، لكن لا يحدث هذا، إذ إن الله يمكر بهم كما يمكرون بالرسول (صلى الله عليه وسلم) وبالمؤمنين وبالإسلام ليُخمدوهم، فيأتي أجلهم وهم لم يستطيعوا العدول عما هم فيه. فيجدون أنفسهم فيما هم فيه، ويرون الحق بأعينهم، ولكن من شدة تَعَوُّدِهم لما كانوا فيه يظلون كذلك حتى يوم القيامة، فيقولون للمؤمنين مكرًا: ألم نكن معكم؟! حتى بعد كل تلك المحاربة للإسلام وأتباعه فإنهم يرجون النجاة معهم... سبحان الله. أي غدرٍ ونذالةٍ وتلَوُّنٍ ذلك؟ فاحذر أخي، أن تتهاون في العصيان فتستدرجك المعاصي حتى تجد إحدى تلك الصفات قد التحقت بك، فيجد المرء نفسه انحدر إلى مستوى النفاق العقائدي (أي الأكبر) وهو لم يلاحظ، والعياذ بالله.

ومن أجل أن يظلوا على ما هم عليه من استمتاعٍ بالدنيا بالمعاصي، يتطلب ذلك منهم تصرفات مُحددة حتى يبلغوا مرادهم، مثل أن يخادعوا الناس أنهم مؤمنون وهم في الحقيقة متمسكون بالدنيا وليس الدين (وهذا يتطلب أن يكذبوا بالطبع)، فيُقابلون المُتقين بوجهٍ ويظهر منهم وجهٌ آخر عندما يخلون ببعضهم. وأبرزت الآية هذا بوضوح {وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى

شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ} [البقرة 14]. فقد أعطيت مثالًا على لجوئهم للكذب لخداع الناس، أما في الخيانة فكما أحدثوا فتنة في جيش المسلمين حتى رجعوا بثُلُثه في غزوة أُحُد.

وينقضون العهد إذ إنهم يُعطون المسلمون المواثيق أنهم سيسلمون منهم، ولكنهم يبوحون بأسرار وثغرات المسلمين للأعداء المتربصين. ويفجرون في المخاصمة كما فعل أُبيّ بن خلف (الذي فاتته فرصة رئاسة أهل المدينة لقدوم الرسول صلى الله عليه وسلم، فأضمر للرسول الخصومة ولكن أعلن أنه أسلم) عندما قال: ليُخرِجَن الأعز منها الأذل؛ يقصد بذلك أنه هو العزيز وأنه سيُخرج الرسول (صلى الله عليه وسلم) من المدينة عندما يرجعون.

فكل تلك من خصال المنافق، والمؤمن الذي يعصي الله تفرض عليه تلك الصفات نفسها حتى تلتصق به (الأرجح أنها تبدأ بالكذب، فقد يكذب العاصي كي يستر نفسه)، فإذا التصقت به إحداها أصبح فيه خصلة من النفاق العملي، فإذا تمادى التحق به جميعها حتى يصبح منافقًا خالصًا، ثم يُصبح منافقًا عقائديًّا. وهذا ما حذَّر منه الرسول (صلى الله عليه وسلم) "أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ"[1].

أما بالنسبة إلى الشرك، فقد تكلمنا عن كيفية حدوثه في أبواب سابقة، مثل تقديم آراء وقوانين أحد من الناس على قوانين الله، فيصبحون كالذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، أو اتخاذ المرء هواه كالدليل إلى الحلال والحرام، فاتَّخذه إلهه هواه بينما يقول إنه مُسلمٌ لله. وطريقة أخرى من الشرك هو عن طريق الرياء، والذي يبلغ مداه بأن يُصلي الشخص ليقول الناس عنه إنه يُصلِّي، فإذا خفي عن أعين الناس أو غفلوا عنه فإنه لا يُصلي؛ فهذا الشخص همّه هو الناس وما يقولونه وليس همَّه إرضاء الله الذي يراه. وهناك طرق أُخرى، ويكفي الإشارة إلى بعض الأمثلة على أن المعصية تُفضي إلى الشرك، مما يُغني عن الاستفاضة.

وفيما يختص بمحور الكفر، فإن إبليس آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر، ومع ذلك فإنه سيخلد في جهنم. فهو لم يكفر بوجود الله، وإنما عُدَّ من الكافرين بسبب كفره (أي جحد) بحق من حقوق الله، وهو وجوب طاعة الله كمبدأ، كما نبأنا الله {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ} [البقرة 34]. ذلك بالإضافة إلى حثّه بني آدم على الكفر بوجود الله كُليًّا، فيستحق الخلود في جهنم لذلك أيضًا، ليُحشر مع من جعلهم يكفرون {فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ} [الحشر 17]. الشاهد هو، أن المرء العاصي قد يبلغ درجة من التمادي في العصيان إلى حد أن أفعاله تبلِّغه أن يُعدّ من الكافرين،

[1] صحيح البخاري 33.

بالرغم من أن لسانه يقول خلاف ذلك. فكيف يكون مؤمنًا بالله وهو لا يقتنع بأن لله حدودًا يجب الوقوف عنها {وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ} [النساء 14]؟

وتلك هي الحقيقة التي لا جدال فيها، أن المعاصي تسوق العبد إلى التدرج في الضلال حتى أنه قد يصل إلى الهلاك الأكبر: الكفر. قال تعالى {وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ} [الحجرات 7]. أريد إبراز نقطة في هذه الآية، وهي قوله تعالى "وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ"، وأريدكم أن تلاحظوا الترتيب الذي وضعه العليم الحكيم في هذا النص. أولًا جاء الكفر، ثانيًا الفسوق، ثالثًا العصيان، أي من الأسوأ إلى الأخف سوءًا.

وهذا يدل على شيء، أن الطريق إلى الهلاك الأقصى يأتي في ثلاثة مراحل مُتدرجة، العصيان، ثم الفسوق، ثم الكفر. العصيان معروف، وقد أفلح من تاب واستغفر بعد المعصية واجتنب الكبائر، وهذه من صفات المؤمن. ولكن من لا يتوب يُعرِّض نفسه بأن يكون أكثر قابلية للانتقال إلى المرحلة التالية، وهي الفسوق، وهو كثرة العصيان شاملًا للكبائر أيضًا حتى يكاد المرء أن يفسق (أي يخرج) من طريق الإسلام، وهذا مرض خطير يجب العدول عنه سريعًا لأن المرء لا يضمن أين ينتهي به المطاف آنذاك.

ومن تمادى في الفسوق يكون أكثر قابلية للكفر، لأن من أطال في الفسوق يتغير قلبه ويصبح قاسيًا متكبرًا، فيعرض عن الحق، فيكفر بأنعم الله ويُنكر الحقائق. وذلك لأنه أصبح يعيش في عالم منفصل في الوهم أن الشهوات يجب أن تُلبى وتُشبَّع ولا يمكن مقاومتها، ويُحرِّف مفاهيم الشرائع حتى تتناسب مع حياته، أي يُفَصِّل الإسلام على مقاس أفعاله الشهوانية حتى لا يضطر إلى الإقلاع عنها.

لُب القضية هو أن بداية الطريق إلى الكفر هو العصيان، ولكننا جميعًا نقع في المعاصي لا محالة، فالحل أن نتوب ونرجع بالاستغفار قبل أن تتمكن تلك الذنوب من قلوبنا فتصبح عادات وننتقل إلى الفسوق. هذا وقد قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "التَّائِبُ مِنْ الذَّنْبِ كَمَنْ لا ذَنْبَ لَهُ"[1]، وقد جاء في شرح الحديث للسندي: (كَمَنْ لَا ذَنْب لَهُ) ظَاهِره أَنَّ الذَّنْب يَرْفَع مِنْ صَحَائِف أَعْمَاله، وَيَحْتَمِل أَنَّ الْمُرَاد التَّشْبِيه فِي عَدَم الْعِقَاب فَقَطْ وَاَللَّه أَعْلَم بِالصَّوَابِ (انتهى). فنأمل من الله أن آثار الذنب التي تُمحى تشمل أثره على القلب أيضًا، والله قادر على كل شيء وهو الجواد.

---

[1] سنن ابن ماجه 4240، الحديث مرفوع منقطع ولكن حسَّنه ابن حجر والألباني لشواهده.

فالحمد لله الذي يقبل التوبة، ويغفر بالاستغفار، ومُحيطٌ بالأسباب التي تجعلنا نقع في معصيتنا له، ويسعنا بالرغم من أننا نعصاه وهو القادر علينا والغني عنا. بل إنه يُحب عباده المنكسرين له بالتوبة بعد أن عصوه، واعترفوا أنهم أخطأوا في حقه عليهم، وأنابوا إليه لأنهم أدركوا أن لا ملجأ لهم إلا إليه العظيم مالك الملك. بل وأكثر من ذلك، فحتى إن وقعنا في نفس المعصية ثانيةً وثالثةً، فإنه لا يؤاخذنا في لحظتها أو يعاقبنا بغتة {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا} [فاطر 45]، فلا يزال يرأف بنا.

بل وأكثر وأكثر من ذلك، فإن الله يصبر علينا ويرقب توبتنا بالرغم من أنه هو الغني عنا، فيعطينا فرصة للتوبة التي يتجاوز بها عن معصيتنا تمامًا. وهذا ما دل عليه حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ عَبْدًا أَصَابَ ذَنْبًا (وَرُبَّمَا قَالَ: أَذْنَبَ ذَنْبًا) فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ (وَرُبَّمَا قَالَ: أَصَبْتُ) فَاغْفِرْ لِي، فَقَالَ رَبُّهُ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، غَفَرْتُ لِعَبْدِي. ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ أَصَابَ ذَنْبًا (أَوْ: أَذْنَبَ ذَنْبًا) فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ (أَوْ: أَصَبْتُ) آخَرَ فَاغْفِرْهُ، فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، غَفَرْتُ لِعَبْدِي. ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا (وَرُبَّمَا قَالَ: أَصَابَ ذَنْبًا) قَالَ: رَبِّ أَصَبْتُ (أَوْ قَالَ: أَذْنَبْتُ) آخَرَ فَاغْفِرْهُ لِي، فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، غَفَرْتُ لِعَبْدِي (ثَلاثًا)، فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ"[1].

وأهم أمر -إذا كان ولا بد من الوقوع في المعصية- هو تجنب الكبائر، مع الاستغفار باستمرار والتوبة المتكررة كما حثنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "وَاللَّهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً"[2]. ونحمد الله على أنه خلقنا نعصيه لا محالة، لأننا لأن لم نعصِه ستأخذنا طبيعتنا بالعزة والفخر بالنفس والتعاظم والتكبر بسبب عصمتنا، ولكننا بعد المعصية نندم وننكسر ونجري شاكين إلى الله حالنا وما أحدثناه طالبين أن يغفر لنا ويُصلح ما تسببنا فيه وألا يُعاقبنا، فيتبين لنا ويظهر له ضعفنا وذلتنا أمامه، ونَقصنا وفقرنا إليه. وفي نفس الوقت، التوبة فيها إقرار بكمال الله وعظمته وهيمنته المطلقة، ونتذلل له أننا نحتاج إلى عفوه عنا، وأننا لن نرتاح حتى يعفو عنا لأننا نُدرك على أنه قادرٌ علينا بأن يؤاخذنا ويُعذبنا عليها، وفقط بعد ذلك قد نُسامح أنفسنا أيضًا.

وهذا الوضع شبيهٌ جدًّا بالطفل الذي يفعل ما ينهاه أبوه، كمسك النار فضولًا، فيؤذي نفسه ويبكي من الألم إلى أبيه بعد فعلته، ويطلب منه مُساعدته ومُعالجته. ومع العلم، الاعتراف بالخطأ ليس بالأمر السهل كما يبدو، ولا يقدر عليه بعض الناس (المتكبرين مثلًا)، فهذه نعمة من الله يهبها

---

[1] صحيح البخاري 6953.

[2] صحيح البخاري 5832.

لمن يتواضع من خلقه، لأن الإقرار بالخطأ يظهر الضعف ويُثبت الأخطاء ويفتح الإنسان على نفسه العتاب، ففيه دلالة على الاستسلام والانقياد إلى عقوبة المُعترف له. وفيه دلالة على الثقة في مَن نُقِّر له، لأننا نضع أنفسنا تحت تصرفه ليقضي فينا ما يراه. فالاعتراف بالخطأ يحتاج إلى صدق مع النفس ورزانة وتواضع ونزاهة وشجاعة، أي يحتاج إلى شخصية سوية.

ودلالة أخرى أن المعاصي تؤدي إلى الكفر جاء في قول الله تعالى {وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ} [النمل 24]. هكذا يكون حال الضالين، يظنون في أنفسهم أن أعمالهم صائبة وعظيمة، وأنها تكفي لدخولهم الجنة، بل وربما يتوهمون أنها تعظم لحد أنهم يستحقون أرقى درجات التكريم، وهي في الحقيقة امتداد لذنوبهم، قد أقنعهم الشيطان بحُسنها وصلاحها وأنها تقرُبٌ إلى الله بطريقة فريدة. وهذا من أساليب الشيطان في التضليل، إن رأى عبدًا عَزم على عبادة الله بدلًا من الكفر فإنه يُزين له أنواع العبادة المُبتَدَعة أو التي فيها شرك، فبعد أن يذهب هذا الشخص للتعبد يكون سعيدًا بعمله، ولا يدري أن عمله ذهب هباءً، بل ومحسوبًا عليه كذنبٍ عظيمٍ أيضًا.

والعجيب أن العكس في المؤمن، فهو لا يرتاح البال مهما قدم من عمل صالح لأنه يخشى أن الله لم يتقبله، ويرى أنه حتى إن قبله الله فلا يكفي لفكاكه من النار وينبغي له تقديم المزيد، وذلك لأن المؤمن يدرك أنه مهما عَبَد الله فلن يعبد الله حق عبادته. وما يؤيد كلامي ما فعله سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) عندما نبأ الله النبي (صلى الله عليه وسلم) بأسماء المنافقين، فعرَّف رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الأسماء لسيدنا حذيفة (رضي الله عنه) وائتمنه على الأسماء ألا يعطيها لأحدٍ؛ فذهب سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يقول لحذيفة: يَا حُذَيْفَةُ، نَشَدْتُكَ بِاللَّهِ، هَلْ سَمَّانِي لَكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْهُمْ؟ (يعني في المنافقين)، قَالَ : لا، وَلا أُزَكِّي بَعْدَكَ أَحَدًا (أي لا أُنبِئ أحدًا بعدك)[1].

فهذا سيدنا عمر (رضي الله عنه) شك في نفسه إخلاصه لله في عمله... وأن يكون عمله في ضلال بسبب الشيطان، أو فيه رياء، أو أنه يُستدرج، أو أنه قد وقع في شيء يُحبط عمله. فإذا كان سيدنا عمر يخشى على نفسه النفاق، فماذا ينبغي أن أخشى على نفسي، ومن أولى منا بالشك في نفسه؟ وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ التَّيْمِيُّ: مَا عَرَضْتُ قَوْلِي عَلَى عَمَلِي إِلا خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ مُكَذَّبًا. وَقَالَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ: أَدْرَكْتُ ثَلاثِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلُّهُمْ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ، مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ يَقُولُ إِنَّهُ عَلَى إِيمَانِ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ. وَيُذْكَرُ عَنْ الْحَسَنِ [وهو يتكلم على النفاق]: مَا خَافَهُ

[1] مدارج السالكين لابن قيم الجوزية 365/1.

إلا مُؤْمِنٌ وَلا أَمِنَهُ إلا مُنَافِق. ويُحْذَرُ مِنْ الإِصْرَارِ عَلَى النِّفَاقِ وَالْعِصْيَانِ مِنْ غَيْرِ تَوْبَةٍ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى {وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ}[1].

وهذا كله مخافة الصحابة (رضي الله عنهم) ومن اقتدى بهم من أن يُبطَلَ عملهم أو أن يكون فيه ما يُحبطه وهم لا يشعرون، لأنهم عايشوا كتاب الله كما ينبغي، الذي جاء فيه مُحذرًا {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ} [محمد 33]. وجاء فيه أيضًا {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [الصف 5، جزء من الآية]، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ} [الحجرات 2].

يُضاف إلى هذا أن الله قد حذَّر من الإصرار على المعصية {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [آل عمرن 135]. والإصرار على المعصية هو: التَّعَقُّدُ في الذنب والتشدد فيه، والامتناع من الإقلاع عنه (نيّة الدوام على الذنب وملازمته). وقد بيَّنت الآية أن الاستغفار سبيل إلى عدم إصرار العبد على المعصية، ويؤيد هذا ما جاء عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "مَا أَصَرَّ مَنْ اسْتَغْفَرَ، وَإِنْ عَادَ فِي الْيَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةٍ"[2]. وقد جاء في فتح الباري بشرح صحيح البخاري: فمن أصر على نفاق المعصية خُشي عليه أن يُفضى به إلى نفاق الكفر.

فما بالي أُقدّم من الأعمال الصالحة اليسير ومن المعاصي الكثير وأفخر بعملي، وأرى أني ناجٍ وداخلٌ أعلى درجات الجنة، ويُضاف عليه أني لا أشك في نفسي النفاق؟ فهذا طريق الهلاك! فمن أدعى للخوف على نفسه من النفاق، أنا أم الصحابة؟

تعجيل قيام الساعة

إن العُصاة والعصيان إذا كثر في الأرض فإن الله يوشك أن يُقيم الساعة. هذا لأن الدنيا جعلها الله لتكون مكان الاختبار، فإذا أصبح عامة الناس فيها لا يطيعون الله فلا يُقيمون شرائعه، ذهب الهدف من بقاء الدنيا إذ عامة الناس يفشلون في الاختبار، فلن يُبقيها لأن الله متعالٍ ومُنَزَّه من أن يترك شيئًا قائمًا عبثًا أو لهوًا، أي دون مغزًى. وهذا مُستدل عليه في أحاديث عديدة للرسول

[1] صحيح البخاري، كتاب: الإيمان، باب: خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر.

[2] سنن أبي داود 1293؛ الراوي: أبو بكر الصديق (رضي الله عنه). سكت عنه أبو داود إذ فيه انقطاع، ولكن أشار إلى أن ما سكت عنه فهو صالح؛ وذكر مثله الترمذي قائلًا: قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ إِنَّمَا نَعْرِفُهُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي نُصَيْرَةَ وَلَيْسَ إِسْنَادُهُ بِالْقَوِيِّ. والحديث حسنه ابن كثير في التفسير 106/2 والعسقلاني في فتح الباري 137/1، ولكن ضعَّفه السيوطي في الجامع الصغير 7822، والألباني في السلسلة الضعيفة 4474.

(صلى الله عليه وسلم)، مثل ما ذكرناه عندما سألته السيدة زينب (رضي الله عنها): يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ "نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ"[1]، وحديث "لَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا عَلَى شِرَارِ النَّاسِ"[2]. فلنعي أن كلما أكثرنا المعاصي، عجَّلنا قيام الساعة.

وختامًا لهذا العنوان، أقول إن كلامي عامةً مُشمل بمضمونه فيما كتبه الشيخ ابن القيم (رحمه الله) في كتابه: الجواب الكافي/الداء والدواء. وقد أجمل قائلًا إن ضرر الذنوب على القلب كضرر السموم على الأبدان، وإن لها من الآثار القبيحة المذمومة المضرة بالقلب والبدن في الدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا الله. ومما قاله ولم أذكره هو أن المعاصي تُقصر العمر (إما بركةً أو حتى حقيقةً)، وأنها تُدْخِلُ العبد تحت لعنة رسول الله (صلى الله عليه وسلم).

ولكن أجمَع من هذا الكلام، في تبعات العصيان، هو ما قاله رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمًا فَقَالَ: يَا قَوْمِ إِنِّي رَأَيْتُ الْجَيْشَ بِعَيْنَيَّ وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ، فَالنَّجَاءَ. فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ فَأَدْلَجُوا، فَانْطَلَقُوا عَلَى مَهَلِهِمْ فَنَجَوْا، وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ، فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَاحَهُمْ. فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي فَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ بِمَا جِئْتُ بِهِ مِنْ الْحَقِّ"[3] (فَأَدْلَجُوا هو السير في أثناء الليل؛ وَاجْتَاحَهُمْ أي استأصلهم). فعصيان الله هلاك في الدنيا والآخرة.

---

[1] صحيح البخاري 3097.

[2] صحيح مسلم 5243.

[3] صحيح البخاري 6740.